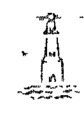
طه حسين

حديث الأربعاء

٣





دار المعارف

طه حسين

حديث الأربعاء
٣

الطبعة الثانية عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

كان نشر هذا الكتاب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى – رحمه الله – فى جريدة السياسة مثاراً لجدل عنيف وخصومة خصبة لها فى تاريخ الأدب العربى الحديث أثر أى أثر .

لذلك رأيت أن أثبت نص هذا الكتاب ، ليستطيع القارئون من الشباب الذين لم يشهدوا هذه الخصومة أن يتتبعوها واضحة جلية .

وهذه الفكرة نفسها قد اقتضت أن أنشر فى هذا الجزء فصلا يتصل بهذه الخصومة قد نشر فى الجزء الثانى من حديث الأربعاء ، لتكون قضية الخصومة بين القديم والجديد كاملة . ولن يعاد نشر هذا الفصل فى الجزء الثانى ؛ لأن مكانه فى هذا الجزء .

أسلوب فى العتب

سيدى الفاضل الدكتور حسين هيكل بك

أرسل إلى السياسة هذه الرسالة عاتبت بها ظريفاً من أدباء الشام كنت كتبت إليه فتفتّر فى رد كتابى ؛ لأن جماله ظرف وظرفه جمال ، وهما إذا اجتمعا كان لهما حكم خاص فى قانون الرسائل .

وقد كتبتها من النمط الأول الذى هو فن من زينة البلاغة العربية يشبه بعض فنون الزخرف والتنسيق ، وهو حين يكون فى مثل هذه الرسالة لا يكون أبدع منه شىء من الأساليب الأخرى .

فأرجوكم الحفاوة برسالتى هذه فى السياسة الغراء ، والتمهيد لها بما يبين عن سبب كتابتها . حفظكم الله للمخلص :

مصطفى صادق الرافعى

سيدى :

كتبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسى فلا أقول إنها بعيدة ، وتمر قديمة ولكن ما فى هذه النفس منها يجعلها دائماً جديدة ، وكأنها تجرى بى إلى الفناء فهى تطول إلى غير حد ، وتأخذ معنى اليأس من كل أمس فتنسخ به معنى الأمل فى كل غد ، وأرى الأيام تعد بالأرقام أما هى فقد جعلتها أنت تعد بأنها لا تعد .

وانتظرت ردّ خطابى وأن تلقى إلى ورقة من شجرة عتابى ، فما زالت تنقطع الساعة من الساعة ويلتقى اليوم باليوم ، ويذهب اللوم إلى العتاب ويجىء العتاب إلى اللوم ، وكتابك على ذلك كأنه الذهول نوم اليقظة أو السهد يقظة النوم .

فسبحان من علّم آدم الأسماء كلها لينطق بها ، وعلمك وحدك السكوت....

والسلام عليك فى أزلية جفائك . أما أنا فأقول « والسلام علىّ يوم ولدت ويوم

أموت » . ما هذا ياسيدى وليس خيط العمر فى يدك، ولا أمس الضائع بعوض علىّ من غدك ، ولا أنا أقل من «أنا » ولا أنت أكثر من « أنت » ، ولا أعلمتنا من قبل أنك مع القدر تحركت ومع القدر سكنت . أتراك لما خفت المحاكم فى قتلى جعلت تقتل بهجرك أيامى ؟ ولما عرفت أنك من سرورى أردت أن أعرف أنك من آلامى ؟ أم أنت فى نورك وظلامك تفعل ما يفعل الليل والنهار ؟ أم أغراك بنا ذلك الذى قال خلقته من طين وخلقتنى من نار ؟ أم تحسبنا خلقنا بهذه الرقة لنعرف كيف يتحجر قلبك ويجمد ، وأنبتنا الله فى هذا العمر لتجىء أنت يا صاحب « المزرعة » فتحصد ؟ أم خُلقت فى يد الله إرادة ماضية وخلقنا عليك اتكالا ، وجئنا على الطاعة شكلا واحداً وجئت أنت من يد الله أشكالا ؟ !

فإن كان قلبك شيئاً غير القلوب فما نحن شيئاً غير الناس ، وإن كنت هندسة وحدها فى بناء الحب فما خُلقتْ أيامنا فى طولها وقصرها للقياس . وهب قلبك فى هذه الهندسة مربعاً أفلا يسعنا ضلع من أضلاعه ، أو مدوراً أفلا يمسكنا محيطه فى انخفاضه وارتفاعه . وهبه مثلثاً فاجعلنا منه بقية فى « الزاوية » ، أو مستطيلا فدعنا نمتد معه ولو إلى ناحية .

ما بال كتابنا — حفظك الله — يمضى سؤالا فيبقى عندك بلا «جواب » ؟ ونبنيه على حركة القلب فتجعله أنت مبنيًّا على السكون ولا محل له من « الإعراب» ، وما بالنا نقطع فى انتظار الرد مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لانتهى بكتب الحسنات والسيئات إلى السماء ، ولو جاس خلال الأرض لتقدم حتى لا يبقى أمام وتأخر حتى لا يبقى وراء ؟ ! فإن كنت تضن أن توجه إلينا من عرشك خطاباً أو تنزل علينا من سمائك كتاباً ، فقد أقفل باب النبوة من قبلنا فما هذا الباب ، واحتجب الوحى من زمن بعيد فما هذا الحجاب ؟ !

لعلك تخشى إذا جاءنى كتابك الكريم أن يزعم الناس أن جبريل أصبح فى الأرض من سعاة البريد ، وأن السماء عادت تشرع لهذه الأرض فجاءتها بكتاب جديد ! أم لعلك تخاف أن تكتب بقلمك الأعلى أن يتعجل على الناس قدر لا يحتمل التأجيل ، وإن انتهى إلىّ كتابك قامت قيامة أوربا على مصر لأن عندى صفحة ناقصة من الأناجيل ؟ !

لقد هممت أن أعاقب القلم الذى كتبت به إليك فأحطم سنه ، وأجعله

من ناحيتى فى « خبر كان » حتى لا يبقى من ناحيتك فى خبر « إنه » وقلت كيف ، ويحك ، سودت وجه صحيفتى بما هو فى سواده مداد مع المداد ، وفى نفسه سواد غير السواد ؟ فقال : وهل أنا فى هذه النغمة إلا « عود » ، وهل كنت إلا حركة ألفاظك من قيام وقعود ؛ وسل الدواة من أمدّها ، والصحيفة من أعدّها ، وسل أناملك كيف كانت تضغط علىّ كأنها تسلم سلاماً ، ولا تخط كلاماً . وسل نفسك كيف كانت فى حركتى تضطرب ، وقلبك كيف كان من كلمة يبتعد وفى كلمة يقترب .

فما ندرى يا سيدى وقد أحببناك أنعدك فى ذنوب الزمان أم فى أعذاره ، ونأخذك فى الحب من وقائعه أم فى الجفاء من أخباره . . فإن أبيت أن تكون منا إلا سماء من أرضها ، وأن نكون منك إلا سنة من فرضها ، وأبيت وأنت مفرد الحسن إلا أن نعدّك مع كبريائك مثنّى بألف ونون ، وإلا أن تكون كما أردت أن تكون ، فإذا خاطبناك قلنا يأيها الصديقان . . . ويا غضبانان وراضيان ، وأنشدنا : ولو كان همًّا واحداً . . . ولكنه همٌّ وثان . وإن أبيت إلاّ ما تأبى ، ولم ترض مع صدقنا فى حبك إلا كذباً ، قلنا لك بلغة اليأس منك : لشد ما أصاب الزمان فينا وأخطأ ، فليصب بك أو فليخطىء . وكثيراً ما أعطانا الدهر وأخذ ، فلتكن فيما يأخذ أو فيما يعطى ، وقلنا مع الذكر نسيان ، وما عسى أن ينقص الناس بإنسان !

ومن ظن « يصرفنا » عن نفسه أنه كبير ، جعلناه من « نحونا » فى باب التصغير . ومثلنا — أصلحك الله — لا يتكلم إلا بفائدة ولا يسكت إلا لفائدة ، فإن أخطأنا معك فى واحدة أصلحناها بواحدة . والسلام .

مصطفى صادق الرافعى

* * *

أما أنا فأعتذر للكاتب الأديب إذا أعلنت مضطرًّا أن هذا الأسلوب الذى ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة ، لا يستطيع أن يروقنا فى هذا العصر الحديث الذى تغير فيه الذوق الأدبى ، ولا سيما فى مصر ، تغيراً شديداً .

طه حسين

أسلوب فى العتب

علق الأستاذ طه حسين على رسالة العتاب التى نشرتها السياسة بقوله :
إنه يعلن « مضطراً أن هذا الأسلوب الذى ربما راق أهل القرن الخامس والسادس لا يستطيع أن يروقنا فى هذا العصر الحديث الذى تغير فيه الذوق الأدبى . . . »

ولست أجادله فى ذوقه إن كان الأمر إليه أو إلى ذوقه ، وهو أعلم حيث يجعل نفسه ، وليحملها على ما شاء ، وليحمل ما شاء عليها . ولكنى لا أتبين مرجع الضمير فى قوله « لا يستطيع أن يروقنا » فهل ترجع « نا » هذه إليه وحده أم إلى أهل العصر الذى نحن فيه ؟ وهل هو هو حسبه أم هو أكثر من نفسه ؟ وإلا فمن سلطه ليتسلط بالنفى ؟ ومن قدر على النفى قدر على الإثبات ، ومن تصرف فى الجهتين لم يبق مع أمره أمر ولا بعد حكمه حكم . ولا أظن الأستاذ الفاضل يزعم هذا لنفسه ، أو يمكن لها فيه .

على أن الأسلوب الذى كتبت به الرسالة كان موضع الانفراد ، وكان الغاية التى تتقاصر دونها الأعناق منذ القرن الرابع إلى آخر التاسع ، ولم يوحش منه تغير الذوق الأدبى ، كما يقول الأستاذ ، بل ضعف الكتاب فيه وتقصيرهم عن حده ، وأنهم لا يوافقون به مواضعه ، ولا يعدلون به إلى جهاته فى ألفاظه ومعانيه .

لقد علم الكاتب أننا لا نزعم أن هذا الأسلوب هو الوجه فى كل فنون الإنشاء ومناحى التعبير ، بل قلنا إنه شىء من الزخرف ، وفن من التنسيق . ونقول الآن إن أكثر كتاب العصر ، ومنهم الأستاذ طه ، لا يجيدونه ولا يستطيعونه مهما تكلفوا له ، وبالغوا فى هذا التكلف ، وتحروا فى هذه المبالغة . وهذا عندنا وجه من وجوه التأويل فى معنى تغير الذوق الأدبى . وهب أن (كذا) الذوق تغير وأتى على كل شىء فى اللغة وأساليبها ، فأين معنى الطرفة والنادرة والملحة فى

مثل هذه الآثار الدقيقة ، وقد قامت الدنيا وركعت وسجدت . . . لدقائق توت عنخ آمون ، مع أن الذوق الفني مات وبعث ثم ، مات وبعث فى أكثر من ثلاثة آلاف سنة . وننبه الأستاذ إلى أننا نشترط فى هذا الأسلوب أن يصيب موضعه وألا يجاوز مقداره ، وأن ينزل منزلة الزخرف لا منزلة البناء . ثم إننا نفرض أن هذا الفاضل اضطر أن يكتب فى هذا المعنى الذى كتبنا فيه وأراد أن يأتى بصورة من جمال الأدب ، فليكتب الآن وليملأ الوجه الآخر من الصحيفة بما تتم به المقابلة بين ما يروق وما لا يروق ، وليأتنا بالبلاغة التى عجزنا نحن عنها ، إذا كان هذا رأيه المستور الذى يرمى إليه برأيه الظاهر فى تلك الكلمات .

مصطفى صادق الرافعى

* * *

(السياسة)

يرى الكاتب الأديب « أن أكثر كتّاب هذا العصر ، وأنا منهم ، لايجيدون "هذا الأسلوب" ولا يستطيعونه مهما تكلفوا له ، وبالغوا فى هذا التكلف ، وتحرروا فى هذه المبالغة . وهذا عندنا وجه من وجوه التأويل فى معنى تغير الذوق الأدبى » .

وأنا لا أتردد فى إقرار الكاتب الأديب ، على أننا لا نجيد هذا الأسلوب ، وعلى أننا لا نريد أن نجيده ؛ لأن الذوق الأدبى ، ولا سيما فى مصر ، قد تغير . وقد كنت أريد أن أناقش الكاتب ، ولكن له فى نفسه رأياً لا يسمح بمناقشته والتحدث إليه . فلندعه ورأيه ، ولنحى الذوق الأدبى الجديد الذى يلائم حاجات الناس وحياتهم .

طه حسين

القديم والحديث

قرأت فى الأسبوع الماضى وفى صحيفتنا الأدبية كتاب العتاب الذى بعث به الأستاذ مصطفى صادق الرافعى إلى أديب من أدباء الشام ثم اصطفى السياسة لتذيعه فى الجمهور . ثم قرأت رأينا فى هذا الأسلوب ورد الأستاذ علينا فى هذا الرد . وتقرأ اليوم[1] رد كاتبين على الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، ثم تقرأ رسالة أخرى فى هذه الصحيفة نفسها عنوانها «بين الجمال والحب» للكاتب الأديب طه عبد الحميد الوكيل . وأعتقد أنك إذا قرأت كتاب الأستاذ الرافعى ورسالة الأستاذ طه عبد الحميد الوكيل رأيت أسلوبين فى الكتابة الأدبية مختلفين أشد الاختلاف : أحدهما قديم جداً ، والآخر حديث جداً . وكلاهما فيما أعتقد بعيد كل البعد عن ملاءمة الحياة التى نحياها والعصر الذى نعيش فيه .

لو أنى كنت أريد أن أذكر الكاتبين الأديبين لذكرت ما يمتاز به أحدهما من حسن رأيه فى نفسه ، وما يمتاز به الآخر من التواضع بل الغلو فى التواضع . ولكنى أعدل عن الكاتبين إلى الأسلوبين ؛ فقد يخيل إلى أن من الخير أن يتفق الأدباء على أن لهذا العصر الذى نعيش فيه حاجات وضروباً من الحس والشعور تقتضى أسلوباً كتابياً يُحسن وصفها ويجيد التعبير عنها دون أن يسرف فى القدم أو يغلو فى الجدّة . ولست أدرى لم لا يتفق الأدباء على هذه القضية ، ونحن فى حياتنا المادية إنما نلائم بين حاجاتنا وبين الأدوات التى نستخدمها لنرضى هذه الحاجات ، فمالنا إذا أردنا أن نتكلم لندل على هذه الحاجات لا نلائم بين لغتنا وبين حاجاتنا ، أو بعبارة أصح : مالنا لا نلائم بين اللغة وبين الحياة ؟

لسنا نعيش عيشة الجاهليين ، فمن الحمق أن نصطنع لغة الجاهليين . ولسنا نعيش عيشة الأمويين ولا العباسيين ولا المماليك ، بل لسنا نعيش عيشة المصريين فى أوائل القرن الماضى ، فمن الإسراف أن نستعير لغات هذه الأجيال وأساليبها لنصف بها أشياء لم يعرفوها ، وضروباً من الحس والشعور لم يحسوها

(١) راجع صفحة الأدب فى السياسة بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٩٢٣ .

ولم يشعروا بها . إذا كنا لا نعيش فى الخيام ولا نتخذ هذه الأدوات المختلفة الحضرية أو البدوية التى اتخذها الجاهليون أو أهل بغداد ، فليس من سبيل إلى أن نشعر كما كان يشعر الجاهليون وأهل بغداد . وإذاً فليس من سبيل إلى أن نكون صادقين حين نتكلم أو نكتب كما كان يتكلم الجاهليون أو كما كان يكتب أهل بغداد . وإذاً فالغلو فى اصطناع الأساليب الجاهلية أو العباسية على أنه مخالف لطبيعة الحياة التى تقتضى أن يكون اللفظ ملائماً للمعنى ، وأن تكون اللغة مرآة الأطوار المختلفة التى يتقلب فيها المتكلمون — أقول إن اتخاذ هذه الأساليب عيب خُلُقى فى نفسه ؛ لأنه يدل على أن الكاتب أو المتكلم يعيش فى تناقض متصل مع حياته الواقعة ؛ فهو يحس شيئاً ويقول شيئاً آخر وهو يشعر بشىء وينطق بشىء آخر .

اتخاذ هذه الأساليب نقص أدبى ؛ لأن الكمال الأدبى يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة . وهو نقص خلقى ؛ لأنه كذبٌ للكاتب على نفسه وعلى معاصريه . وهو نقص من جهة أخرى ؛ لأنه لا يدل على أقل من أن الكاتب ينكر شخصيته ولا يعترف لها بالوجود . وأى إنكار للشخصية أشد من أن تحس وتشعر ثم تستحيى أن تصف إحساسك وشعورك كما تجدهما ، فتستعير لهذا الوصف أساليب لا تلائمه وضروباً لا تؤديه !

لنا حياة خاصة ، ولنا لغة خاصة تلائم هذه الحياة ، فمالنا نفرق بين الأشياء المؤتلفة ؟ ومالنا نقطع الأسباب المتصلة ؟ ومالنا نعيش فى عصر ونتكلم فى عصر آخر ؟

أعرف أن الأسلوب الذى اتخذه الأستاذ الرافعى كان مستعذباً فى عصر من العصور . ولكنى أعرف أنه إنما كان مستعذباً لأنه كان يلائم هذا العصر ، فإذا انقضى هذا العصر وانقضى معه ما ألف الناس من ضروب الحياة فيه ، فيجب أن ينقضى معه أيضاً أسلوب التعبير الذى كان الناس قد اتخذوه وسيلة لوصف ما يجدون فى أنفسهم .

ومهما يقل الأستاذ الرافعى وأنصاره — إن كان له أنصار — فليس من شك فى أنه يشعر كما كتب ، ولم يفكر كما كتب ، وإنما شعر بطريقة ، وكتب بطريقة أخرى . فلسنا نراه هو فى كتابه ، وإنما نرى فى هذا الكتاب تكلفه ومحاولته الإجادة . ولا تنس أن الأستاذ يعاتب صديقاً ، وأن العتابَ

يحتاج فيما يظهر إلى أن يظهر الصديق لصديقه دخيلة قلبه وخلاصة نفسه ، لا أن ينسج له نسجاً ليس بينه وبينه صلة .

أسلوب الأستاذ الرافعي قديم جداً لا يلائم العصر الذى نعيش فيه . وأسلوب الأديب طه عبد الحميد الوكيل حديث جداً لا يلائم العصر الذى نعيش فيه أيضاً . وآية ذلك أنى لا أشك فى أن كثيراً من القراء سيشعرون حين يقرءون رسالته بشىء من الغموض كثير ، وبأنهم أمام أشياء لا يشعرون بها ولا يحسونها . لا لأن الله قد اختص بها الكاتب وحده ؛ فكثير من الناس يحب ، وكثير من الناس يلذ الجمال ، ولكن لأن الكاتب قد اتخذ فى وصف الحب والجمال أسلوباً لا يلائم ما ألف الناس حين يحبون وحين يلذون ، وحين يحاولون أن يصفوا الحب أو اللذة .

ويغلو قوم منا فى إيثار القديم فيضيّقون وفى الحياة سعة . ويغلو قوم منا فى إيثار الجديد فيرتفعون عما ألف الناس . ومع ذلك فالقصد أساس الخير فى كل شىء . لسنا أبناء القرن الخامس للهجرة ، ولسنا أبناء القرن السادس عشر للهجرة ، وإنما نحن أبناء القرن الرابع عشر للهجرة . بيننا وبين الماضى أسباب متصلة ، وبيننا وبين المستقبل أسباب ستتصل . فما لنا لا نحتفظ بهذه المكانة التى وضعتنا فيها الطبيعة ، فلا نسرف فى التقدم ، ولا نسرف فى التأخر ؟ ! لا أمقت القديم ولا آنف من الحديث ، وإنما أرى أنى وسط بين القديم والحديث ، وأرى أن لغتى يجب أن تكون مرآة صادقة لنفسى . ولن تكون لغتى مرآة صادقة لنفسى إذا كانت قديمة جداً أو حديثة جداً ، وإنما هى مرآة صادقة لنفسى إذا كانت مثلى وسطاً بين القديم والحديث .

سيقولون : فلننصرف إذن عن اللغة العربية الفصحى ؛ فهى قديمة جداً لا تلائمنا ولا تؤدى ما نحسه ونشعر به . كلا ! ليس هذا حقاً ؛ فإن اللغة العربية الفصحى ليست من الموت والجمود بحيث تظنون ، وإنما هى كغيرها من اللغات الحية مستحيلة إذا تكلفها أحياء يخضعون لنظام الاستحالة والتطور . حية مستحيلة لأننا نفهمها ونتخذها وسيلة للتخاطب وتبادل الآراء ، فيفهم بعضنا بعضاً دون تكلف ولا عناء . وكل ما نريده لهذه اللغة هو أن تسلك سبيلها فى الحياة والاستحالة ، دون أن يحول بينها وبين ذلك أسلوب قديم كأسلوب الأستاذ الرافعى ، ودون أن يفسد عليها هذه الحياة أسلوب حديث جداً كأسلوب

الأديب طه عبد الحميد الوكيل . لا نكره أن يصطنع الأدباء فى دقة واحتياط ألفاظ اللغة العربية الفصحى التى جلاها الاستعمال وصقلتها الألسنة، وأن يؤثروا هذه الألفاظ على الألفاظ الساقطة المبتذلة . كما لا نكره أن يستعير الكتاب فى قصد وحسن اختيار من اللغات الحديثة الأوربية معانى وأساليب وألفاظاً دون أن يفسد ذلك جمال اللغة العربية وروعتها . وعلى الجملة نريد أن تكون لغتنا مرآة لحياتنا ، لا قديمة خالصة ، ولا أوربية خالصة . فأى شيء فى هذا ؟ وماذا يمكن أن ينكر علينا الأستاذ الرافعى وأصحابه من هذا ؟ ومتى كان القصد إلى الصدق وحسن الملاءمة بين ما نجد وبين ما نصطنع فى وصف ما نجد ذنباً ينكر أو شيئاً يعاب ؟ على أننا نود لو كتب الكاتبون فى هذا الموضوع وأعلن كل منهم رأيه فيه ؛ فقد تنتهى المناقشة بنا إلى الاتفاق على قاعدة يحسن أن نتفق عليها منذ الآن ، فنتقى هذا الاضطراب الذى نشهده فى النثر والشعر وأساليبهما .ونتقى شيئاً آخر ثقيلا منكراً هو سخط الأدباء والكتاب إذا نقدهم ناقد أو أخذهم كاتب بما لا يحبون .

طه حسين

الذوق الأدبى

شديد جداً حرج هذا الموقف الذى يضطر إليه الصحفى إذا أراد أن يكون حراً ، وإذا أراد أن يقدر حرية غيره ، فيبيح صحيفته لنقد الناقدين واختصام المختصمين . شديد جداً حرج هذا الموقف ؛ لأن الناس لا يقدرون حريتهم وحرية غيرهم كما ينبغى ؛ فهم يسرفون إذا اكتالوا ، ويطففون إذا كالوا . يرون لأنفسهم الحق فى كل شىء : فى أن يقولوا ما يشاءون ، وفى أن يسبوا ما يشاءون . وينكرون على غيرهم كل شىء ، فليس لهم أن يقولوا إلا خيراً ، وليس لهم أن يصفوك إلا بما تحب وترضى . يجب أن يكونوا لسانك لا ألسنة أنفسهم . يجب أن يشعروا كما تشعر ، ويذوقوا كما تذوق ، لا كما يشعرون ويذوقون . وقد احتملنا هذا الطغيان فى الخصومة السياسية ؛ لأن الله قد ابتلى مصر بأدعياء السياسة يتخذونها تجارة وسبيلا إلى الربح . وكنا نرجو أن يعفينا الله منها فى الخصومات الأدبية ؛ لأن الأدباء أحق الناس أن يكونوا مؤدبين . ولكن الله أبى إلا أن يفتن الناس فى الأدب كما فتنهم فى السياسة وكما فتنهم فى الأخلاق . فلنصبر ولنسأل الله أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً فى كل شىء .

نكتب هذا وبين يدينا مقال للأستاذ صادق الرافعى أراد أن يدافع به عن أسلوبه فى العتب ؛ فلم يتح له هذا الدفاع إلا بالشتم واستصغار الخصم ، فوصف الناقدين اللذين تناولا أسلوبه فى الأسبوع الماضى بأنهما عقربان ، ثم أضاف إليهما القصور وحرمهما الفقه الأدبى . كأن الله عزوجل قد أبى الكمال والإتقان إلا على الأستاذ وأصحاب الأستاذ ؛ مع أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ونحن مضطرون إلى أن ننشر مقال الأستاذ ؛ لأنه يدافع عن نفسه ، ولأن فيه ما يستحق الرد . ولكنا نحب أن يلتفت الأستاذ إلى أن النقد شىء والشتم شىء آخر ، وإلى أن الذوق قد تغير فى هذا أيضاً كما تغير فى الأساليب الأدبية . فالناس لا ينقد بعضهم بعضاً الآن كما كان يتهاجى جرير والفرزدق

منذ أحد عشر قرناً . وليس ينبغى أن يباح لك الاستمتاع بالحرية الصحفية ، فتسرف فى هذا الاستمتاع ، وتضطر صاحب الصحيفة إلى أن يخرج عن طور الأدب فينشر الشتم والسب ، أو يصطنع الحزم فيأبى عليك أن تدفع عن نفسك حتى تكون فى ألفاظك ومعانيك مقتصداً مؤثراً للين القول وحلوه على غليظه وفجه .

وبعد ، فقد أعجبنا من الأستاذ دفاعه عن نفسه حين أخذناه بقوله : « وهب أن الذوق تغير» فى هذا الدفاع بحث ، ولكننا لا نريد أن ننازع الأستاذ ولا أن نطيل جداله فى مسألة لفظية ، وإنما نلفته إلى أن الذين يؤثرون الأسلوب القديم ويتكلفونه ، ويزدرون الأساليب الحديثة ويمقتونها أحرياء ألا يتكلفوا هذه الأساليب إلا مجيدين متجنبين مواضع الشبه ، مؤثرين فصيح القول على ركيكه ، مفضلين ما ليس فيه شك على ما وقع فيه الخلاف . وأنا أعتقد أن الأستاذ حين كتب عبارته كان يعتقد أنها صحيحة فصيحة لا غبار عليها ولا خلاف فيها . فلما نبهناه إلى هذا رجع إلى اللسان وإلى الحريرى ، فجعل الله له مخرجاً من حيث لم يحتسب . فليهنأ الأستاذ حسن حظه بما قال ابن برى ، وليحرص منذ الآن إذا تكلف القديم على أن يكون قديماً حقًّا ، لا قديماً من قوارير .

ثم سخر الأستاذ من ناقديه ، وعرض لهما مثلين من الأدب الذى يليق بأهل هذا العصر . عرض لهما كتابين كان يكتبهما لو لم يكن من أنصار القديم المخلصين فى نصره وتأييده . ويسوءنا أن نلفت الأستاذ إلى أنه لم يوفق فى هذه السخرية ، وأن مثليه لا يصفان أذواق الناس فى هذا العصر . فهم لا يكتبون كما كتب الأستاذ فى رسالته التى هو بها معجب . وهم لا يكتبون كما كتب الأستاذ فى رسالتيه اللتين هو منهما ساخر . وإنما لهم فى العتب وغير العتب أساليب صادقة سهلة حلوة ، يشعرون بها ويفهمونها ، وهى بريئة من تكلف الرياضة ، بريئة من تكلف الفلك ، بريئة من تكلف لغة الفقهاء . . ونريد الفقهاء الذين يتلون القرآن على القبور . أساليب هذا العصر بريئة من كل هذا التكلف . ولهذا نؤثرها وننصرها ، وندعو الناس إلى إيثارها ونصرها إن أرادوا أن يكونوا صادقين حقًّا فيما يكتبون وفيما يحسون .

ثم أراد الكاتب أن يناقش ما كتبناه عن الذوق الأدبى الجديد ، فرأى أنا موفقون وأنا غير موفقين . نحن موفقون « إذا اعتبرنا به ما بين الكتاب وجمهور

الناس » وغير موفقين « إذا اعتبرنا به ما بين الأدباء بعضهم من بعض » . وإذاً فللكتابة ذوقان : ذوق مبتذل يصطنعه الأدباء إذا تنزلوا إلى مخاطبة « جمهور الناس » . وذوق آخر راق جليل الخطر مقدس يصطنعونه إذا تحدث بعضهم إلى بعض . هذا رأى الأستاذ .

أما نحن فنرى غير هذا الرأى ، ونرى أن الذوق الأدبى العام واحد لا يتغير بتغير من تتحدث إليه . وقد تختلف الرسائل عسراً ويسراً وتختلف ليناً وشدة ، باختلاف من تتحدث إليه ؛ فللصحف لغة وأساليب ليست للكتب التى يؤلفها العلماء للعلماء والأدباء للأدباء . ولكن ذلك شىء واختلاف الذوق شىء آخر . وهؤلاء كتاب أوربا وأدباؤها يتحدث بعضهم إلى بعض ويتحدثون إلى جمهور الناس فى الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية ، فلا يختلف الذوق الأدبى فيما يكتبون باختلاف القراء ، وإنما يؤثرون الوضوح والجلاء حيناً فيطنبون ويسهبون ويصطنعون ألفاظاً ألفها الناس . ويؤثرون القصد والإيماء حيناً فيوجزون ويتخيرون ألفاظاً منتقاة . والذوق هو الذوق ، والكتابة هى الكتابة ، وروح العصر الذى يعيشون فيه هو هو فيما يكتبون لنظرائهم وفيما يكتبون لعامة الناس .

ونحسب أن الأمر كان كذلك أيام العباسيين ، فى هذا العصر الذى يرى الأستاذ أنه أحد ممثليه . فلم يكن فى هذا العصر ذوقان أدبيان : ذوق مبتذل يتنزل به الكتاب إلى عامة الناس ، وذوق أرستقراطى يتفكهون به فيما بينهم . هذا إسراف يذكِّرنا برأى بعض الفرق الباطنية : رأى أولئك الذين يرون الدين وسيلة إلى إصلاح العامة وأخذها بالمعروف وحملها على النظام . فأما الخاصة فهى منظمة بطبعها راقية بطبعها ؛ وإذاً فليست فى حاجة إلى الدين ، يباح لها ما حظ على العامة . يجب على العامة أن تصلى وتصوم ؛ أما الخاصة فلها أن تشرب الخمر وتقترف الآثام ؛ لأن هذه الآثام أضعف من أن تفسد نفوسها الطاهرة الراقية بفطرتها . إلى هذا النحو ذهبت طائفة من غلاة الباطنية . ويظهر أن الأستاذ يريد أن يذهب فى الأدب مذهب أولئك الناس فى الدين .

أما نحن فنريد أن يفهمنا الناس ، كما نريد أن نفهم الناس . ولهذا نتحدث إلى الناس بلغة الناس ، وإذا تحدثنا إلى الأدباء أمثال الأستاذ تحدثنا إليهم أيضاً بلغة الناس . وليسمح لنا الأستاذ أن نلفته إلى شىء ذى بال ، وهو أن

الأدباء الذين « يقدرون أنفسهم » لا يكتبون إلا وهم يفكرون فى أنهم يُظهرون الناس على شىء من أنفسهم ، وفى أن ما يكتبون له قيمته ، فهو خاص اليوم ولكنه عام غداً . ولعل الأستاذ لا يجهل أن رسائل الأدباء فيما بينهم تنشر فى حياتهم وتنشر بعد أن يموتوا . وإذاً فخليق بالأديب الذى يقدر نفسه ويريد أن يقدره الناس إذا كتب ، أن يفكر فى هؤلاء الناس ، وأن يكون من السهولة ومراعاة الذوق الأدبى بحيث لا يعجز الناس عن فهمه . والأدباء حقًّا يذهبون هذا المذهب . فنحن نقرأ الرسائل الخاصة التى كتبها « فكتور هوجو » إلى الشعراء والأدباء والتى تلقّاها منهم ، فنفهمها كما نفهم غيرها من الرسائل . ونقرأ ما كان بين « رينان » و « برتلو » من الرسائل فنفهمها دون مشقة ولا عناء؛ ولم يكن « فكتور هوجو » و « لامارتين » و « فلوبير » و « بودلير » و « رينان » و « برتلو » يتكاتبون باللاتينية ولا بفرنسية القرون الوسطى ولا بفرنسية القرن السادس عشر ولا بفرنسية القرن السابع عشر أيضاً ، وإنما كانوا يتكاتبون بفرنسية القرن التاسع عشر وذوق القرن التاسع عشر . ولم يكن أدباء العصر العباسى إذا تحدث بعضهم إلى بعض أو كتب بعضهم إلى بعض يصطنعون ألفاظ رؤبة والعجاج وأساليب الجفاة من الأعراب ، وإنما كانوا يتحدثون ويكتبون متأثرين بذوق العصر الذى يعيشون فيه . وإذاً فلسنا مجددين إذا دعونا إلى الملاءمة بين اللغة وبين الحياة . نحن أقرب إلى السنة العباسية من الأستاذ ، ونحن أقرب إلى السنة الأدبية العامة من الأستاذ . نحن أحياء نحب الحياة ولا نحب الموت .

يخشى الأستاذ إذا انتصر مذهبنا أن تضعف اللغة ويذوى عودها ، وأن يضطر الناس بعد حين إلى أن يترجموا العربية إلى العربية . وليطمئن الأستاذ ! فليست اللغة تتعرض لهذا الخطر إذا انتصر مذهبنا ، وإنما تتعرض له إذا انتصر مذهبه . وآية ذلك بينة ، وهى أن الناس محتاجون الآن إلى أن تترجم لهم رسالته فى العتب ، وليسوا محتاجين إلى أن تترجم لهم رسائلنا . ماذا نقول ؛ ليسوا محتاجين إلى أن يترجم لهم الجاحظ وابن المقفع ، وهم محتاجون إلى أن يترجم لهم الأستاذ صادق الرافعى . وسل القراء ينبئوك الخبر اليقين !

ولسنا فى ذلك بدعاً من الناس . فلك أن تذهب إلى باريس وإلى « بيت موليير » لترى كيف يسمع الناس ويفهمون من غير مشقة ولا عناء لغة « كورنيل »

و « راسين » و « موليير » دون أن يحتاجوا إلى مترجم . وأؤكد لك أن الذوق الأدبى فى القرن السابع عشر الفرنسى غيره فى هذا القرن الذى نعيش فيه . ذلك لأن اللغة الفرنسية تحيا وتستحيل فى نظام وهدوء ، فهى لا تطفر ولا تثب . وإذاً فالصلة قائمة متينة بين عصورها الحديثة على اختلافها . وكذلك كانت الحال أيام العباسيين ، وكذلك نريد أن تكون الحال فى هذه الأيام .

أما إشفاق الأستاذ أن تدفن الكتب العربية كلها لأنها من آثار الذوق القديم ، وأن « يوضع على دار الكتب شاهد من شواهد القبور » فألفاظ تنثر ولا تقدر . ذلك أنا لا نشفق على كتب العرب هذا الإشفاق ولا نخشى عليها الموت ، وإنما نأمل لها حياة أصلح وأنفع من حياتها الآن إذا انتصر رأينا . نأمل لها أن تحيا كما تحيا الآن فى فرنسا آثار « راسين » وفى إنجلترا آثار « شكسبير » . ذلك أنا لا نقطع الصلة بين قديمنا وحديثنا ، وإنما نزيدها قوة ومتانة . نستمد الحياة من قديمنا على أن نضيف إليه من الحديث ما يتيح له الخصب والإثمار . وهذا هو الفرق بيننا وبينك يا سيدى الأستاذ .

أقصيت عصراً من عصور اللغة ليس هو أجملها ولا أنقاها ، ثم لجأت إليه وتحصنت به ، وأبيت أن تتأخر عنه أو تتقدم . أما نحن فنستبيح لأنفسنا عصور اللغة كلها ، نستخلص صفوها ، ونضيف إليه صفو العصر الحديث ؛ فنجد من ذلك شراباً عذباً يبعث فينا القوة والحياة .

لك يا سيدى الأستاذ أن تناقش وتجادل عن رأيك . ولكن عليك أن تلتفت إلى شيئين : أحدهما لين القول والرفق فيه . والآخر أن « السياسة » حرة تنشر ما يصل إليها من الرسائل متى شاءت وحيث شاءت . فإن لم يرقك هذان الشرطان فنحن آسفون ، والصحف فى مصر كثيرة . والسلام .

حول أسلوب في العتب *

قصير جداً هذا الحديث ؛ لأن الأدباء الذين خاصمهم الأستاذ الرافعي وخاصموه لم يتركوا لي موضعاً في صحيفة الأدب . ولكني أردت مع هذا أن أتحدث إلى هؤلاء الأدباء بشيء من العتب قليلا . قد كنت أحب لهم و « للسياسة » وللأدب أن يؤثروا الحلم ويأخذوا أنفسهم بلين القول وشيء من الصفح والإغضاء ، ولكن الأستاذ الرافعي نالهم بالأذى ، فأخرجهم ذلك عن طورهم وتجاوزوا في ردهم على الأستاذ ما يحبون ونحب إلى ما نكره ويكرهون . ولولا أن لهم حق الدفع عن أنفسهم لاعتذرت إليهم من نشر ما كتبوا . ولولا أني لا أبيح لنفسي المسخ والتشويه لحذفت مما كتبوا شيئاً كثيراً . ولكن « السياسة » تنشر لهم اليوم وتتم ما جاءها في هذا الشأن غداً معتذرة إلى الكتاب جميعاً من إقفال هذا الموضوع الذي تجاوز البحث الأدبي النافع إلى ما يكره الأدباء .

ولدينا كلمة للأستاذ الرافعي لا نستطيع أن ننشرها ، فنعتذر إلى الأستاذ ، ونظنه يفهم ، ونظن غيره يفهم أن « للسياسة » الحق في ألا تنشر شتم كتابها ومحرريها في غير حق وفي غير فائدة ولا نفع .

* لاجع السياسة في ٢٠ و ٢١ يونيو سنة ١٩٢٣ .

حول أسلوب فى العتب

يأبى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى إلا أن نشغل به ؛ فقد أطال الجدال حول « أسلوبه فى العتب » . فلما أعلنا انصرافنا عن هذا الموضوع أخذ يجادلنا فى أسلوبنا . ولعله أراد أن يثأر لنفسه ، فنقد أسلوبنا كما نقدنا أسلوبه . ولكنا نتقبل نقده على نحو كنا نود لو نحاه بإزاء نقد الناقدين له . نتقبل نقده شاكرين متواضعين لا ساخطين ولا مجادلين . فلسنا نزعم لأسلوبنا امتيازاً من الأساليب . ولسنا نصفه بأنه من أنواع الزخرف . ولسنا نزعم أن الأعناق تقطعت دونه عصوراً . ولسنا نزعم أن الكتّاب غير قادرين على إتقانه مهما بالغوا وتكلفوا فى المبالغة . لسنا نزعم لأسلوبنا شيئاً من ذلك ، إنما نشعر فنكتب ، وقد نجيد مرة ونتورط فى الردىء مرة أخرى . وقد نصيب حيناً ونتورط فى الخطأ حيناً آخر . فلمن شاء النقد أن ينقد ، ولمن تفضل بإرشادنا إلى مواضع الخطأ أو الرداءة أن يرشدنا مشكوراً .

أما بعد ، فلسنا نحاكى بأسلوبنا أسلوباً آخر قديماً أو حديثاً . ولسنا نتكلف هذه المحاكاة ، وإنما هى طريقتنا فى التفكير وطريقتنا فى الإملاء . فإذا أراد الأستاذ أن يقدر هذه الطريقة ويؤرخ لها فى كتابه فنحن شاكرون له عنايته وحسن ظنه . وإذا أراد الأستاذ أن يزدريها ويربأ بكتابه عنها فله ذلك غير ملوم ولا معاتب .

يأخذنا الأستاذ بكلمة « مفزعة » وليس فى « المفزعة » مأخذ فهى كلمة يرضاها القياس ويقرها السماع . والرجوع إلى المعجمات أيسر على الأستاذ فى هذه الكلمة من الرجوع إلى هذه المعجمات فى وضع « أنّ » بعد « هب » . وأيسر عليه من تلمس المعاذير ومن تتبع ما قال ابن برى فى مناقضة الحريرى . ولعل الأستاذ يذكر أنا حمدنا له حسن حظه إذ وجد من ابن برى عاذراً ومُقيلا .

ويأخذنا الأستاذ بكلمة « مهلعة » ، وليس فى هذه الكلمة مأخذ ؛ فإن كتب النحو وكتب اللغة سواء منها ما يقدر الأستاذ وما لا يقدر تبيح للناس

أن يُعدّوا الأفعال اللازمة الثلاثية بالهمزة قياساً مطرداً . فالله يأذن لنا فى أن نعدى « قام » و « قعد » و « رضى » وما إليها بالهمزة فنقول « أقامه » و « أقعده » و « أرضاه » و « أغضبه » . ولسنا ندرى لم يحظر الأستاذ ما أباح الله ! فقد يحمد للناس أن يتشددوا فى اللغة ، ولكن يجب عليهم أن يتشددوا فى قصد وإيثار للصواب . والإسراف شر فى كل حال ؛ وقد يكون شرًّا من الإسراف شىء آخر تورط فيه الأستاذ ونحب أن نلفته إليه فى لطف ورفق .

كتب الأستاذ إلينا مع رسالته هذه كتاباً أراد ألا ينشر ، فكتب فى رأسه « ممنوع نشر هذا الكتاب » . فالأستاذ يعلم أن هذا ليس من أدب الخطاب فى شىء ، وأن الله لم يمنحه من القوة ولا من السلطان ما يبيح له وضع مثل هذه الصيغة المبتذلة . وهو يعلم أنا لو أردنا نشر كتابه لما منعتنا من ذلك هذه الصيغة ، وإنما عرفنا رغبته فى أن يظل كتابه مكتوماً فكتمناه ، وإن كنا لم نفهم لم آثار أن يكتم هذا الكتاب .

على أن إعراضنا عن نشر هذا الكتاب لا يمنعنا أن نشير إلى شىء جاء فيه . ينذرنا الأستاذ بكلمات قد يتناولنا بها فى صحف أخرى . فهل قرأ الأستاذ :

« زعم الفرزدق أن سيقتل مرْبعاً » .

وهل قرأ الأستاذ قول الآخر : « تمنّانى ليقتلنى زياد » .

على أنى أعتذر إلى قراء هذه الصحيفة من إطالة الجدال فيما لا خير فيه ، وأعدهم بأنى سأستأنف معهم الحديث عن أبى نواس فى الأسبوع الآتى .

القديم والجديد

تقرأ فى الرسالة الفارسية « لمنتسكيو » رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة، تناول فيها بالعبث والمزاح خصومة الأدباء الذين كانوا يتنازعون فى عصره حول القديم والجديد وحول القدماء والمحدثين . تجد فى الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ويكلفون بها ، وقد ظهر حبهم إياها وكلفهم بها حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرءون الصحف ويتناقلون الأخبار فى بعضها ، ويلعبون الشطرنج فى بعضها الآخر ، وتقدم إليهم كؤوس القهوة أثناء القراءة واللعب . وبين هذه الأندية ناد خاص يظهر أن للقهوة فيه فضلا على غيرها من القهوات التى تقدم فى الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئاً يشحذ العقل وينبه الخاطر ، ويزيد البصيرة نفوذاً ، والذكاء توقداً ، والألسنة انطلاقاً . فالذين يختلفون إلى هذا النادى ويتناولون القهوة التى تقدم فيه أفصح الناس لساناً وأعذبهم بياناً ، وأقدرهم على التصرف فى فنون السحر ، وأبرعهم فى اصطناع ضروب الجدال ؛ فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشاتمون كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشاتمون ، كل ذلك فى ألفاظ مختارة منتقاة تقع وقع الصواعق وتنفذ نفوذ السهام . وكل هذه المناقشة وكل هذا العنف وكل هذا الجدال إنما يدور حول شاعر يونانى عاش أو لم يعش منذ ألفى سنة ، يكبره بعضهم حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم حتى يبلغ به من الخسة دركاً ليس دونه درك . وهم يختصمون ويتنابزون ويقتتلون دفاعاً عن هذا الشاعر أو هجوماً عليه ، ويغتبط الكاتب أنه ليس هذا الشاعر ، ويحمد الكاتب الظروف التى أماتت هذا الشاعر قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته ، فلو قد أدركها لقتلته أو لنالته بشر من الموت إن كان هناك شر من الموت .

على هذا النحو يتحدث « منتسكيو » عن أدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون فى القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين . ويظهر أن عبث

« منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، لم يصرفاهم عن الخصومة ولم يلهياهم عن القديم والجديد ، فظلوا يختصمون فى القرن الثامن عشر كما كانوا يختصمون فى القرن السابع عشر وكما اختصموا من قبل ذلك وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الجديد قديماً ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم . ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبداً فى كل لغة وفى كل جيل وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والجيل الذى يتصرف فيهما حظ من الحياة . وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد أشكالا مختلفة وصوراً متباينة تمثل العصر الذى تنشأ فيه والظروف التى تحيط بها ، ولكنها مهما تختلف أشكالها وتتباين صورها ، ومهما تختلف العصور التى تنشأ لها والظروف التى تحيط بها خصومة بين القديم والجديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هى حياة ، ولا منصرف عنها لأنها الحياة .

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل من مجلة « الهلال » التى صدرت أول هذا الشهر . وكاتب هذا الفصل الذى نسجل مسرورين أنه ممتع هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم فى الأدب ؛ لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى كتب فى مجلة « الهلال » التى صدرت فى الشهر الماضى فصلا عن الأستاذ الرافعى هاجم فيه المذهب القديم فى الأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم . فلم يكن بد للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعاً عنيفاً . ولم يكن بد لقارئ « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم يسأل فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف فى خصومتهما ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر فى الأدب القديم أو الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعى . وإذا كان لنا ألا نسرف فى استقصاء التاريخ وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعد به العهد ، فقد يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة فى هذه الأيام الأخيرة

إنما هى صحيفة الأدب فى « السياسة » . فنى الصيف الماضى اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعى وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها إلى « السياسة » تحت عنوان « أسلوب فى العتب » وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب . وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة انتهت إلى الشتم والتنابز . ثم لم تكد تنتهى السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب أديب من كتاب فلسطين هو الأستاذ خليل السكاكينى رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد وحول الإيجاز والإطناب ، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من سورية هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير رداً طويلا ، واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت إلى شىء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعى فى مجلة « الهلال » فعده مع الأمير شكيب أرسلان من زعماء المذهب القديم ، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندى السكاكينى على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب . ويخطئ من ظن أن هذه الخصومة ستنتهى غداً أو بعد غد . ويخطئ من سأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة . فستستمر هذه الخصومة فى الأدب العربى ، كما استمرت فى الآداب الأخرى ، وكما استمرت فى الأدب العربى القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التى أنتجتها فى كل زمان وكل مكان ، فينتصر جديد على قديم ، ثم يصبح هذا الجديد قديماً وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار . وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربى حظ من حياة .

هذه الخصومة إذاً مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن نافعة ؛ فليس الأدب العربى بدعاً من الآداب ، وليس الأدب العربى العصرى بدعاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعى ، وليختصم الأديبان خليل السكاكينى وشكيب أرسلان . ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم فى رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة ؟ حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا . فقد يظهر لنا إلى الآن أن هؤلاء

المختصمين يختلفون فى أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحددوها . وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » وما « المذهب القديم » ، ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا السؤال ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا فى الخصومة بين الأديبين خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ؛ فهما يختلفان فى الإيجاز والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد إليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدراً منذ كان النثر العربى إلى الآن ، فمن الحق أن نتبع طريقهم فى ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه فلا ينبغى أن يعمد إليه الكاتب ولا سيما فى هذا العصر إلا بمقدار وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق دون أن يحددوا هذا الذوق . أليس من حقنا أن نسألهم عن حد هذا الذوق ما هو ؟ وما الذى يريدون منه ؟ ولا تقل إن الأستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال ؛ فنحن نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه وأشد غموضاً من أن نظهر عليه . وانظر إلى ما يقول فى الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد هو الذوق والفهم جميعاً . . . » . نعترف بأنا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعترف بأنا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ؟ ذلك أن الجملة الأولى صريحة فى أن الذوق هو الفهم ، وإذاً فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، وإذاً فليسا شيئين وإنما هما شىء واحد هو الفهم ، وإذاً فالحكم أثر من آثار الفهم . والنقد هو الفهم ، وإذاً فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شىء واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة . . . نعترف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ولم نذقها ، وإذاً فنحن لا نستطيع أن ننقدها ولا أن نحكم فيها ؛ لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً ، وتستطيع أن تدور فى ذلك ما شاء الله أن تدور . . . فما زال الأستاذ الرافعي مطالباً بأن يوضح لنا نظريته هذه فى الذوق . ونحسبه يحتاج فى توضيح نظريته

هذه إلى عناء كثير . ذلك أنه يخيل إلينا أن الذوق شيء والفهم شيء آخر ، وأن من الإسراف أن نقول إن الذوق هو الفهم ؛ فقد تفهم أشياء كثيرة دون أن تذوقها . وآية ذلك أنا نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعي دون أن نذوقه أو نعجب به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا فنزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها . وإثبات ذلك ليس بالشيء العسير ؛ فما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون الموسيقى فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك إلى شيء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيئان مختلفان ، قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من الشعر أو فصلا من النثر وتعجب بهما ، وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين ، فتفهم النظم وتفهم النثر ، ولكنك تنكرهما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون أن تفهم ما أراد الموسيقى .

وللأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي محتاجة إلى شيء من المناقشة ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس . انظر إليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي وقوة في اللغة والأدب الأجنبي... وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ؛ فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وإنكارهم للمذهب القديم ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً . . . نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم . ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ، إن صحت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد . وهو إنما أخطأ الفهم لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق لأنه أخطأ الفهم . وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم أو حول الذوق الذي ليس هو الفهم ، والفهم الذي ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا

معاً، وقد بلغ منكما الكلل والإعياء . ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال؛ فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويذوق . وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً فتخطئه الإصابة فى الحكم . ونظن أن للأستاذ الرافعى حظاً من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد ، أو الذين يسمون أنصار المذهب الجديد ، قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم فى اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ؛ فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذاً فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً وليس اعتذاراً لأنفسهم وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذى تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربى كما يفهم الأدب الإنكليزى ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق أو ذوق هو الفهم أو فهم ليس ذوقاً أو ذوق ليس فهماً . . . وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن نفهم الأدب العربى وأن نفهم الأدب الفرنسى ، وأن نحكم فيهما أحياناً عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . . . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعى وأنصار المذهب الجديد ضعافاً فى اللغة العربية وآدابها ، أقوياء فى اللغات الأجنبية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ فى هؤلاء ؟ وما أصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغات الأجنبية ولا يتعصبون لها ؟ ثم مالنا نذهب بالأستاذ بعيداً عن الموضوع الذى أتقنه وبرع فيه ! فلسنا نشك فى أن الأستاذ أتقن الأدب العربى وأحسن روايته وفهمه وتقليده وأسرف فى هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد ؛ فكان القرآن الكريم جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية غير مرة . يصرح بهذا ، ولكنه فى الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً . وإذاً فقد تجددت العربية غير مرة دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكروه . والحق أن الآداب تجددت غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه

واختصموا فيه كما يختصم فيه الأستاذ الرافعى وأصحابه الآن . وقد كتبنا فى هذا المكان من « السياسة » فصولا طوالا فى العام الماضى فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد أيام بنى العباس . وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولهما . وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضى عنهم قوم وأنكرهم آخرون ، أم قبله الناس جميعاً وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد فى الشعر وفى النثر ، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك فى أن أنصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافاً فى اللغة العربية وآدابها ، ولم يعتذروا لأنفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه . أكان أبو نواس ضعيفاً فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفاً فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبى ضعيفاً فى اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس وانتصر للجديد ، وقد جدد أبو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبى وانتصر للجديد . وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم ، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعى أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابهما كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين . فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شىء آخر غير هذا كله : قائم على الفهم قبل كل شىء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويرون مالا يراه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون بأنهم يحيون فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذى هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الرافعى يحسن أن نناقشه ولو قليلا . فهو يرى أن من

الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد وأن يتعلموا الأدب العربى من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا فى اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه . ذلك لأن اللغة موروثة وهى ملك للملايين من الأعمار ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا .

ونحن نعترف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عقيما ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا فى هذه اللغة التى نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام حظًّا يجعلها ملكاً لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة أو قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفنى ، لايقيدنا فى ذلك إلا قواعد اللغة العامة التى تفسد اللغة إذا جاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعنى أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ، ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنه أن يفسد أصلا من أصول اللغة أويخرج بها عن طريقها المألوفة . ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها يضيفون إليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة وعاشت ، ولما استطاعت أن تفى بحاجات أهلها التى تتجدد وتتنوع بتجدد الأزمنة وتبدل الظروف . والكتّاب والشعراء فى كل عصر وفى كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها ، فمنهم من يسعده الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهالكون عليها حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما أدخل ولا بما أضاف .

ومما يحسن أن ننبه إليه الأستاذ الرافعى فى رفق ولين أيضاً أنه يسرف فى سوء الظن بأوربا وأمريكا وفى سوء الحكم عليهما . ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوربا وأمريكا ولا يفهمها ولا يتذوقها ؛ فهو يخطئ فى الحكم على أوربا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن فى أوربا وأمريكا من الغفلة مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفل الشهوات مذهباً ، ومن الجنون مذهباً، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً . . . » . وهو مسرف فى ذلك ؛ فليست أوربا وأمريكا من السوء بحيث يظن . ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد

لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله .

ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها فى أوربا وأمريكا ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو شىء عرفه الإنسان منذ تحضر ومنذ فكر . ويسرنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضاً . فما استطاعت الديانات أن تقضى على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات وإنما الإنسان إنسان فيه الخير وفيه الشر ، وفيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التى لا حد لها وفيه التحرج الشديد . والأستاذ الرافعى كغيره من أنصار المذهب القديم مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم .

ونظن من السخف والإطالة التى لاتجدى أن نهوّن على الأستاذ ونهدئ من روعه ، فليس ما يدعو إلى هذا الإشفاق . ونظن أننا ، ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين فى نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية . ومن ذكر الحياة والنمو ، فقد ذكر التطور ، ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد ، سواء أرضى ذلك أم أنكره .

القديم والجديد

نريد أن نفرغ من مسألة القديم والجديد . وهل من سبيل إلى أن نفرغ من مثل هذه المسألة ؟ فقد رأينا فى فصل مضى أنها مسألة تلازم الأمم الحية ، وتلازمها لأنها حية ؛ إذ كانت الحياة بطبيعتها تطوراً وكان التطور بطبيعته انتقالا من حال إلى حال ، وكان هذا الانتقال نفسه موجوداً للخلاف بين جديد طارئ وقديم زائل . فليس للجديد بد من أن يجاهد ليظهر ويستأثر بالحياة ، وليس للقديم بد من أن يجاهد قبل أن يزول ويفقد سلطانه على النفوس . فما دامت هناك حياة فهناك قديم وجديد ، وجهاد بين القديم والجديد، وأنصار للقديم وأنصار للجديد. وكما أننا مضطرون بحكم الحياة إلى أن نخضع للتطور ، فنحن مضطرون بحكم التطور نفسه إلى أن نحتمل الخلاف بين الذين يبكون مغرب الشمس والذين يبتسمون لإشراقها . وكل ما نستطيع أو كل ما نرجو إنما هو ألا ننفق حياتنا فى بكاء على الماضى أو ابتسام للمستقبل ؛ فقد يصرف البكاء والابتسام عن أن ننتفع بتراث الماضى أو نحيا بآمال المستقبل .

أكاد أعتقد أن ليس للقديم أنصار ، أى أن أنصار القديم ليسوا مخلصين فى نصرهم للقديم ، أو أنهم يخدعون أنفسهم حين يظنون أنهم ينصرونه . ذلك أن هؤلاء القوم يحيون كما يحيا غيرهم من الناس . وثق أنهم ليسوا أقل الناس استمتاعاً بلذات الحياة وليسوا أقل الناس استبشاعاً لما فيها من بشع ، واستعذاباً لما فيها من لين . وإذاً فهم بين اثنتين : إما أن يكونوا صادقين حين يبكون القديم ويحرصون عليه ، فهم يحيون حياتهم كارهين ويأخذون بلذاتها ويحتملون آلامها دون أن يكون لهم فى شىء من ذلك رأى . فإن كانوا كذلك فهم خليقون بالرحمة والعطف والإشفاق. وكيف لا ترحم من يحيا راغماً ويلذ راغماً ويألم راغماً ! . وإما ألا يكونوا صادقين فى حبهم للقديم وحرصهم عليه ، وإذاً ففيم هذا الضجيج والعجيج ، وفيم إثارة الخلاف وإطالة القول فيما لا يغنى ولا يفيد؛ ذلك أن القديم والجديد ليسا مقصورين على اللغة فى ألفاظها ومعانيها أو فى أساليبها وتراكيبها ، وإنما هما يتناولان اللغة كما يتناولان

غيرها من مظاهر الحياة المعنوية والمادية . وغريب أنك لا ترى الجهاد عنيفاً ولا تراه يشبه العنيف فيما يمس مظاهر الحياة المادية . فلو أنك طلبت إلى الذين يسرفون فى نصر القديم ويمقتون أنصار الجديد ويصفونهم بالكفر ، أن يأكلوا ويشربوا ويجلسوا على نحو ما كان يأكل أجدادهم منذ قرون وعلى نحو ما كانوا يشربون ويلبسون ويجلسون لما سمعت منهم إلا إنكاراً ، ولما رأيت منهم إلا ازوراراً. ولقد أريد أن أرى بين أنصار القديم أولئك الذين لا يزالون يأكلون ويشربون فى الصحاف والأكواب من النحاس والفخار وقد جلسوا على حصير ورفضوا الكراسى رفضاً ، وأبوا أن يستمتعوا بكل ما أتاحت لهم الحضارة الحديثة من أدوات الترف واللذة البريئة . أريد أن أرى هؤلاء ، ولكنى يائس من رؤيتهم . ولست أشك فى أن من بينهم من يستمتعون فى حياتهم الخاصة بأحدث ما اخترعت الحضارة من هذه الأدوات ، على حين لا يظفر من ذلك أنصار الجديد الملحون فى الدعوة إليه إلا بالشىء القليل . وسواء علينا أكان أنصار القديم يستمتعون بالجديد راضين أم كارهين فهم يستمتعون به . والأمر على هذا النحو فى اللغة وما يشبه اللغة ، فهم مضطرون ، سواء أرادوا أم لم يريدوا ، إلى أن يتحدثوا إلى الناس بلغتهم ليفهمهم الناس . وهم مضطرون إلى أن يسمعوا لغة الناس ليفهموهم . وما نحسبهم حين يبيعون أو يشترون أو يحاورون فى عمل من الأعمال يصنعون أساليب رؤبة والعجاج وأشباه رؤبة والعجاج ، إذاً لضحك منهم البائع والشارى والمحاور ، وإذاً لما وقف أمرهم عند ضحك الناس منهم بل لتجاوزه إلى ضياع منافعهم وفساد أغراضهم عليهم . وأنا ضمين لك بعدولهم عن القديم والجديد حين تتعرض منافعهم للخطر وأغراضهم للفساد .

ولسنا فى حاجة إلى أن نتكلف فى ضرب المثل لشىء من ذلك ؛ فقد قصصت عليك مرة أحدوثة « الخرسوس » التى كان يضيفها تلاميذ الأستاذ الشيخ المهدى رحمه الله إلى أستاذهم ، ورأيت أن بائع الشراب لم يفهم « الخرسوس ». ولولا أن الأستاذ فسره له وذكر الخروب وعرق السوس لما شرب ، ولاضطر إلى أن يحتمل آلام الظمأ حتى يجد ساقياً خبيراً بفن النحت وما إليه من ضروب التصريف .

نصر القديم إذاً ضرب من التكلف ، وربما كان نوعاً من البدع ، يقصد إليه أصحابه تزيناً وتجملا واختلاباً لألباب طائفة من الناس . فأما أولئك الذين ينصرون القديم عن إيمان واعتقاد ، وينصرونه فى العمل كما ينصرونه فى القول

فيحيون حياة القدماء ويسيرون سيرتهم ، فإنى أبحث عنهم دون أن أجد لهم أثراً ظاهراً . . . !

على أن هناك قوماً مخلصين فى إشفاقهم من الجديد وبكائهم على القديم . ومصدر إخلاصهم أنهم لا يفهمون الجديد ولا القديم ولا الصلة بينهما ، وإنما هى الألفاظ تخيفهم وتبعث فى نفوسهم عواطف متناقضة ، فيحنون إلى تلك وينفرون من هذه . وهؤلاء لا يناقشون ، وإنما يبين لهم الأمر على وجهه . ولا نحسب إلا أنهم مطمئنون حين يعلمون أن أنصار الجديد لا يريدون أن تبدل الأرض غير الأرض أو أن يخلق العالم خلقاً جديداً .

وليكن موضوع تفسيرنا للعلاقة بين القديم والجديد فى هذا الفصل اللغة دون غيرها من موضوعات الخلاف . وأول شىء نحب أن نسائل عنه هو اللغة نفسها ، لمن هى ؟ ومن واضعها ؟ ومن الذى ينتفع بها ويصرفها فى أغراضه ؟ فإن تكن اللغة ملكاً لقوم دون قوم ووقفاً على جماعة دون جماعة ، فليس من شك فى أن هؤلاء القوم وحدهم هم أصحاب الحق فى أن يصرفوا هذه اللغة فى أغراضهم ومذاهبهم ، فأما غيرهم فليس له إلا أن يقلدهم فى ذلك تقليداً لا يتسع للخلاف ولا للتجديد . أترى إلى المصرى حين يصطنع لغة من لغات الغرب ليس له أن يزيد فيها ولا أن ينقص منها ولا أن يغير أشكالها وأساليبها ، وإنما الحق عليه أن يذهب فى ذلك كله مذهب أهلها . أفتظن أن حظ المصرى من التصرف فى اللغة العربية كحظه من التصرف فى اللغة الفرنسية ؟ ! ماذا نقول !! يخيل إلينا أننا أخطأنا التشبيه ، ونحن مضطرون إلى أن نخطىء لأننا لا نجد إلى التشبيه سبيلا . فنحن نعلم أن كثيراً من الكتاب والشعراء الأجانب اصطنعوا الفرنسية لغة لنثرهم وشعرهم فأتقنوها كما أتقنها أهلها المجيدون ، واستباحوا لأنفسهم فيها حقوقاً ليست أقل من حقوق أهلها ، فأضافوا إليها ألفاظاً اخترعوها وأساليب ابتدعوها ، ولم ينكر الفرنسيون ذلك وإنما قبلوه وانتفعوا به واتخذوه لهم متاعاً شائعاً . أفتظن أن حق المصرى فى اللغة العربية أقل من حق أولئك الكتاب والشعراء فى اللغة الفرنسية؟ نفهم أنه لا يبدَّل وحى السماء ، ولكنا نعلم أن اللغة ليست من وحى السماء ، وإنما هى ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنسانى ، لم يضعها فرد بعينه ولا جماعة بعينها ، وإنما اشتركت فى وضعها الأمة التى تتكلمها ، دون أن تعلم متى وضعتها ، ودون أن تستطيع أن تعين لكل فرد من أفرادها أو جماعة من

جماعاتها حظًا من ألفاظها وأساليبها . وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن تلاحظ في اللغة : ألفاظها ومعانيها وأساليبها شيئين مختلفين ، كلاهما يجعل تجدد اللغة أمراً محتوماً : الأول أن لنفسية الأمة وحاجاتها والظروف التي تحيط بها أثراً قوياً في تكوين اللغة ، وأن اللغة ليست في حقيقة الأمر إلا أثراً لهذه النفسية والحاجات والظروف . فإذا أردت ألا تتجدد اللغة ولا تتطور فابدأ بنفسية الأمم وحاجاتها وظروفها فقِفْها عند حد معين لا تعدوه يتم لك ما تريد . الثاني أن الأفراد يتكلمون اللغة ويصرفونها في أغراضهم وحاجاتهم . ومهما يكن سلطان الجماعة على الفرد ومهما يكن خضوع الفرد للجماعة وفناء شخصيته في مجموعها ، فله حظ من الشخصية يمتاز به عن غيره من الناس . ولهذا الحظ من الشخصية الذي يختلف قوة وَضعفاً باختلاف الأفراد وحظوظهم من الرقي العقلي أثره في اللغة . فليس لك أن تكلف الشاعر أو الكاتب المجيد أن يصف شعوره وعواطفه وحسه كما يصفها رجل من عامة الناس . وليس لك أن تكلف العالم أن يصف علمه بنفس اللغة التي يتكلمها عامة الناس . فإذا أردت أن تحول بين اللغة وبين التجدد فابدأ بشخصية الأفراد فامحها محواً تامًا حتى يستوي الناس جميعاً في الحس والذوق والفهم والشعور . فإن تمت لك هذه المساواة وتم لك حرمان الجماعة من التطور فسيتم لك وقوف اللغة عند حد من الجمود لا سبيل إلى تجاوزه . ولكنك تعلم أن هذا غير ميسور ، وأنك لن تستطيع أن تصل إلى بعضه إلا إذا استطعت أن تقف دورة الفلك واختلاف الليل والنهار . وإذاً فسلِّم للغة بحقها في التطور كما سلمت بذلك للجماعات ، وسلم للأفراد بحقهم في أن يصفوا الشيء كما يرونه ويعبروا عن الشعور كما يجدونه . وإذا سلمت لهم بذلك فأنت مكره على أن تؤمن بتجديد اللغة .

ستقول ولكني إن ذهبت معك إلى هذا الحد فقد حرمت اللغة كل ثبات واستقرار ، وقضيت بأنها تجدد متصل ، وقطعت الصلة بين أمسها ويومها وغدها . ولكنك مسرف في هذا الإشفاق . فكما أن الحياة تطور فالحياة اتصال ، وليس بين أجزاء الحياة فراغ ، وإنما هي انتقال من شيء إلى شيء ، ففيها حركة وفيها ثبات . ولولا ذلك لما كانت للأمم شخصيتها الاجتماعية ، ولما كانت للأفراد شخصيتهم الفردية . وإذاً ففي كل شيء من هذه الأشياء الاجتماعية عنصران مختلفان لا قوام لأحدهما بدون الآخر : أحدهما عنصر الاستقرار ، والآخر عنصر

التطور . وقوام الحياة الصالحة لأمة من الأمم أو مظهر من مظهرها الاجتماعى إنما هو التوازن الصحيح بين هذين العنصرين . فإذا تغلب عنصر الاستقرار فالأمة منحطة . وإذا تغلب عنصر التطور فالأمة ثائرة والثورة عرض ، والانحطاط عرض ، كلاهما يزول ليقوم مقامه النظام المستقر على اعتدال هذين العنصرين .

فى اللغة إذاً قديم لا بد منه إذا أردنا أن تبقى اللغة ، وفيها جديد لا بد منه إذا أردنا أن تحيا ، وأنصار الجديد فى اللغة والأدب لا يريدون إلا هذا النوع من الحياة . ليس من الجديد فى شىء أن تفسد اشتقاق اللغة وتصريفها وأن تعدى الأفعال بالحروف التى لا تلائمها ، وأن تقلب نظام المجاز وضروب التشبيه ، كل ذلك ليس تجديداً وليس إصلاحاً للغة ولا ترقية لها ، وإنما هو مسخ وتشويه ، ليس أنصار الجديد بأقل كرهاً له من أنصار القديم . وليس من القديم الصالح فى شىء أن تتغير الحياة أمامك دون أن تشعر بهذا التغير أو تلائم بينه وبين اللغة . وليس من القديم الصالح فى شىء أن تكثر الأشياء المستحدثة التى تصطنعها فى كل يوم بل فى كل ساعة ، فلا تستطيع أن تنطق باسمها إلا إذا وجدت لها اسماً عربياً ورد فى المعاجم اللغوية القديمة . ثم ليس من القديم الصالح فى شىء أن تشعر الشعور الذى لم يكن يشعره غيرك من القدماء ، فلا تستطيع أن تصفه إلا على نحو ما كان يصفه القدماء ، فيضطرك هذا إلى أن تمسخ شعورك وتفسده وإلى ألا تكون لغتك مرآة لنفسك ، وإلى أن يكون ما تكتب أو تنظم ضرباً من النفاق . ثم ليس من القديم الصالح فى شىء أن تأخذ نفسك بسلوك سبل القدماء فى وصف الجمال ، فلا تعرف من فنون الشعر والنثر إلا ما عرفوا ، ولا تضيف إلى هذه الفنون شيئاً جديداً .

ولقد أريد أن أعلم ما الذى يمنعنى أن أضع قصة تمثيلية إذا وجدت السبيل إلى ذلك ! وهل يحكم علىَّ أنصار القديم يومئذ بأنى أدخلت فى الأدب العربى فناً لا عهد للعرب الأولين به فأسأت إلى العرب وإلى لغتهم وآدابهم ! . ولست أدرى ما الذى يمنعنى أن أنظم قصيدة قصصية أو أسلك فى الشعر الغنائى نفسه مسلكاً غير الذى سلكه العرب فى عصورهم الأولى ! ! وهل يحكم علىَّ أنصار القديم إذا فعلت بأنى قد خالفت مناهج العرب وأضفت إلى أدبهم ما ليس لهم به عهد فأسأت إلى اللغة وأهلها وعرّضتها وعرضت الدين معها للخطر الذى ليس فوقه خطر ! . فأنت ترى أن الذين يضعون مسألة القديم والجديد موضع البحث يحصرون هذه

المسألة فى موضع ضيق جداً ؛ فهى لا تتناول الألفاظ وحدها وهى لا تتناول الألفاظ والأساليب والمعانى ، وإنما تتناول مع هذه كلها فنون القول على اختلافها . علينا أن نحتفظ بقواعد اللغة ونظمها العامة فلا نفسدها ولا نشوهها ، ولكن لنا أن نتخذ هذه اللغة أداة لوصف نفوسنا وما نجد . وإذاً فلنا أن نخضع هذه اللغة لما نشعر ولما نجد ، وأن نمنحها من المرونة ما يمكنها من أن تكون أداة صالحة لوصف ما نشعر وما نجد . وعلى هذا النحو وحده نستطيع أن ننصف أنفسنا وأن ننصف اللغة . ننصف أنفسنا فلا نحرمها التعبير عما تجد ، ولا نضطرها إلى النفاق والكذب فى هذا التعبير . وننصف اللغة فلا نضطرها إلى الانحطاط والجمود ، ولا نضطرها إلى الاضطراب والاختلاط . ولست أدرى كيف يستطيع أنصار القديم فى اللغة أن يجدو فى مثل هذا النحو بدعاً من القول ، أو أن يجدوا فيه وسيلة إلى أخذ أصحابه بتعمد الإساءة إلى اللغة والدين !

لغتنا الرسمية منذ نصف قرن

لن تجد فى هذا الحديث ظرْف أبى نواس ولا دعابته ، ولا أثراً أدبيًّا من هذه الآثار التى تعوّدت أن أتحدث فيها إليك . ولكنك ستجد فيه شيئاً له قيمته وخطره ، وربما كان أعظم قيمة وأجل خطراً من ظرف أبى نواس ودعابته . ذلك لأنه يمسنا ويمسنا من قريب جدًّا . ولا تظن أنه يمسنا من حيث اللغة الرسمية وحدها ، فهو يمسنا من ناحية أخرى ، من ناحية الآثار المصرية والعناية بالآثار المصرية . ولقد حدثتك ذات يوم عن لغة الحجاز ، واتخذت منشور صاحب الجلالة الهاشمية فيما بينه وبين مصر من خلاف نموذجاً لهذه اللغة الحجازية . أما اليوم فأحدثك عن لغتنا نحن الرسمية ، وأتخذ نموذجاً لهذه اللغة نصوصاً ثلاثة ، صدر أحدها عن أمير مصر سعيد باشا ، وصدر الثانى عن ناظر خارجيته ، وصدر الثالث عن البطركخانة القبطية بالقاهرة . ولست أفسر هذه النصوص ، ولا أعلّق عليها ؛ فهى تفسر نفسها وتشهد بالشأو البعيد الذى قطعته لغتنا الرسمية الآن ، على ضعفها وسوئها ، فى الرقى والبراءة من الفساد . تشهد بذلك وتدعو كتّابنا وأدباءنا إلى ألا يملكهم السأم والغيظ حين يقرءون ما يصدر عن دواوين الحكومة المصرية فى هذه الأيام . فإن ما يصدر عن دواوين الحكومة المصرية فى هذه الأيام قد يكون من آيات البيان العربى بالقياس إلى ما كان يصدر عنها منذ نصف قرن . ولكنى أحب قبل أن تقرأ هذه النصوص أن تعرف موضوعها .

مرقس بك كابس عالم مصرى قبطى ، ولد فى طهطا سنة ١٨٣٠ ونال من روما شهادة الدكتوراه فى الفلسفة والعلوم الدينية سنة ١٨٥٧ وعاد إلى مصر ، وكان يريد أن يكون قسيساً كاثوليكيًّا ، ولكنه عدل عن هذا واشتغل بالحياة المدنية ، فعين سنة ١٨٦٣ أميناً مساعداً بالمتحف المصرى فى بولاق ومفتشاً للبحث عن الآثار ، ثم اعتزل هذا العمل سنة ١٨٧٥ وعمل فى تصفية بيت المال . ثم توفى سنة ١٩٠٥ ، وكان عضواً بالمجمع العلمى المصرى وترك آثاراً قيمة فى الهيروغليفية والقبطية ، قد نعرض لها فى غير هذا الحديث .

فلما اختير للعمل فى المتحف المصرى أراد أن يزور الأديار ويطلع على ما فيها من الكتب والآثار ، وسعى له « مريت » فى ذلك عند الأمير ، فصدر الأمر إلى ناظر الخارجية بأن يتكلم فى ذلك إلى البطركخانة . ثم صدر من الأمير منشور إلى مديرى الأقاليم ونظار محطات السكك الحديدية والمشرفين على السفن النيلية ، يطلب إليهم أن يعينوا هذا المفتش وييسروا عليه القيام بما كلف به من البحث عن الآثار . وإليك هذه النصوص ، فاقرأ واضحك ، وتدبر وتبين منها أن عناية المصريين بالآثار المصرية وتفوقهم فيها كان لهما منذ حين شأن ليس لهما الآن. ثم تقدم معى بالشكر إلى هذا الصديق الذى لا أسميه والذى تفضل على « السياسة » بهذه النصوص الثلاثة .

طه حسين

إعلان إلى مديرون الأقاليم قبلى وبحرى ونظار محطات السكة الحديد ومأمور وابورات بحر النيل .

رافعه مسيو كابيز جرى انتخابه بمعرفة مأمور الأنتيقة لضرورة الاطلاع على الكتب والآثار الموجودين بالديورة القبطية الكائنة على شاطىء النيل والديورة التى بالصحراء والمأمور المومى إليه التمس بواسطة ديوان الخارجية صدور إعلان من لدنا بإعطاء ما يلزم من الجمال وما يلزم للمشالات والأنفار الكفاية لأجل مساعدته على هذه المأمورية المتوجه لها . وحيث وافق إرادتنا تعيينه لما ذكر واعطاه ما يلزم من المديريات من جمال أو أنفار أو ركائب لتوصيله من أى جهة إلى الجهة التى يقصدها بالقطر المصرى قبلى وبحرى ثم إذا كان قاصداً جهة من لزوم هذه المأمورية ويكون وابور قائم من وابورات السكة الحديد أو البحر فيجرى نزوله وتوصيله فقد أصدرنا هذا الإعلان وعطى له بيده الاعتماد الاجرى بموجبه فى الجهات التى يمر بها داخل الحكومة كما اقتضته إرادتنا . ختم

٤ جا سنة ٧٨ محمد سعيد

نمرة سايرة ٥٧

صورة أمر وارد من سعادة أفندم الباشا ناظر أمور خارجية تاريخه ٢٣ سنة ١٢٧٨ نمرة ٣٠ خطاباً إلى وكيل بطارخانة الأقباط أن مدير الآثار التاريخية المعين منطرف سعادة أفندينا ولى النعم الخديوى الأعظم أنهى للأعتاب الخديوية أنه بحسب اقتضى المصلحة ينبغى مشاهدة كافة الديورة القبطية الموجودة بالقطر المصرى

التابعة إلى الطائفة رئاسة جنابكم إنكان على شواطئ بحر النيل المبارك أو بالصحراء لأجل الاطلاع على الكتب الموجودة بها والآثار القديمة . وبناء على التماس الموى إليه صدر لنا النطق السامى بمكاتبة محبتكم عن هذه الخصوص لكى أن تحرروا من طرفكم إعلانات عمومية لكافة رويسا الديورة أن يرخصوا إلى مسيو كابيز الذى تعين لهذه المأمورية بالاطلاع على الكتب والآثار القديمة التى توجد بالديورة رياستهم . فلذا اقتضى تحريره لجنابكم نؤمل بوصوله لطرف محبتكم تأمروا من يلزم بتحرير الإعلانات اللازمة وترسلوها لطرفنا بمكاتبة من محبتكم لأجل توصلها إلى المعين فى هذه المأمورية ومأمولنا فى جنابكم نجاز ذلك فى أقرب وقة اتباعاً للأمر الكريم .

* * *

من البطرخانة المرقسية بمحروسة مصر إلى جناب المكرم القمص عبد الملك ريس دير العدوى المعروف بالمحرق بجبل قسقام بمديرية أسيوط .

الأمر المحرر صورته أعلاه وارد من سعادة أفندم الباشا ناظر أمور خارجية إلى البطركخانتيلك عما تعلقة به الإرادة السنية من جهة البحث عن الآثار التاريخية وأنه صدر النطق السامى بتعيين المسيو أكابيز لمروره على كافة الأديورة القبطية والاطلاع عليها يوجد بهم باطلاعكم عليها حواه الأمر المشار إليه تفهمون الكيفية . وحيث أنه فرض واجب نفاذ ما تعلقه به الإرادة الداورية فاقتضى تحرير هذا من البطركخانة إعلاناً لكم لكى بقدوم حضرة المسيو الموى إليه لجهة طرفكم تقابلوه بمزيد الإكرام وتقديم واجبات التبجيل والاحترام وتمروا معه على محلات الدير بطرفكم وكلما أراد الاطلاع عليه وآثارات أو كتب تطلعوه عليه بحسبما يرغب بدون تمنع . ومن كون الغرض هو الاطلاع والمعاينة فقط كمنطوق الأمر فمن بعد مطالعته عليها يصير الاطلاع عليه يصير إعادته وحفظه بمحله كما كان . وإنما الأمل تبذلون فى ذلك غاية جهدكم وتشمروا عن ساعد جدكم فيما يلزم نجازه حتى يعود شاكر لحسن مرآكم والمحذور أن يحصل قصور من طرفكم يوجب لملامتكم معاذ الله تعالى .

ختم

من البطركخانة المرقسية بمصر

الشيخ محمد المهدى

يكفى أن تكون على حظ من الوفاء لتشعر بأن فى فقد الأساتذة شيئاً من اليتم كهذا الذى يجده الناس فى فقد الآباء . لأن فى الصلة بين الأستاذ وتلميذه شيئاً من الأبوة والبنوة يختلف قوة وضعفاً باختلاف ما للإستاذ من تأثير فى نفس التلميذ . ولقد رأينا تلاميذ فتنوا بأساتذتهم وأحبوهم حبًّا لا حد له . فليس عجيباً أن يحزن كثير من شباب مصر وشيوخها هذا الأسبوع لأنهم فقدوا أباً لهم كانوا يحبونه ويميلون إليه ميلا شديداً ، هو الأستاذ الشيخ محمد المهدى رحمه الله .

لست أعرف تفصيل حياته ، ولكنى أعرف أن تلاميذه لا يكادون يحصون ، وأنه من أبعد الأساتذة أثراً فى الحياة المصرية الحاضرة . فقد علّم فى دار العلوم ، وفى الجامعة ، وفى مدرسة القضاء الشرعى أعواماً طوالا ، وانتشر تلاميذه فى أقطار مصر ، وتناولوا فروعاً مختلفة من حياتنا العلمية والعملية . فكثير جدًّا من المعلمين — ولاسيما الذين يعلمون اللغة العربية وآدابها — درسوا على الأستاذ ، وكثير جدًّا من القضاة والمحامين الشرعيين درسوا عليه ، وكثير جدًّا من الموظفين فى الحكومة وغير الموظفين اختلفوا إلى دروسه فى الجامعة زمناً طويلا أو قصيراً . وكل هؤلاء تأثر بالأستاذ ، واستفاد من دروسه ، وكل هؤلاء اجتهد فى أن ينتفع ما استطاع وفى أن يستغل ما أخذ عن الأستاذ .

ولست أعرف نوعاً من أنواع الدرس أظهر أثراً فى نفس التلميذ من دروس الآداب على اختلافها . فلا يكاد التلميذ يعنى بفن من فنون الأدب أو لون من ألوان النظم والنثر حتى يظهر أثر ذلك فى حديثه وتفكيره بل فى حياته العملية أيضاً . وربما كان من اللذيذ الممتع أن يختص باحث بدرس ما أحدثت فى حياتنا العقلية والذوقية آداب العرب الجاهليين والإسلاميين والعباسيين منذ عنينا بدرسها درساً مفصلا فى هذا العصر الحديث . ومالنا نتكلف البحث عن ذلك ونحن نستطيع أن نجده ظاهراً كل الظهور إذا قارنا بين ما كان يكتبه وينشئه الكتاب والشعراء المصريون منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، وما يكتبه وينشئه الكتاب

والشعراء فى هذا العصر الذى نعيش فيه بعد أن درست الآداب العربية القديمة درساً لا يزال ناقصاً نقصاً شديداً ، ولكنه جليل الخطر بالقياس إلى ما كان عليه علمنا بهذه الآداب قبل أن تنشأ دار العلوم والجامعة ومدرسة القضاء ، وقبل أن تدخل دراسة الآداب فى المدارس الثانوية .

ستقول : ولكن رقى الشعر والنثر كغيره من ضروب الرقى التى يمتاز بها هذا العصر ليس مقصوراً على درس الآداب العربية . ولست أجادلك فى ذلك لأنى مقتنع به . ولكنك لن تجادلنى فى أن حظ الآداب العربية فى هذا الرقى أعظم وأظهر من أن يكون موضعاً للشك أو الجدال . فأستاذ الآداب العربية ، ولا سيما فى المدارس العالية كدار العلوم والقضاء والجامعة ، بعيد الأثر كما قلنا فى تكوين الشباب المصرى . وكان الأستاذ الشيخ المهدى رحمه الله أستاذاً فى هذه المعاهد الثلاثة جميعاً . ولولا أن الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم فى شغل عن كل شىء هذه الأيام بالأزمة السياسية والانتخابات وما إليها ، لما مر موت الأستاذ رحمه الله كما مر دون أن يشعر به إلا نفر قليل . نعم ! لولا أن هذه الأزمة السياسية أحدثت شيئاً غير قليل من اختلال التوازن فى حياتنا العامة وفى حياتنا الفردية لما سكت الكتاب والشعراء من تلاميذ الأستاذ على هذا الخطب العظيم قد نزل بهم حين لم يكونوا ينتظرونه ولا يخشونه . فقد كان الأستاذ الشيخ مهدى من الصحة والقوة بحيث ما كان أحد يخشى عليه هذا الموت الذى عاجله فأراحه من آلام هذه الحياة وأورث تلاميذه وأبناءه ألماً مبرحاً وحزناً شديداً .

لم يكن الأستاذ الشيخ مهدى كاتباً ، ولم يكن شاعراً ، وإنما كان أديباً ، أو قل كان أستاذاً من أساتذة الأدب . ولقد أريد أن أترك منه فى هذه الكلمة صورة قريبة من الصدق . أريد أن أكون مؤرخاً لا مداحاً ولا راثياً وأشعر بأن عمل المؤرخ فى مثل هذا المقام ليس بالشىء السهل .

لم يكن الشيخ محمد مهدى من أنصار القديم ، ولكنه لم يكن من أنصار الجديد وإنما كان وسطاً بين هاتين الطائفتين . كان يزدرى أنصار القديم ويغلو بعض الشىء فى ازدرائهم ، وكان يراهم خطراً على الرقى العقلى وعلى الحياة الصالحة . كما أنه لم يكن يحب الغلاة من أنصار الجديد ، بل كان يتبرم بهم كثيراً ويراهم خطراً على الحياة الاجتماعية والدينية بنوع خاص . كان شديد الإعجاب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه ، بل كان إعجابه هذا لا حد له ،

وكان سبباً من أسباب قصوره عن إدراك الحياة ، فكان يخيل إليه أن المثل الأعلى من الرقى العقلى ومن الحرية العقلية إنما هو ما وصل إليه الشيخ محمد عبده ، وأن الذين ينحرفون عن طريق الأستاذ الشيخ محمد عبده إلى ناحية الجمود كالذين ينحرفون عن طريقه إلى ناحية التقدم خطرون على الحياة الاجتماعية والدينية والعقلية. أولئك يؤخرونها ، والتأخر شر ، وهؤلاء يثبون بها ، والوثوب خطر . ثم كان الأستاذ الشيخ مهدى يمثل جيلا خاصًّا من الأساتذة والأدباء ، هو أقرب الآن إلى أن ينتهى ويترك مكانه لجيل من الشبان يخالفه المخالفة كلها . كان قد أدرك ذلك العصر الذى لم تكن فيه حياتنا العقلية والأدبية راقية ولا مرضية ، وكان من الذين ظهر فيهم الرقى الجديد ، فكان معجباً بهذا الرقى مفتوناً به . واحتفظ بإعجابه هذا إلى آخر أيامه ، فكان يرى نفسه خيراً من غيره ، وكان لا يتكلف الاحتياط فى إخفاء ذلك أو الاقتصاد فيه ، وكان أصدقاؤه وتلاميذه الذين يحبونه ويميلون إليه يسمعون منه ذلك راضين بل متفكهين . كانوا يبسمون له ويستعيدونه ، فإذا انصرف عنهم الأستاذ أعادوا ما سمعوا منه وضحكوا لا ضحك سخرية وازدراء بل ضحك عطف وحب .

كان الأستاذ الشيخ مهدى حاو الحديث خلاَّبه ، وكان يؤثر اللغة العربية الفصحى ويتكلفها ويتخير منها ألفاظاً غريبة وأساليب شاذة أو غير مألوفة فى الأحاديث العادية فكنت مضطرًّا إلى أن تضحك وأنت تتحدث إليه أو تسمع له ، وكانت هذه مزية من مزاياه . وما أعرف أنى تحدثت إلى الأستاذ أو سمعت له راضياً أو ساخطاً جادًّا أو هازلا دون أن أضحك ويضحك ، ودون أن أغرق ويغرق فى الضحك . وانتشرت عن الأستاذ أقاصيص فى هذا ، منها الصحيح ومنها المتكلف . فكثير من تلاميذه يتحدثون فيما بينهم أن الأستاذ لقى فى يوم من أيام الحر رجلا من الذين يبيعون الشراب فى شوارع المدينة وكان ظمئاً ، فأراد أن يشرب وأن يشرب مزيجاً من « الخروب » و « عرق السوس » ؛ فطلب إلى الرجل كوباً من « الخرسوس » ، فوجم الرجل لأنه لم يفهم هذا اللفظ . قال الأستاذ : عجيب ! ما تعرف « الخرسوس » إنه منحوت من الخروب وعرق السوس! وما أظن أن هذه الأسطورة صحيحة . ولكن لا أشك فى أنها تمثل ناحية من نواحى الأستاذ ؛ فهو كان يجتهد دائماً فى أن يكون فصيح اللسان عذب اللفظ . وما أنس لا أنس قوله لى — وأظنه تكرر مائة مرة ومرة فقد كان يعيده كلما قدم

إلىَّ « سيجارة » وهم بإشعالها — : « انتظر حتّى ألعها لك » . وكان على ذلك يكره من غيره التشدق واختراع الألفاظ والأساليب ، ويرى ذلك شيئاً ممقوتاً ويسخر منه فى دروسه ومجالسه . أذكر أنى كنت أكتب قبل الحرب مقالات فى « الجريدة » حول الآداب العربية ، وكنت أذكر لفظ مدرسة الآداب أريد به شيوخ الأدب العربى فى مصر ومنهم الشيخ مهدى ، وكنت أناقشهم وأنكر عليهم بعض أحكامهم فكان الأستاذ شديد التبرم بمدرسة الآداب هذه ، وكان لايترك فرصة تعرض فى درس من دروسه فى الجامعة دون أن يسخر من مدرسة الآداب ، فكان يقول : « يذكرون مدرسة الآداب . ولست أدرى ما معناها ولا أين هى ؟ فى أى شارع توجد مدرسة الآداب أو أى حارة ! من عرف ذلك منكم فلينبئنى » . وكنت أسمع ذلك فأبتسم ، فإذا انتهى الدرس تصافحنا فضحك وضحكت ، وفهم كل منا لماذا ضحك .

وكان فى أخلاقه — رحمه الله — شىء من الطفولة ؛ فكان سريع الغضب جدّاً سريع الرضا جدّاً ، وكان غضبه حلواً وكان رضاه لذيذاً . ولست أغلو فى ذلك ولا أتكلف ؛ فقد كان غضبه حلواً إلى حد أن تلاميذه فى دار العلوم القضاء والجامعة — وأنا منهم — كانوا يتعمدون إغضابه لأن غضبه كان يلذهم ، ثم كانوا إذا أغضبوه وأرضوا من غضبه لذتهم أرضوه فرضى ، وكان عذب الرضا . ولقد أذكر أنى كنت أثقل التلاميذ عليه فى الجامعة ، فما كنت أترك له درساً دون أن أغاضبه مناقشة وإثقالا فى المناقشة ، حتى إذا بلغ الغضب أقصاه سكت عنه ، وانتهى الدرس فذهبت إليه . فما أكاد أمد يدى حتى يقبلها راضياً ضاحكاً وقد نسى كل شىء . وأذكر أنى أغضبته مرات وتجاوزت فى إغضابه الحد المألوف واحتجت إلى أن أترضاه بعد ذلك ، فكان هذا الصلح ينتهى دائماً بغرم يقبله الأستاذ مبتهجاً مسروراً لأنه كان يدعونا إلى الغداء عنده يوم الجمعة . كنا نغضبه وكان يرضينا .

ولست أعرف تلميذاً كان أثقل على أستاذه وأقسى منى على الأستاذ الشيخ مهدى . ولكنى لا أظن أن بين تلاميذ الأستاذ من أحبه حبى إياه . كنت قاسياً وكان قاسياً أيضاً . وظهرت هذه القسوة المتبادلة — إن صح هذا التعبير — عنيفة مرتين : الأولى عندما كنت أضع كتابَ أبى العلاء وأتقدم لامتحان الدكتوراه فى الجامعة المصرية ؛ فقد سمعت له درساً فى شعر أبى العلاء ووقع بينى

وبينه خلاف فى رأى أبى العلاء فى البعث ، زعمت شيئًا وأنكره ، وطالبنى بالدليل ولم يحضرنى الدليل فى الدرس ، فظهرت مظهر المنهزم ، وسره ذلك وظهر سروره ، فحفظتها فى نفسى ، ومضيت فى تأليف الكتاب ، حتى إذا وصلت إلى رأى أبى العلاء فى البعث تناولت هذا الرأى ، وكنت قد قرأت اللزوميات كلها ، وظفرت بما كان يطلب إلى من دليل ، فذكرت ما كان بينى وبينه من خلاف ، وذكرت ذلك فى لفظ لا يخلو من الفخر القاسى ، ثم انتصرت عليه ولم أنتصر فى رفق ، وكنت أعلم وأنا أكتب أنه سيقرأ هذا الكتاب ، وسيكون عضواً فى لجنة الامتحان ، وكنت أعرف قسوته وغضبه . ولكنى مضيت ، وقدمت الكتاب وجاء يوم الامتحان ، وكان يوماً مشهوداً . ولعل الذين حضروا الامتحان — وكانوا كثيرين جداً — يذكرون أنى أمضيت فى هذا الامتحان ثلاث ساعات ذهب أكثرها فى جدال عنيف بين الأستاذ الشيخ مهدى وبينى ، حتى أنكر الجمهور ذلك وسئمه. ثم عرف منه بعد ذلك أن اللجنة خلت للمداولة ، وكان رأيها حسناً فى الطالب ، وكانت تريد أن تمنحه أحسن ألقابها ، ولكنه أبى الإباء كله ، ووفق لأن اكتفت اللجنة بمنح الكتاب لقب « جيد جداً » بدل لقب «فائق» . وكان سرور الأستاذ بهذا الظفر عظيما حتى تحدث به فى مجالسه. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتكلم فى كل الحفلات التى أقامها لى إخوانى طلبة الجامعة وغيرهم بعد هذا الامتحان فيثنى على بما شاء له ظرفه وحبه لتلميذه العنيد .

أما المرة الثانية فقد كانت خطرة بل خطرة جداً . عدت من أوربا بعد أن مكثت فيها أشهراً سنة ١٩١٥ فذهبت إلى درس الأستاذ ، وكنت قد اختلفت فى فرنسا إلى دروس أساتذة الآداب الفرنسية ، فقارنت بين درس الأستاذ وبين ما رأيت فى فرنسا . ولم تكن المقارنة مرضية ، ولكنى نشرت هذه المقارنة فى صحيفة أسبوعية هى جريدة السفور. فلم يكد يقرؤها الأستاذ حتى ملكه سخط لا حد له وحتى أراد أن ينتقم ، فشكانى إلى مجلس إدارة الجامعة ، وكنا نتأهب للعودة إلى أوربا ، وكان من الممكن جداً أن يوفق الأستاذ لحرمانى هذه العودة . وأذكر أن المرحوم علوى باشا دعانى ذات صباح إلى الجامعة فذهبت ، فلما دخلت عليه استقبلنى استقبالا سيئاً جداً ، وكان شديد الحب لى والعطف على ، وقال : « ماذا كتبت عن أستاذك الشيخ مهدى ؟ » قلت : « كتبت رأيى فى درس من دروسه » . قال فى عنف : « ولكنك تجاوزت مع أستاذك حد الأدب ؛

اذهب فاعتذر إليه وإلا فإن الجامعة لن ترضى منك هذا ، وستكون عاقبة هذا الموقف سيئة جدًّا » . أجبته : ما كنت لأعتذر من رأى أراه ؛ وانصرفت مغاضباً . ولولا أن المرحوم علوى باشا وزملاءه أعضاء إدارة الجامعة كانوا يعطفون علىّ عطفاً شديداً لساءت الحال . ولكن علوى باشا طلب إلى الأستاذ « بهجت بك » أن يجمع بينى وبين الشيخ مهدى ويجتهد فى الإصلاح بيننا . وجمعنا بهجت بك فى دار الآثار العربية . وما كان أيسر الصلح حين اجتمعنا ، ثم ائتلف مجلس إدارة الجامعة وأقر ما كان بيننا من صلح ، وانتهى هذا الخصام الذى تناولته الصحف أكثر من أسبوعين ، كما كانت تنتهى الخصومات بين الشيخ مهدى وبينى بدعوة إلى الطعام .

إنى لأذكر هذا كله ، والله يشهد أن قد امتلأ قلبى حزناً حين بلغنى موت الأستاذ . نعم ! إنى لأذكر هذا كله والله يعلم ما امتلأ قلبى إلا برًّا به وحبًّا له . والله يشهد ما أضمرت فى يوم من الأيام موجدة على الأستاذ أو انصرافاً عنه ، وما كنت فى هذا كله إلا مداعباً قاسياً ، وما أحسب أنه كان فى هذا كله إلا مداعباً قاسياً أيضاً .

قلت : إن شيئاً من الطفولة كان فى أخلاق الأستاذ . ولكنى أقول : إن شيئاً كثيراً من الرجولة كان فى أخلاقه أيضاً . فما عرفت أوفى منه بعهد ، ولا أحرص منه على مودة . ولقد عجبت من أمره غير مرة ، فكنت أراه يغير الرأى فى كثير من الأشياء ، وكنت أخيل إلى نفسى أنه رجل هوى متأثر بالميول الوقتية أكثر من تأثره بالآراء والعقائد ، إلى أن كانت الأزمة السياسية والفتنة التى انقسم لها المصريون . رأيته أثناء هذه الفتنة مرات كثيرة فى ظروف مختلفة حين رجحت كفة وهوت كفة وحين رجحت الكفة الهاوية وهوت الكفة الراجحة ، فما رأيت فيه هذه المرة تغييراً فى الرأى أو انصرافاً عن المذهب ، وإنما اضطربت الأمور من حوله ، فمال من مال وتلون من تلون ، وظل هو فى موقفه ثابتاً لم يتقدم ولم يتأخر ، لم تفتنه السلطة ، ولم يخلبه التصفيق ولم تخفه ألوان الأذى ولقد لحقه منها غير قليل .

كان الأستاذ الشيخ مهدى رجلا ، ولكنه كان رجلا خلاباً ، حلو المحضر ، حسن الحديث . ولقد انصرف عنا حين لم نكن نخشى انصرافه . انصرف عنا وكان منا من يكلف به ومنا من لا يسرف فى الميل له . انصرف عنا ولكنه ترك فى

نفوسنا جميعاً على اختلاف آرائنا فيه صورة حلوة مبتسمة داعية إلى الابتسام ، فسنذكره كثيراً ، وسنأسف عليه أسفاً شديداً ، ولكننا سنذكره وسنأسف عليه مبتسمين لأنه كان ابتساماً كله .

ولقد أريد أن أقدم إلى أهله وذوى قرباه أصدق العزاء ، ولكنى أشعر بأن رجال الأدب العربى كافة وأساتذته بنوع خاص ليسوا أقل من أهله وذوى قرباه احتياجاً إلى العزاء .

فلتشمله رحمة الله الواسعة ، وليسعد ، فقليل جداً من الناس من يترك فى نفوس أصدقائه وخصومه هذه الصورة الحلوة المبتسمة .

« علم الأخلاق » لأرسطاطاليس

ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد

بين يدى ديوان عمر بن أبى ربيعة وكتب أخرى تذكر عمر بن أبى ربيعة كنت أقرؤها لأنى كنت أريد أن أحدثك عن هذا الشاعر فى هذا الأسبوع . ولكن حادثاً أدبياً ذا خطر صرفنى عن ديوان ابن أبى ربيعة وعن الأغانى وغيره من كتب الأدب ، كما صرفنى عن أن أتخذ الأدب موضوعاً للحديث هذه المرة. هذا الحادث هو ظهور « كتاب الأخلاق » لأرسطاطاليس مترجماً إلى اللغة العربية بقلم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد .

أظن أنك تقرنى على أن أدع ابن أبى ربيعة وما يتصل به وأنصرف إلى أرسطاطاليس ومترجمه المصرى هذا الأسبوع ؛ فإن ظهور مثل هذا الكتاب بقلم مثل هذا المترجم ليس من الحوادث الأدبية التى ألفناها أو أتاح لنا الدهر أمثالها فى مصر من حين إلى حين .

نحن « مفطومون » كما يقول الفرنسيون من هذه الحوادث الأدبية الخطيرة التى تحدث فى البلاد الحية فتهتز لها نفوس الأدباء والعلماء والتى يوشك حدوثها أن يكون قواماً طبيعياً للحياة الأدبية فى تلك البلاد .

نحن « مفطومون » من هذه الحوادث ؛ فقد تمر الأعوام وتتلوها الأعوام دون أن يتحدث الناس بأن كتاباً قيماً خليقاً بالخلود قد ألف أو ترجم أو لخص ، وإنما حياتنا الأدبية هادئة فاترة ، أو قل إنها راكدة ، لا تعرف الحركة والاضطراب. نفطر على الصحف السياسية ونتغدى على الصحف السياسية ونتعشى بالصحف السياسية ، حتى لقد سمت عقولنا ونفوسنا وقلوبنا بالصحف السياسية وما فى الصحف السياسية . وأنا أعتذر من هذا إلى كتابنا السياسيين سواء منهم الأصدقاء والخصوم ، أعتذر إليهم من هذا التعبير العنيف فإنى مضطر إليه اضطراراً بعد أن استأثروا بحياتنا الأدبية استئثاراً يوشك أن يكون تاماً ، فصرفونا أو كادوا يصرفوننا عن كل شىء إلا سياستهم وخصوماتهم ، وإلا ما يتورطون ويورطون

الناس معهم فيه من ألوان الجدل التى ليس لها حد ولا قرار .

إن للبلاد الأخرى حياتها السياسية وما تستتبعه من اضطراب ، قد يشتد حتى يصل إلى العنف بل إلى الثورة . وإن فى البلاد الأخرى خصوماتها الحزبية حول الحكم وما يتصل بالحكم . وإن للبلاد الأخرى ساعات وأياماً من حياتها السياسية ملؤها الفزع الذى يستأثر بالنفوس أو الفرح الذى يستهوى الألباب . ولكن هذا كله لا يصرف الناس فى تلك البلاد عن حياة العقل والشعور ولذة العقل والشعور إلى الشهوات السياسية والأهواء السياسية كما يصرفنا نحن فى مصر . لقد اضطرب العالم اضطراباً لم يعرف التاريخ مثله ، واستمر هذا الاضطراب أعواماً أزهقت فيها نفوس لا يكاد يبلغها الإحصاء ، وجرت فيها الدماء أنهاراً دون أن تكون فى هذا التعبير مبالغة أو غلو ، وآمت فيها نساء ويتمت فيها أطفال واختل فيها التوازن الاقتصادى والخلقى والأدبى اختلالا لا مثيل له . ولكن هذا كله لم يصرف أوربا ولا أمريكا عن حياة العقل والشعور أو لذة العقل والشعور . ماذا أقول ؛ بل إن هذا كله قد رغب أوربا وأمريكا فى حياة العقل والشعور ، ولذة العقل والشعور ، فكثر التأليف وكثرت الترجمة ، واشتد ما بين الأمم من صلات ، فحرصت الحرص كله على أن يعرف بعضها بعضاً ويفهم بعضها نفسيات بعضها الآخر . وما أحسب أن الأمم تعاونت على الحياة العقلية والشعورية فى عصر من العصور كما تعاونت عليها أثناء الحرب الكبرى .

أما نحن فسل عن حبنا للحياة العقلية وعن عنايتنا بها قبل الحرب وأثناء الحرب قبل الثورة وأثناء الثورة ، ونبئنى عن نتيجة هذا الحب وهذه العناية ، فلن تجد شيئاً تنبئنى به إلا أنك خجل مثلى لهذه الجهود المضيعة فى غير نفع ولا غناء . أليس غريباً أن تضطرب مصر اضطرابها هذا دون أن يكون لهذا الاضطراب أثر علمى أو أدبى يخلده التاريخ ؟ أليس غريباً أن يكون وقت الثورة الفرنسية هو أشد عصور فرنسا خصباً وأعظمها ثروة من الوجهة العلمية والأدبية والفنية والسياسية على ما امتلأ به هذا الوقت من هول ، وأن تكون ثورتنا أشد الثورات جدباً وفقراً وضيقاً ؟ نعم ! هذا غريب ! ولكنه مع ذلك شىء واقع لا سبيل إلى الشك فيه ، ولا خير الآن فى البحث عن أسبابه ونتائجه .

تستطيع أن تلقى من شئت أين شئت ومتى شئت ، فلن يكون الحديث بينكما إلا فى السياسة وما نشرت الصحف السياسية من أنباء وما امتلأت به من جدال

وخصومة . فأما العلم ، فأما الأدب ، فأما الفن ؛ فكل ذلك شي لن تعرضا له فى حديثكما إلا إذا اضطر رتما إليه اضطراراً ، وما أحسب أنكما تضطران إليه .

فإذا كانت هذه حالنا ، وإذا كنا قد بلغنا هذا الحد من الإفلاس الأدبى والعلمى والفنى ، فليس غريباً أن ننظر إلى هذه الحادثة الأدبية التى أتحدث عنها اليوم كما ننظر إلى شىء استثنائى عظيم الخطر . ولم لا يكون استثنائياً ونحن بإزاء مؤلف ليس كغيره من المؤلفين ، ومترجم ليس كغيره من المترجمين ؟ أريد أن أعلم إلى أى مؤلف أو إلى أى عالم أو إلى أى فيلسوف نستطيع أن نقرن أرسطاطاليس! أما أنا فلست أعرف له نظيراً منذ ظهرت الفلسفة الإنسانية ، وما أعتقد أن أحداً غيرى يستطيع أن يجد له نظيراً . ومهما يكن من شىء فأرسطاطاليس هو المعلم الأول حقاً كما سماه العرب ، وهو أبو الفلاسفة حقاً ، وهو زعيم الفلاسفة حقا وأبقاهم سلطاناً وأرفعهم مكاناً وأشدهم ثباتاً للدهر وقوة على الأيام .

وأريد أن أعلم إلى أى كاتب أو إلى أى مفكر أو إلى أى مترجم فى مصر أو فى الشرق العربى كله نستطيع أن نقرن الأستاذ أحمد لطفى السيد . أما أنا فلست أعرف له نظيراً فى الكتابة ولا فى التفكير ولا فى الترجمة ، وأزعم أن ليس بين المصريين وغير المصريين من يستطيع أن يجد له نظيراً فى هذه الوجوه الثلاثة من وجوه الحياة الأدبية : التفكير والكتابة والترجمة .

سمى العرب زعيم الفلاسفة اليونانية المعلم الأول ، وكانوا فى ذلك منصفين . وأنا أزعم أن الأستاذ أحمد لطفى السيد معلمنا الأول فى هذا العصر ، وأزعم أنى فى ذلك صادق منصف ، ومتواضع أيضاً .

لست من الغلو بحيث أقرن الأستاذ لطفى السيد إلى أرسطاطاليس . فأرسطاطاليس هو المعلم الأول للإنسانية الخالدة ، ولطفى السيد هو المعلم الأول لعصرنا هذا الذى نحن فيه . وأين يقع هذا العصر المصرى الضئيل ومكان الأستاذ لطفى السيد فيه ، من حياة الإنسانية الخالدة ومكان أرسطاطاليس فيها ! لست إذاً غالياً ولا مسرفاً ولا مؤثراً لصديق ؛ فأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد صديق لى كما أنه صديق للشباب الناهض المفكر كله . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد أستاذ لى كما أنه أستاذ للشباب الناهض المفكر كله . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد قد يحبه قوم وقد لا يحبه آخرون ، ولكن الناس جميعاً يكبرونه ويقدرونه لأنه مفكر قبل كل شىء ، وكاتب قبل كل شىء . وأى الناس يستطيع ألا يكبر الكاتب والمفكر إذا

كان كاتباً حقاً ومفكراً حقاً!

أشهد أن للصداقة حقوقاً ، وأن هذه الحقوق قد تجل فى كثير من الأحيان على الإيثار والمحاباة وتجاوز الحق ، ولهذا أتحرج لأنى أخشى أن يربو الحب والصداقة على الإنصاف فى النقد . ولكنى أكتب عن الأستاذ لطفى السيد فى غير تحرج ولا إشفاق ولا خوف من محاباة ، وإنما أخاف شيئاً آخر ، أخاف ألا أفيه حقه من الإنصاف ، ولا أبلغ به ما هو أهل له من الثناء . ولقد أشعر وأنا أملى هذا الفصل أنى لا أكتب عن نفسى ولا عن طائفة قليلة عن أمثالى ، وإنما أصف شعوراً عاماً وعاطفة شائعة فى هذا الجيل الذى كان يقرأ « الجريدة » ومقالات الأستاذ لطفى السيد فيها ، والذى كان لا يكاد يقرأ فصلا من فصول الأستاذ حتى يشعر بأن فى الأدب العربى شيئاً جديداً فيصبو إلى أن يتعرف هذا الجديد ، فإذا هو أمام شخصية قوية خلابة خصبة محببة إلى النفس قد ملكت عليه عقله واستأثرت بهواه ، وإذا هو يجد فى هذه الفصول لذة لا يستطيع أن ينصرف عنها ولا أن يسلوها ، لذة كلذة الكيف ، إن صح هذا التعبير ، ولكنها لذة تغذو وتفيد ، وإذا هو يقرأ هذه الفصول ويقرؤها ، ويحاول أن يتخذ لفظها نموذجاً للكتابة ومعناها نموذجاً للتفكير ، وإذا هو يتجاوز الأستاذ وفصوله إلى الحياة الأوربية الحديثة والتفكير الأوربى الحديث ، وإذا هو من أنصار الجديد فى قصد واعتدال ، وإذا هو من الذين يدعون إلى الإصلاح العقلى ويحرصون عليه ومن الذين يدعون إلى حرية الرأى ويذودون عنها ،وإذا هو من الذين يريدون أن يزايلوا هذه الفروق التى كانت تقوم بين العقل الشرقى والعقل الغربى وإذا هو يريد أن تكون مصر العقلية جزءاً من أوربا العقلية ، ولكن على أن تحتفظ مع ذلك بشخصيتها القومية واضحة قوية .

لقد نستطيع أن نشخص فلسفة الأستاذ لطفى السيد بهذه الخصال :

الأولى أنها فلسفة تجديد وإصلاح ، لا يقومان على هدم القديم ، بل يقومان على تنقيته وتصفيته وتقويته وإزالة ما فيه من أسباب الانحلال والضعف . الثانية أنها فلسفة حرية وصراحة ، ولكن بأوسع معانى الحرية والصراحة العقلية . الثالثة أنها فلسفة ذوق وقصد فى اللفظ والمعنى والسيرة معاً . الرابعة أنها فلسفة كرامة وعزة واعتراف بالشخصية الإنسانية وحمل الناس على أن يعترفوا بهذه الشخصية .

عد إلى آثار الأستاذ لطفى السيد فى الجريدة فاقرأها وتدبرها استقصاء ،

ثم انظر إلى الأستاذ وإلى تلاميذه وأصفيائه تجدهم قد أخذوا بحظهم من هذه الخصال ؛ فهم مصلحون ودعاة إلى التجديد ، وهم أحرار ودعاة إلى الحرية ، وهم محبون للذوق حين يفكرون وحين يعملون ، وهم أباة حريصون على الكرامة الفردية والاجتماعية ، لهم لون خاص يمتازون به ويعرفون بين الطبقات المختلفة والأصناف المتباينة من الناس . يتخذهم خصومهم أحياناً هزؤاً وسخرية ، ولكنهم على ذلك كله يقدرونهم ويتأثرون خطاهم ويحسدونهم على ما يسخرون منهم من أجله .

إن التاريخ منصف بطبعه ، ولكنه يحتاج إلى وقت طويل ليستطيع أن يصدر حكمه العدل . وليصدرن التاريخ حكمه قريباً . وليشهدن التاريخ بأن مصر مدينة بالشيء الكثير جداً للأستاذ لطفي السيد في نهضتها العقلية والسياسية والاجتماعية ، وليضمَّن التاريخ لطفي السيد إلى صديقيه المصلحين محمد عبده وقاسم أمين.

ولقد أبتسم ابتساماً فيه شيء من الحزن ، وفيه شيء من الأمل أيضاً حين أسمع الاستقلال التام ، وحين أسمع الحرية الدستورية ، وحين أسمع سلطة الأمة ، وحين أسمع أشياء كثيرة أصبحت قوام حياتنا الحاضرة . أبتسم ابتساماً فيه حزن وأمل ، لأن هذه الألفاظ وهذه المعانى هى ألفاظ لطفي السيد ومعانى لطفي السيد ، ليس فى ذلك نزاع ولا جدال إذا هدأت الأهواء والشهوات واستطعنا أن نكون منصفين .

أبتسم ابتسامة حزن وأمل : حزن لظلم الجيل الذى نحن فيه ، وأمل فى إنصاف الأجيال المقبلة . ولكنى لا أذكر الأستاذ لطفي – وأنا أذكره كثيراً جداً – إلا ابتسمت ابتساماً ملؤه الإعجاب والإكبار ؛ لأنى أذكر هذا الذى اندفع فى الجهاد السياسى ما كان الجهاد السياسى نافعاً ، حتى إذا عصفت عواصف الحرب وأصبح الجهاد السياسى العلنى مستحيلا أو كالمستحيل لجأ هذا الرجل إلى زاوية من الزوايا فى غرفة من الغرف ، وأخذ يقرأ المعلم الأول ، ويتحدث إلى المعلم الأول ، ويترجم المعلم الأول ، حتى وضعت الحرب أوزارها وهو على اشتغاله بالمعلم الأول يرقب الحوادث من كثب . فلما ظهر أن استئناف الجهاد السياسى ميسور مفيد قال للمعلم الأول : « إلى اللقاء » واندفع فى الميدان السياسى ، فجاهد أصدق جهاد وأبلى أعظم بلاء ، حتى إذا عصفت الشهوات السياسية وأحس العقل أن الخير له فى أن ينزوى ويترك الميدان للعاطفة والشهوة ،

انزوى صاحبنا وعاد إلى المعلم الأول يقرؤه ويناجيه ويترجمه ، وإذا نحن أمام كتب أربعة أو خمسة من كتب أرسطاطاليس قد تمت ترجمتها وهيئ بعضها للنشر ونشر بعضها الآخر ، وإذا أنا الآن مضطر إلى أن أحدثك عن كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس الذى نقله إلى اللغة العربية الأستاذ لطفى السيد ، وعنى بنشره حين كانت العواصف السياسية تعصف بالمصريين وتعبث بمنافعهم وعقولهم وأخلاقهم عبثاً منكراً .

هذا العمل نفسه ، هذا الانقطاع إلى الفلسفة حين لا تجدى الحياة العملية نفعاً ، وهذا الانصراف عن الفلسفة إلى الحياة العملية حين ينتظر منها النفع العام ، هو الذى يشخص لطفى السيد ويدلنا على أنه رجل خليق بأمثاله المفكرين فى أوربا ، أولئك الذين ينقطعون إلى الحياة العقلية فينفعون وينتفعون ، حتى إذا أحسوا حاجة أوطانهم إليهم قدموا أنفسهم إلى أوطانهم وأدّوا واجبهم هادئين باسمين لا ينتظرون على هذا أجراً إلا الشعور بأن حياتهم ليست هزؤاً ولا حملا على الجماعة ثقيلا .

وهل تعرف كتاب « الأخلاق » هذا الذى نقله الأستاذ إلى اللغة العربية والذى أردت أن أحدثك عنه فحدثتك عن مترجمه ؟ هل تعرف خطر هذا الكتاب وقيمته وأثره الخالد فى تاريخ الفلسفة ؟ لو أنى أردت التقريظ لقلت إن الكتاب الذى يضعه أرسطاطاليس وينقله لطفى السيد إلى العربية خليق أن يقرأ وينتشر ؛ لأن هذين الإسمين وحدهما يكفيان لإذاعته ونشره ، ولكنى — شهد الله — ما أردت تقريظاً ، ولكنى أردت النقد من جهة ، وأردت الحث على العناية بالحياة العقلية من جهة أخرى . يجب أن تعلم أن أرسطاطاليس هو الذى وضع علم الأخلاق ، كما أن أرسطاطاليس هو الذى وضع علم المنطق وعلوماً أخرى مختلفة ، وليس معنى هذا أن الناس لم تكن لهم أخلاق ولا منطق قبل أرسطاطاليس ، وليس معنى هذا أن الفلاسفة لم تكن لهم مذاهب فى المنطق ولا فى الأخلاق قبل أرسطاطاليس ؛ فقد أحب الناس الخير وكرهوا الشر منذ فكروا ، وقد كان للفلاسفة مذاهبهم فى العلم والمعلوم وفى الفهم والحكم ، وفى الحياة وغايتها وسيرة الأحياء فيها قبل أرسطاطاليس ، ولكن الذى أريده هو أن أحداً من الفلاسفة لم يسبق أرسطاطاليس إلى تدوين المنطق على أنه علم يدرس ، وإلى تدوين الأخلاق على أنه علم يدرس . كان هناك منطق السوفسطائية ومنطق سقراط

ومنطق أفلاطون، وكان هناك مذهب السوفسطائية ومذهب سقراط ومذهب أفلاطون في الأخلاق . فلما جاء أرسطاطاليس وجد شيء يقال له علم المنطق ، وشيء يقال له علم الأخلاق، وشيء يقال له علم السياسة ، وشيء يقال له علم البيان .

كانت تلك المذاهب في المنطق والأخلاق والسياسة والبيان مذاهب شخصية تضاف إلى أصحابها وتطبع بطابعهم . فلما جاء أرسطاطاليس أصبحت هذه العلوم علوماً إنسانية لا فردية ولا مذهبية ، وأصبحت تمتاز بشيئين متناقضين ، فهي شخصية من جهة ، ولا شخصية من جهة أخرى : شخصية لأن شخص أرسطاطاليس أقوى وأظهر من أن يخفى . وأرسطاطاليس له آراؤه ومناهجه ومذاهبه الخاصة . ففلسفته شخصية إذاً تضاف إليه بحق كما تضاف إلى أفلاطون فلسفة أفلاطون ، وهي في الوقت نفسه لاشخصية ، لأن أرسطاطاليس لم يكن يريد أن يسلك في الفلسفة مسلك الذين تقدموه ، وإنما كان يريد أن ينظم جهود العقل الإنساني ونتائج هذه الجهود ، وأن يرسم لهذا العقل سبيله إلى الرقي العلمي والأدبي . وقد وفق أرسطاطاليس فأصبحت فلسفته فلسفة الإنسانية ، وأصبح منطقه بالقياس إلى العقل الإنساني كعلم منافع الأعضاء والتاريخ الطبيعي بالقياس إلى الأجسام ، وأصبحت « أخلاق » أرسطاطاليس و « سياسة » أرسطاطاليس أساساً لهذا العلم الفني الخصب الذي لم يؤت بعدُ ثمراته الناضجة والذي سيكون له في الحياة الإنسانية الحديثة أثر قوي بعيد وهو علم الاجتماع .

كل شيء من آثار أرسطاطاليس غريب ؛ فإنك لا تسلك مذهباً من مذاهبه الفلسفية إلا أحسست فيه شيئين : الأول أن هذا المذهب ملائم للعصر الذي نشأ فيه . والثاني أنه ملائم للعصور الإنسانية على اختلافها . وليس بعض الفرنسيين مبالغاً حين يقول : « لو أن هذه الحضارة الحديثة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطاطاليس أساساً لهذه الحضارة الجديدة» . وفي الحق أن اليونان والرومان عاشوا في العصر القديم على فلسفة أرسطاطاليس ، وأن الشرق والغرب عاشا في القرون الوسطى على فلسفة أرسطاطاليس ، وأن أوربا الحديثة تعيش الآن وستعيش غداً على فلسفة أرسطاطاليس . وأنت تعلم مقدار الاختلاف بين كل هذه الأمم والشعوب الشرقية ، والغربية ، واللاتينية ، والجرمانية ، والسامية ، في الأمزجة والعادات والنظم والديانات . وهي على هذا الاختلاف كله مشتركة في أنها عاشت وستعيش على فلسفة أرسطاطاليس .

لا تقل إن أوربا الحديثة قد جددت الفلسفة فى جميع فروعها واستحدثت من العلم ألواناً لم يعرفها أرسطاطاليس ، فليس أحد ينكر هذا ، ولكن هناك شيئاً آخر لا شك فيه ، وهو أن تجديد الفلسفة واستحداث العلم لم يبلغ من فلسفة أرسطاطاليس إلا قليلا وقليلا جدًّا ؛ فما زال علم الاجتماع محتاجاً أشد الاحتياج إلى أخلاق أرسطاطاليس وسياسته . وما زال الذين يدرسون ما بعد الطبيعة محتاجين إلى فلسفة أرسطاطاليس فيما بعد الطبيعة . بل إن المنطق ما زال الآن كما تركه أرسطاطاليس إلا أبواباً أجملها أرسطاطاليس وفصلها المحدثون . العرب إذاً منصفون حين يسمون أرسطاطاليس المعلم الأول ، فهو أول من علم الفلسفة والعلم ، أى هو أول من اتخذها علوماً مستقلة تدرس لنفسها دون الأشخاص وما زال أرسطاطاليس المعلم الأول ما دمنا لا نعرف فيلسوفاً مهما يكن الفرع الذى يختص به من فروع الفلسفة لا يرجع إليه ولا يعتمد عليه . قل إذاً لهؤلاء الذين يتشدقون بالجديد ويتغنونه لأنه جديد ، ويزدرون القديم لأنه قديم ، قل لهؤلاء إنهم فى حاجة إلى شىء من القصد والتدبر . فليس يفهم الجديد إلا بالقديم ، ولا قيمة للجديد بدون القديم . ثم قل لهم إن فلسفة اليونان وآدابهم وفنونهم ليست قديمة ولا يمكن أن تكون قديمة ، وإنما هى أشياء أراد الله لها أن تحتفظ بقوتها ونضرتها وشبابها ما بقى من الدهر وما كان للإنسان عقل وشعور .

على أنى لم أحدثك بعد عن كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس ، وإنما حدثتك عن المترجم والمؤلف . وماذا تريد أن أصنع ، وأنا رجل يظهر أنى ثرثار بطبعى ! فأنت تعرف المترجم وتعرف المؤلف . وكنت أستطيع ألا أحدثك عنهما ، وأن أحدثك عن الكتاب نفسه ، ولكنى مع ذلك حدثتك عن الرجلين ، فيجب أن تقرأ هذا الحديث وتقبلنى على علاتى . وماذا تريد أن أقول لك عن كتاب « الأخلاق » ؟ يجب أن نلاحظ قبل كل شىء أنى لست بإزاء كتاب واحد ، وإنما أنا بإزاء كتب ثلاثة . نعم ! كتب ثلاثة : كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس ، وكتاب آخر هو مقدمة المترجم الفرنسى لهذا الكتاب . وأقول إن هذه المقدمة كتاب لأنه من اليسير جدًّا أن تطبع مستقلة فإذاً هى كتاب قيم فى تاريخ علم الأخلاق والمذاهب الخلقية منذ سقراط إلى القرن التاسع عشر ، وهى تقع فى ١٦٦ ص من القطع الكبير . ورسالة للأستاذ لطفى السيد سماها « تصديراً » تناول فيها حياة أرسطاطاليس وكتب أرسطاطاليس ونفوذ فلسفة أرسطاطاليس فى

القرون . وأقول إنها رسالة، وكنت أود أن تكون كتاباً ، فهى تقع فى ٥٦ ص من القطع الكبير . وكنت أود أن يتضاعف عدد هذه الصفحات ، لأنك تجد حقاً فى قراءتها لذة ونفعاً لا تكاد تعدلهما لذة ولا نفع .

فأنت ترى أنى بإزاء كتب ثلاثة، وهذه الكتب الثلاثة فى مجلدين ضخمين ، يبلغ أولهما ٣٢٦ ص ويبلغ الثانى ٣٧٦ ص من القطع الكبير ،دون أن أحتسب تصدير المترجم . فكيف تريد أن أحدثك عن هذه المجموعة الضخمة ! ولا سيما إذا كان موضوعها : أرسطاطاليس وفلسفته ومذاهبه الخلقية وتاريخ علم الأخلاق ! وأين أجد المكان فى « السياسة » لأحدثك عن هذا كله كما أحب وكما تحب أنت أيضاً ! ولم أحدثك عن هذا الكتاب؟ وهل تظن أنى أكتب هذه الأحاديث لتستغنى بها عن قراءة الكتّاب والشعراء الذين أتخذهم لها موضوعاً ؟ كلا ! إنما أكتب هذه الأحاديث لأشوقك إلى أن تقرأ هؤلاء الكتاب والشعراء . ولست أعرف شيئاً أدعى إلى عناية الأساتذة وإلى عناية الطلاب وإلى عناية المستنيرين عامة ، من كتاب « الأخلاق » لأرسطاطاليس . وأنا ذاكر لك عنوانات الكتب العشرة التى يتألف منها كتاب « الأخلاق » :

الكتاب الأول : نظرية الخير والسعادة وفيه أحد عشر باباً .
الكتاب الثانى : نظرية الفضيلة وفيه تسعة أبواب .
الكتاب الثالث: بقية نظرية الفضيلة وفيه ثلاثة عشر باباً .
الكتاب الرابع : تحليل الفضائل المختلفة وفيه تسعة أبواب .
الكتاب الخامس: نظرية العدل وفيه أحد عشر باباً .
الكتاب السادس: نظرية الفضائل العقلية وفيه أحد عشر باباً .
الكتاب السابع : نظرية عدم الاعتدال واللذة وفيه ثلاثة عشر باباً
الكتاب الثامن : نظرية الصداقة وفيه أربعة عشر باباً .
الكتاب التاسع : تابع نظرية الصداقة وفيه اثنا عشر باباً.
الكتاب العاشر : فى اللذة وفى السعادة الحقة وفيه عشرة أبواب .

عدد الصحف وعدد الكتب وعدد الأبواب ، كل ذلك يدلك على أننا بإزاء عمل ضخم إذا احتاجت قراءته المتقنة إلى أشهر فقد احتاجت ترجمته إلى أعوام ، وإذا احتاج درسه وتفهمه إلى جهد فقد احتاج نقله وتحقيقه إلى عناء شديد. نعم ! نحن بإزاء عمل ضخم يستطيع صاحبه أن يقول مفاخراً إن كان يحب الفخر

أو مطمئناً إلى نفسه إن كان يريد أن يرضى ضميره: إنه لم يضع وقته ولم ينفق حياته فى عبث ولا فى لهو .

وبعد فلست أعرض لنقد الكتاب نقداً مفصلا ؛ لأن « السياسة » لا تصلح مكاناً لنقد أرسطاطيس ولا لمناقشة آرائه الفلسفية ، وإنما المدارس العليا وحدها هى التى تصلح لهذا النقد . ومع ذلك فقد كنت أريد أن آخذ الأستاذ المترجم بشيئين : الأول أنه نقل الكتاب عن ترجمة فرنسية ، وكنت أود لو نقل عن أصله اليونانى ولكن الأستاذ نفسه يجيب فى التصدير بأنه كان يود ذلك أيضاً ، ولكنه لم يدرس اليونانية ، وقد فعل ما استطاع أن يفعل ، وبذل ما استطاع أن يبذل من الجهد لتحرى الصواب فى ترجمته العربية ، فلم يقتصر على ترجمة فرنسية واحدة بل اعتمد على غير ترجمة . وإذا كان المترجم نفسه يبدأ تصديره بهذا الاعتذار الذى يمثل ما قدمت فى أول هذا الحديث من ذوقه وتواضعه فقد لا يكون من الذوق ولا من التواضع أن نأخذه بما يأخذ نفسه به .

الثانى أن ترجمته العربية كالأصل اليونانى لا تخلو من صعوبة ، ولا يستطيع القارئ أن يمضى فيها مضياً سهلا ، وإنما هو محتاج إلى شىء من الأناة والتدبر ليفهم . ومصدر هذا هو أن الأستاذ أراد أن يكون أميناً فى النقل فبالغ فى هذه الأمانة ، وترجم الكتاب ترجمة توشك أن تكون حرفية. وفى هذا النحو من الترجمة مزيتان : الأولى الأمانة التى حرص عليها المترجم بحق والتى ينبغى أن نشكر له حرصه عليها . والثانية أقولها ممازحاً للأستاذ وهى براءته من التبعة ؛ فهو مترجم قد نقل الأصل الفرنسى نقلا يوشك أن يكون فتوغرافياً . فإذا كان هناك شىء يمكن أن يلاحظ على الكتاب فلا تأخذ به المترجم العربى بل خذ به المترجم الفرنسى . أما المترجم العربى فزعيم لك بأن ترجمته عن الفرنسية صحيحة لا تقبل نقداً ولا طعناً . وأنا أيضاً زعيم بصحة هذه الترجمة عن الفرنسية ، وأكاد أثق بأن الترجمة عن اليونانية دقيقة أيضاً وإن كان بعض الذين يدرسون فلسفة أرسطاطاليس لا يطمئنون الاطمئنان كله إلى « برتلمى سانت هيلار » . على أنى قدمت لك أن الأستاذ لم يعتمد على هذا المترجم وحده ، وإنما اعتمد على تراجم أخرى ، فقارن وتحرى الصواب ما استطاع . ومهما يكن من شىء فإن هذه الترجمة العربية الجديدة لكتاب أرسطاطاليس أصح وأدق من أكثر التراجم العربية القديمة التى نقلت أيام العباسيين لا عن اليونانية مباشرة بل عن السريانية التى اشتملت

على أغلاط فألوان من المسخ والتحريف ، ولو رآها أرسطاطاليس لاضطرب لها اضطراباً عنيفاً . أنا زعيم بأن هذه الترجمة العربية الجديدة إن لم ترض علماء اللغة اليونانية من كل وجه فهى مرضية علماء الأخلاق وطلاب الفلسفة كل الرضا.
لقد كانت فلسفة أرسطاطاليس أساس النهضة العربية الأولى ، وأساس النهضة الأوربية فى العصر الحديث ، ويجب أن تكون أساس النهضة العلمية فى مصر الحديثة . ولو أن لى أن أقترح لرفعت هذا الاقتراح إلى رجلين : أحدهما وزير المعارف ، والآخر شيخ الجامع الأزهر ، وهو أن يكون كتاب « الأخلاق لأرسطاطاليس » موضوع درس مفصل دقيق فى الأزهر الشريف والمدارس العليا غير الفنية ، فهل يسمع لهذا الاقتراح ؟

١ – رد على كتاب

٢ – مهذب الأغانى للأستاذ محمد الخضرى

٣ – تهذيب الكامل للأستاذ السباعى بيومى

٤ – مدامع العشاق للدكتور زكى مبارك

يصح أن نقف بين موضوعين وقفة للراحة ينتفع بها القارئ كما ينتفع بها الكاتب أيضاً ؛ فقد فرغنا من الغزلين أو من أئمتهم ، وقد ننتقل منهم إلى غيرهم ولكن بعد أن نستريح وتستريح من هذا البحث الشاق الذى يعنى قارئه وكاتبه معاً . وربما كان من الخير أن ندع العصور القديمة من حين إلى حين ، لننظر فى هذا العصر الذى نعيش فيه ؛ فإن لهذا العصر حياة أدبية وعقلية مهما تكن ضئيلة فاترة فهى خليقة بالعناية ، حرية بأن نقف عندها وقفات مهما تقصر فلن تخلو من فائدة. على أنى أريد قبل كل شىء أن أشكر لهذا الكاتب الأديب – الذى ضنّ علىّ باسمه ولقب نفسه جندياً مجهولا من جنود الأدب– كتابه القيم الذى نشرته له «السياسة» صباح الاثنين ، وأن أعلن إليه وإلى الذين كتبوا إلىّ يطلبون أن تجمع أحاديث الأربعاء فى كتاب أن هذا الكتاب يطبع الآن ، وأنه سيذاع بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع .

١ – أما بعد فإن الجندى المجهول من جنود الأدب يريد أن يناقشنى فيما أشرت إليه من وجوه الشبه القوية بين شاعرنا العربى الغزل عمر بن أبى ربيعة ، والكاتب الفرنسى المعروف بيير لوتى . وربما كان محقاً فى بعض ما كتب ؛ لأنى لم أوف هذه المقارنة حقها ، بل قلت إنى أشير إليها إشارة موجزة ، وأطلب إلى الأدباء أن يفرغوا لدرسها درساً مفصلا . فمن المعقول إذاً ألا يكون رأيى فى المقارنة بين الرجلين واضحاً كل الوضوح . وأنا أريد أن أبين « للجندى المجهول من جنود الأدب » أن ليس بينى وبينه خلاف فى جوهر هذه القضية ؛ فهو يرى أن الكاتب الفرنسى كان سيئ الخلق والسيرة ، وهو يشير إلى ذلك إشارة كنت أود لو كانت أشد خفاء مما ورد فى كتابه . ولست أعرف إلى أى حد ينبغى أن

نقبل ما يقال عن بيير لوتى وغيره من الكتاب والشعراء وما يوصفون به من سوء الخلق والسيرة ؛ لا لأنى أبرئهم من السوء أو أعصمهم من الزلل ؛ فما كان شىء من ذلك ليخطر لى ، بل لأن هؤلاء الكتاب والشعراء معرّضون لألوان من الحسد وضروب من سوء القالة يكثر فيها الإسراف عادة . ولست أشك فى أن حياة بيير لوتى لم تخلُ من عبث وفساد ، وربما كان هذا العبث كثيراً ، وربما كان هذا الفساد شديداً ، ولكنهما من غير شك أقل مما يذيع خصوم هذا الكاتب . وكل الكتاب والشعراء الذين اتخذوا الحب لهم فنّاً — ولا سيما هذا النوع من الحب الحسى — كان لهم حظ قليل من سوء السمعة وقبح الصوت . ولعل « الجندى المجهول من جنود الأدب » يعلم أن زعيمة هذا الفن من الشعر الغزلى عند اليونان ، وهى « سافو » التى عاشت فى القرن التاسع قبل المسيح ، قد اتهمت أشنع التهم فى غير حق ولا إنصاف ، واتُّخذت مثلا للمرأة الهلوك على اختلاف العصور والأجيال ، مع أنها كانت فى حقيقة الأمر أقرب إلى القصد والاعتدال فى سيرتها منها إلى شىء آخر ، وكنت أظن أن « الجندى المجهول من جنود الأدب » يقدر هذه الإشارة الخفية التى ذكرت فيها أمر عمر بن أبى ربيعة مع محمد بن عروة ابن الزبير ومع غيره من الفتيان الحسان ، وإذا لم يكن بدٌّ من التصريح فأنا ألفت الكاتب الأديب إلى أحد الغزلين الذى تناولتهم بالبحث وهو الأحوص بن محمد ؛ فقد كان يقال عنه بالضبط — إذا صح هذا التعبير — ما يقوله الكاتب الأديب عن بيير لوتى ، وكانت تضاف إليه هذه الجملة المشهورة المنكرة التى لا أستطيع روايتها فى هذا الحديث والتى زعم خصومه أنهم ضربوه ونفوه من أجلها . ذلك لأن هؤلاء الشعراء الذين يتغنون الحب الحسى معرّضون بحكم فنهم نفسه إلى أن يتورطوا فى الإثم من جهة وإلى أن تشيع عنهم الفاحشة من جهة أخرى . فليس « بيير لوتى » بدعاً من الغزلين إذاً ؛ فقد تورط فيما تورطوا فيه ، ووُصف بما وصفوا به . وقد أشرت فى الحديث الماضى إلى أن المقارنة بين الشاعر العربى والكاتب الفرنسى يجب أن تلاحظ فيها الفروق بين العصرين والجنسين والبيئتين . ولئن كانت حياة البحر قد أفسدت من حياة بيير لوتى وسيرته ، فليس من شك فى أن هذه الحياة الفارغة التى كان يحياها شباب الحجاز والتى فصلّتها غير مرة ، قد أفسدت من أخلاق ابن أبى ربيعة وغيره من هذا الشباب .

ويرى الكاتب أن « بيير لوتى » قد أسرف فى الكذب ، وضلل الغربيين فى أمر

المسلمين . فهل يعتقد الكاتب أن ابن أبى ربيعة لم يكذب فى قصصه الغرامية ولم يضلل المحدثين والقدماء فى أمر نساء قريش ؟ ! وهل يظن الكاتب أن عمر قد فعل كل ما قاله ؟ وإذاً فقد كانت جماعة المكيين والمدنيين أقبح الجماعات وأشدها إغراقاً فى الفساد . أو هل يظن أن ابن أبى ربيعة لم يفعل مما قال شيئاً ، وإذاً فقد كان أكذب الناس ، وكان الذين يُعْجبون به مغفَّلين أو شرًّا من المغفلين .

وابن أبى ربيعة نفسه ينبئنا مرة بأنه فعل كل ما قاله ويستغفر الله ، وينبئنا مرة أخرى بأنه لم يفعل مما قال شيئاً . والحق أنه فعل بعض ما قال ، وقال كثيراً مما لم يفعل . وما زلت ألح على الأدباء فى أن ينعموا النظر فى ديوان ابن أبى ربيعة وقصص بيير لوتى ، فسينتهون إلى ما انتهيت إليه من قوة الشبه بين هذين الرجلين ، ولا سيما من الوجهة الفنية الخالصة . وقد وعدت وما زلت أعد ببحث مفصل عن حب بيير لوتى ، ولكنى أنتظر إلى بقية المذكرات الخاصة التى تنشر الآن فى باريس ، وسيرى الكاتب الأديب أن طبيعة حب بيير لوتى هى طبيعة حب عمر ، وأن منهج بيير لوتى فى الاستمتاع بهذا الحب هو منهج ابن أبى ربيعة، وأن أسلوب بيير لوتى فى وصف هذا الحب وإعلانه هو أسلوب عمر. وأريد أن يلتفت الكاتب الأديب وغيره إلى أن عمر قد نسك بعد لهو، وإلى أن بيير لوتى حاول النسك غير مرة . وأريد أن يلتفت أيضاً إلى أن هناك شبهاً قويًّا بين الصلة التى كانت تصل بيير لوتى بصديقه « بلومكت » وتلك التى كانت تصل بين عمر وابن أبى عتيق ، وهى صلة مشهورة أدبية وتعزية غرامية قبل كل شىء . ولأدع الآن عمر وبيير لوتى لأنتقل إلى شىء آخر .

* * *

٢ — أنا أريد أن أقدّم إلى أستاذنا الجليل محمد الخضرى بك ثناء طيباً وشكراً جميلا ، بعد أن نظرت نظرة قصيرة جدًّا فى الجزء الأول من كتابه الجديد : « مهذب الأغانى » .

ولو لم يكن للأستاذ إلا أنه قد عكف على هذا العمل خمسة عشر عاماً حتى أتمه فى غير تمدح به ولا إعلان له لكان خليقاً بأطيب الثناء وأجمل الشكر . فالذين يعملون ولا يقولون فى هذا البلد وفى هذا العصر خاصة قليلون ، وأقل منهم هؤلاء الذين يبتدئون العمل الطويل الشاق فلا تصرفهم عنه مشقته ولا طوله ، ولا تلهيهم عنه أحداث الزمان وعواصف الحياة حتى يتموه . وأقل من هؤلاء وأولئك قوم

يُقدمون على العمل الطويل الشاق فينفقون فيه ما ينفقون من قوة ومال وهم يعلمون أنهم لن يستردوا مما أنفقوا إلا شيئاً قليلا ، وربما لم يستردوا منه شيئاً ، وهم مع ذلك يعملون ، وربما شجّعهم هذا اليأس على العمل ؛ وكثيراً ما تكون التضحية لذيذة . فالأستاذ الخضرى خليق بالشكر والثناء لهذا كله .

أما العمل نفسه فسأكون حرًّا فى الحكم له أو الحكم عليه ، وسأصطنع هذه الحرية وإن كانت للأستاذ علىّ حقوق تجعل من العسير أن أناله بالنقد ، ولكنى مع ذلك سأكون حرًّا . ولم لا أكون حرًّا وقد كتب إلى الأستاذ نفسه يطلب إلىّ أن أكون حرًّا !! فلأشكر له مرة أخرى حريته وحسن رأيه فى النقد ، ولأقل إنى أحمد عمله وأعيبه : أحمده لأن فيه نفعاً لا يكاد يحصى لعامة المستنيرين وجمهور الطلبة الذين لا يستطيعون أن يقرءوا « كتاب الأغانى » كما هو ، والذين يجب مع ذلك أن يدرسوا الأدب العربى ويلموا بحياته . أقول إنهم لا يستطيعون أن يقرءوا « الأغانى » ، وأقول ذلك بعد تجربة وبلاء . فأنا أعيش مع الأغانى منذ حين ، ولست أخفى على القارئ أن كتاب الأغانى كثيراً ما يغيظنى ، وذلك حين أشعر أن « السياسة » عجلة تريد « حديث الأربعاء » ، وأن الوقت قصير ، وأن أسانيد الكتاب لا تنتهى ، وأنى مضطر إلى أن أقرأ ما فيه من تكرار ، وأصلح ما فى نسخته المطبوعة من خطأ ، وأرجع إلى المصادر والأصول . وإذا كان كتاب الأغانى يغيظنى أحياناً فهو يغيظ كاتبى فى كل وقت وأنا أتخذ هذا مقياساً لهؤلاء الطلاب الذين يجب أن يعرفوا الأدب العربى ويعسر عليهم أن يلتمسوه فى كتاب الأغانى . وإذاً فليس من شك فى أن الأستاذ الخضرى قد أحسن إلى هؤلاء الطلاب إحساناً لن يقدروه حق قدره مهما يكن حرصهم شديداً على الوفاء ، ولكنى أعترف بأنى لن أنتفع كثيراً بكتاب الأستاذ الخضرى ؛ فقد يغيظنى كتاب الأغانى وقد يغيظ كاتبى ، ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن أنصرف عنه إلى كتاب مختصر مهما تكن قيمته ومهما يكن حظه من الإتقان ، ومهما يكن صاحبه ؛ لأن الباحثين حقًّا لا يستطيعون أن ينصرفوا عن الأصول . وإذاً فكتاب الأستاذ الخضرى نافع كل النفع للذين لا يريدون أن يتخذوا الأدب موضوعاً لبحث علمى دقيق .

ولى بعد هذا كله على الأستاذ ملاحظات . فقد كنت أحب قبل أن يبدأ هذا العمل أن يبحث لعله قد سُبق إليه ، ولعل من سبقه قد أحسن اختصار الأغانى . وإذاً فالخير إنما هو فى نشر هذا المختصر القديم لا فى إعادة هذا الجهد .

ويخيل إلىّ أن ابن المكرّم صاحب لسان العرب قد اختصر كتاب الأغانى ، وأن نسخة من مختصره موجودة بمكتبة الأزهر الشريف ، وأن تنقيح هذا المختصر على الوجه الذى أراده الأستاذ ونشره كان أيسر وأنفع من هذا الجهد الطويل الشاق الذى تكلفه الأستاذ . ويخيل إلىّ أن المختصر جيد ومتقن سهل التناول ، وقد قرأت منه قطعة عن أبى نواس مخطوطة بدار الكتب تذاع على الناس فى هذه الأيام . ولهذا قلت إن هذا المختصر فى حاجة إلى التنقيح لأن فيه ما لا يلائم الذوق الحديث . ويظهر أن ملاءمة الذوق الحديث قد أصبحت شرطاً لنشر الكتب القديمة فى هذه الأيام التى نعيش فيها ، والتى هى أيام تكلف وابتداع . ألست تعلم أن دار الكتب المصرية قد تكلفت ضروباً من الجهد للتوفيق بين الكتب القديمة التى تنشرها وبين الذوق الحديث ، فهى تنشر من هذه الكتب نسختين : نسخة مطهرة تلائم الذوق الحديث ، ونسخة دنسة تلائم أذواق العلماء . ولهذا يجب إذا أردت أن تشترى أحد هذه الكتب أن تقول إنك من أنصار النّسخ المطهرة أو النسخ الدنسة. ولست أدرى كيف تستطيع دار الكتب أن تفرق بين العالم وغير العالم فى توزيع نسخها المطهرة ونسخها الدنسة . وأجمل من هذا كله أسلوب الأستاذ زكى باشا فى التوفيق بين الكتب القديمة والذوق الحديث ؛ فهو يكره الحذف والتطهير ، ويؤثر عليهما التحريف والتغيير ، بحيث يجب عليك أن تكون ماهراً فى حل الألغاز لتفهم الكتب التى ينشرها زكى باشا على وجهها . ومن يدرى ! فسيكلفنا إرضاء الذوق الحديث أشياء كثيرة ترضاها أساليب البحث العلمى أو تمقتها . فالبحث العلمى شىء لا قيمة له أمام الذوق الحديث ؛ لأن الذوق الحديث شىء يحرص عليه الرأى العام ، والرأى العام هو صاحب الأمر والنهى فى هذه الأيام ، لا فى المسائل السياسية وحدها ، بل فى العلم أيضاً . وماذا تريد ؟ ألم تبلغ الديمقراطية عندنا من الرقى أقصاه ! !

ليس الغريب فى هذا أن يريد الرأى العام أن تكون الكتب التى تذاع بين الشباب نقية مطهرة ، فذلك من حق الرأى العام ، ومن حق الشباب علينا ألا نذيع فيه ما يفسد ذوقه أو سيرته . وإنما الغريب أن يضطرنا هذا إلى مسخ الكتب وتشويهها والإساءة إلى المتقدمين فيما كتبوا . فقد كان المتقدمون يكرهون أن تختصر كتبهم أو تغيّر ، كما كان أهل العصور الأولى يكرهون أن تنبش قبورهم .

ولست أنسى نقشاً فينيقيّاً استكشفه وأذاعه « رينان » وفيه لعن منكر لمن ينبش

هذا القبر أو يغير شيئاً فيه . ولست أنسى خطبة ياقوت الحموى لكتابه الجغرافى المشهور ، فهو يحظر على الناس اختصار كتابه ، ويستنزل ألوان السخط وضروب الآفات على من ينالون كتابه بالاختصار . وهو يقلد الجاحظ فى هذا . ولعل صاحب الأغانى كان كغيره من القدماء يكره أن يشوه كتابه بالاختصار . ولكن ابن المكرم قد اختصره ، فما الذى يمنع الأستاذ الخضرى من أن يختصره مرة أخرى ؟

هنا نصل إلى المسألة الأساسية وهى : ما الذى يجبب إلى العلماء المحدثين أن يختصروا كتب العلماء المتقدمين ؟ الجواب سهل ، وهو أن هذه الكتب القديمة مخالفة فى وضعها وترتيبها للذوق الحديث ، لا من حيث إنها تشتمل على أشياء تنكرها آدابنا العامة فحسب ، بل من حيث إن طريقة التأليف نفسها تخالف نظامنا العقلى الجديد ، وإذاً فنحن بين اثنتين : إحداهما سهلة ، وهى أن نمسخ الكتب القديمة لتلائم عقولنا . والأخرى عسيرة ، وهى أن نأخذ عقولنا بمناهج البحث العلمى لتلائم الكتب القديمة . وهذا عسير ، وغير ميسور للناس جميعاً ، ومن الخير ألا يتورط فيه الناس جميعاً . فماذا تكون الحال لو أن الناس جميعاً هيئوا عقولهم لملاءمة الكتب القديمة كما فعل الأستاذ الخضرى وزكى باشا وطه حسين ؟ ! الأمر إذاً عسير ، فلا بد من اصطناع الخصلة الأولى ، أى لا بد من مسخ كتب القدماء رضى القدماء أو لم يرضوا . غير أنى كنت أظن أن هناك خصلة ثالثة ترضى القدماء والمحدثين معاً ؛ لأنها تعصم كتب القدماء من المسخ والاختصار ، وتتيح للمحدثين ما يحتاجون إليه من علم ، وهى طريقة التأليف . ذلك لأن قدماء اليونان والرومان قد تركوا كتباً قيمة جداً باليونانية واللاتينية ، وهى لا تلائم الذوق الحديث فى أوربا ، وكذلك ترك قدماء الفرنسيين والإنجليز والألمان كتباً لا تلائم المحدثين من أبناء هذه الشعوب . ومع هذا فلسنا نرى أهل أوربا الحديثة يضيعون وقتهم وجهودهم فى اختصار هذه الكتب ومسخها لتلائم الذوق الحديث والعقل الحديث ، وإنما نراهم يتركون هذه الكتب كما هى ، ويضعون للمحدثين كتباً عادية تلائم ميولهم وعقولهم وأذواقهم . وماذا تكون الحال لو أن الأوربيين انصرفوا إلى اختصار « توسيديد » و « هيرودت » و « أفلاطون » و « أرسطاطاليس » و « تاسيت » و « تيت ليف » ؟ !

تريد أن يلم المحدثون بما ترك هؤلاء القدماء ؟ فضع لهم كتباً فى التاريخ القديم والفلسفة القديمة والأدب القديم تلائم ميولهم وعقولهم ، وترجم لهم هذه الكتب القديمة .

فمن كان منهم مهيأ لفهم القدماء قرأ هذه الكتب المترجمة، ومن لم يكن مهيأ لفهمها قرأ هذه الكتب المؤلفة . وهل تظن أن الأستاذ الخضرى كان عاجزاً عن وضع كتاب فى الأدب يتيح للمحدثين فهم ما يحتاجون إليه من أطوار الأدب العربى دون أن يرجعوا إلى كتاب الأغانى فيتكلفوا المشقة دون أن يختصر هو كتاب الأغانى فيتكلف الجهد فى شىء مهما يكن قيماً فشخصيته فيه ضئيلة ضعيفة ؟ أما أنا فأعتقد أنه كان يستطيع أن ينفق هذه الأعوام الطوال فى وضع كتاب مفيد تظهر فيه شخصيته، ويكون أشد ملاءمة للعصر الحديث من هذا المختصر الذى ليس هو بالقديم الخالص ولا بالجديد الخالص ، وليس هو لأبى الفرج ولا هو للأستاذ الخضرى ، وإنما هو شىء بَينَ بينَ وحظ شائع بين رجلين . لست أستطيع إلا أن أثنى على هذا الجهد القيم الذى بذله الأستاذ فى إصلاح الخطأ وإكمال الرواية وما إلى ذلك . ولكنى أعتقد أنه كان يستطيع أن يصلح خطأ الأغانى ويكمل روايات الأغانى فى كتاب علمى قيم مستقل ، يعتبر خدمة لكتاب الأغانى ، كما يقول الأزهريون .

وإذا كنت لا أستطيع أن أضن بالثناء على الأستاذ من هذه الناحية ، فأنا لا أستطيع أن أخفى عليه وجهاً من وجوه النقد ، وهو أنه قد حذف المكرر وألغى أشياء رأى أنها لا تفيد . وقد أفهم حذف المكرر ، ولكنى لا أفهم إلغاء ما يعتقد الأستاذ أنه لا يفيد . فقد تحكم أنت بأن هذا الشىء لا يفيد ، وأحكم أنا بأنه قيم نافع . ولك أن تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء إذا كنت مؤلفاً ، فشخصيتك ظاهرة فى كتابك ، وهى تستطيع أن تحتمل تبعة هذا الكتاب ، ولكنك لا تملك هذا فى مختصر لأن شخصيتك ليست ظاهرة ؛ لأنها تتوارى خلف شخصية المؤلف ، ولأن القارئ يضطرب بينكما فلايدرى على أيكما يلقى التبعة . فأنت ترى أنى قد تناولت عمل الأستاذ الخضرى مع ما أنا أهل له من حرية النقد ، ولكنى مع هذا كله أثنى على هذا العمل ثناء طيباً ، وآسف لهذا الجهد أسفاً شديداً .

٣ — كل هذه الأشياء التى قدمتها وأشياء أخرى لم أذكرها ولم أشر إليها تجنباً للإطالة منعتنى فى الصيف الماضى من أن أعرض لكتاب يشبه كتاب الأستاذ الشيخ الخضرى فى موضوعه وغايته وأسلوبه ، وهو كتاب « تهذيب الكامل » للأستاذ السباعى بيومى . أظنك تعفينى من أن أتناول كتاب كامل المبرد بالشرح

أو التعريف ؛ فليس هذا الكتاب أقل شهرة ولا نفعاً من كتاب الأغانى . وقد رأى الأستاذ السباعى بيومى ، كما رأى الأستاذ الخضرى ، أن هذا الكتاب مضطرب فى ترتيبه مخالف لنظامنا العقلى ، فمسخة ليلائم عقلنا الجديد ، كما فعل الأستاذ الخضرى بكتاب الأغانى . ويجب أن نكون منصفين ؛ فالأستاذ السباعى بيومى لم يتناول كتاب الكامل بالحذف والبتر كما فعل الأستاذ الخضرى بكتاب الأغانى وإنما رتب الكتاب ترتيباً جديداً ، فجمع الأشياء إلى نظائرها ، ثم ظهر له أن هناك أشياء لا يمكن أن ينالها الترتيب لأن المؤلف أراد أن تكون كذلك . مثال هذا : باب وضعه المبرد وعنوانه بهذا العنوان : « باب نذكر فيه من كل شىء شيئاً » . فلم يستطع إلا أن يجمع كل هذه الأشياء التى لا تقبل الترتيب فى قسم واحد سماه ذيلا . ولكن أبا العباس المبرد لم يضع هذه الأبواب لتكون ذيلا لكتابه . فبأى حق تستبيح لنفسك يا سيدى الأستاذ أن تُفسد على الرجل نظام كتابه ؟ إنى لأسمع الجواب وهو جواب معروف ، فما أراد الأستاذ المهذب إلاّ أن يكون كتاب الكامل للمبرد ملائماً للذوق الحديث . ويلٌ للقدماء وعلم القدماء وكتب القدماء منا ومن ذوقنا الحديث ؛ بل ويل للمحدثين من هذه الجهود الضائعة التى لو أنفقت فى التأليف لأفادت ونفعت أكثر من نفعها وفائدتها حين تُنفقُ فى المسخ والتشويه . أنا مضطر إلى أن أثنى على هذه الجهود ، ومضطر إلى أن آسف عليها أيضاً .

* * *

٤ — هناك جهد آخر لم يضع ، ولكنه شديد الخطر أسمح لنفسى بإنكاره بعض الإنكار ، وهو هذا الجهد الذى أنفقه الدكتور زكى مبارك فى فصول جمعها فى كتاب وسمّاها « مدامع العشاق » . عنوانها يدل على موضوعها ، ولكنى لا أدرى أيدل على غايتها أيضاً ؟ فليس من شك فى أن لهذه الفصول قيمة أدبية لا تخلو من خطر . ولكنى لا أشك مع الأسف فى أن كاتبها لم يستطع أن ينسى نفسه وأهواءها فى هذه الفصول . فليست غايته فيما يظهر علمية خالصة ولا أدبية خالصة ، وإنما تملّق الكاتب عواطفه وعواطف قرائه وأسرف فى هذا التملق ، فخرجت فصوله على أن تكون مباحث علم وأدب ، وأصبحت مباحث استثارة للعواطف وتحريض للأهواء . ولذلك وجهه فى الحياة الأدبية ؛ فلكل كاتب أن يعلن عواطفه وأهواءه ، وأن يدافع عنهما كما يجب ، ولكن لذلك طوراً لا ينبغى أن يعدوه الكاتب . وأظن

أن الدكتور زكي مبارك يعرف هذا الطور ولا يحتاج إلى أن ألفته إليه . وأنا ألاحظ أن فكرتين اثنتين تعبثان بالحياة الأدبية لهذا الكاتب وتفسدان عليه جهوده ، أو قل فكرة واحدة ذات وجهين : فهو يريد أن يكون حرًّا فى الدين ، وحرًّا فى الأدب . وقد لامه قوم فى حريته هذه ، فخيل إليه أنه مضطهد يتبعه رجال الدين بإنكارهم إذا عرض للدين ، ويتبعه رجال الأخلاق بإنكارهم إذا عرض للآداب . وكأن الخصومة قد اشتدت بينه وبين مضطهديه ، فهو يتكلف غيظهم وإحراجهم . ولكن الغيظ والإحراج قد يكونان من أسباب الشهرة أحياناً ، ولن يكونا من مناهج العلم فى يوم من الأيام . وأظن أن صديقنا الأستاذ منصور قد نصح لتلميذه الدكتور زكي مبارك بالقصد والاعتدال ، فلأنصح له بهما أيضاً . وليس يمنعني هذا التحفظ من أن أقدر كتابه وأثنى عليه .

١ – عود إلى « مهذب الأغانى » للأستاذ محمد الخضرى

٢ – « بلاغة العرب فى الأندلس » للأستاذ الدكتور أحمد ضيف

أرسل إلىّ الأستاذ الخضرى هذا الكتاب . وما أحسب أنه أراد أن يكون هذا الكتاب وقفاً علىّ ، وإنما أراد أن يقرأ الناس رأيه فيما وجهت إليه من نقد ، ودفاعه عما بذل فى تهذيب الأغانى من جهد . وأنا سعيد بأن أذيع فى الناس هذا الكتاب القيم ، وأبدأ به هذه الصحيفة . قال الأستاذ :

« إلى الدكتور طه حسين من محمد الخضرى . السلام عليك ورحمة الله . وبعد ، فقد قرأت نقدك لما اتجهت إليه الهمة من "مهذب الأغانى" . وإنى شاكر لك كلماتك التى صدّرت بها نقدك ، فأنت أبر الأبناء وأفضلهم .

وإذا سرنى أن تكون لك الحرية فيما تنقد به كتابى ، فأظنك لا تبخل علىّ بقسط منها حتى أساجلك الحديث دفاعاً عن نفسى . وعهدى بك والحقّ غايتك .

عبت علىّ أن بذلت تلك السنين الطوال فى تهذيب كتاب أحق الناس به صاحبه ، وتمنيت أن لو بذل هذا المجهود فى كتاب جديد فى الأدب العربى رأيتنى قادراً على القيام به . وإنى لمجيبك عما حدا بى إلى خلافك .

إن ما ضمنه أبو الفرج رحمه الله كتابه "الأغانى" ثروة الأدب العربى ، لمؤلفه فضل جمعها ، ونقلها بأسانيدها عن فحول الكتاب وحفاظ الرواة ، فيها الشعر الرائع والنثر الفاخر ، وكلاهما لسالف أبى الفرج من الشعراء المجيدين والكتّاب البارعين وإنى أصارحك الحديث وأنت جدّ عليم بأن أبا الفرج ومن شئت أن تسمى من كتّاب العرب عاجزون عن أبدع ما تضمنه كتاب الأغانى . صارت هذه الثروة إلى قومنا من أهل الجيل الحاضر يتأدبون بها وينتهجون طرق الكتابة بقراءتها .

نظرت فرأيت هذه الثروة قد ألمّ بها ما كاد يضيع الانتفاع منها ، ذخائرها مبددة الشمل ، وفرائدها قد وهى سلكها ، وتبرها قد أخفاه غبار التحريف ،

وأضله دخان التشويش . شعرت بهذا وأحس به من تحدثت إليه من المتأدبين وشعرتَ به أنت . فكان من الواجب أن نتقدم إلى الجمهور من قومنا بتنظيم هذه الثروة حتى يمكنهم أن يستفيدوا منها . لوكان الطراز الذى نريد أن نتقدم به إليهم من طراز ما تتحفهم به فى صحيفة الأدب من نقد الشعراء واستنباط الحقائق التاريخية ولذيذ الفكاهات ، لو كان الأمر كذلك لألقيت إليك بالمقاليد معترفاً بالعجز عن بلوغ مداك ، أما وغرضنا هو أن نسهل للمتأدبين الانتفاع بالثروة التى جمعها لنا أبو الفرج فلم يكن هناك بدٌّ من أن نحفظ له تلك اليد التى أسداها إلينا ، ونبقى اسمه خالداً وننتفع بتلك الثروة على أيسر الوجوه وأسهلها فماذا صنعت ؟

ألفيت الأدب العربى مبدد الشمل فرتبته ، وضعت كل درة بجانب أختها ، وكل إلف بجانب أليفه . فإذا أراد القارئ أن يقرأ ما تقرّ به نفسه من شعر عصر أو شعر قبيلة بعينها كان ذلك ميسوراً ، وهذه ضالة تنشدها أنت بما تتحف الجمهور به فى صحيفتك الأدبية .

وجدت تحريفاً كثيراً يُضل الشادى ويُتعب العالم ، وقد أحسست أنت بأثره فبذلت من الجهد ما الله به عليم فى إصلاح ذلك الفساد .

وجدت نقصاً فى فاخر الشعر وجيده كما يصفه أبو الفرج ، فأتممت ذلك النقص لما توقعت من جدوى ذلك على طلاب الآداب.

وجدت نقصاً فى ضبط الغريب وتفسيره ، فاحتملت عبء ذلك كله ، وأزلت عناء كان يشعر به أمثالى من قراء الأغانى . وقد تلقيت كتباً كثيرة تستزيد من هذا الضبط وهذا التفسير . وسأكون عند هذه الرغبة فيما أستقبل من الأجزاء إن شاء الله .

أما ما نقصته منه فلم يعد إحدى اثنتين ، إما فحش صدّ عن الأغانى وجوه كثير من أهل الأدب ، كانوا يشكون ذلك منه ومن أكثر كتب الأدب العربى ، وإنى معهم فى ذلك . وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن إسحاق ، إذا روى شعراً يقول : "تركنا هنا بيتاً أو بيتين وأكثر أقذع فيها" . فليس الامتعاض من الفحش والإقذاع مقصوراً على أهل جيلنا ، بل كان لنا فيه سلفٌ صالح نريد أن نستنّ بسنتهم . وإما أشياء قلت عنها لا تفيد أدباً ولا ترقى فكراً . لست يا سيدى من طغاة الأدب حتى توجه سهمك إلىّ ، وإنما أنا رجل خبرت الناس وعرفت ما يفيد وما لا يفيد ، فاستضأت بهذه الخبرة

فى حذف ما حذفت . ولعلك تكون لى لا علىّ متى حان وقت نقدك المفصّل بعد أن تقارن بين ما ضمنته "مهذّب الأغانى" لشاعر معين ، وبين ما تراه فى الأغانى . وإنى أؤكد لك من الآن أن المتروك من ذلك قليل لا تكاد فائدته تساوى قراءته .

أما ما ذكرت من كتاب ابن منظور ، فإنى قد اطلعت عليه ، ولم أره كفيلا بحاجة المتأدبين من قومى ؛ لأنه رتب الشعراء والمغنين فيه على حروف المعجم ، وهذا غير ما قصدت إليه من التأليف بين من جمعهم عصر واحد أو قبيلة واحدة . وعمله تغنى عنه الفهارس . على أنه لم يحمل العبء الذى حملته من الإصلاح والضبط والتفسير وحذف ما لا يجوز فى كتاب إثباته .

لعلك تتفضل بالتفصيل بعد الإجمال : وإذ ذاك أرجو أن ترى أن ما بذلته من المجهود قد وقع موقعه ، وأن تهذيب الأغانى كان يجب أن يظهر فى عالم الأدب منذ أزمان ليكون لكتاب الأغانى أثره فى نفس قرائه ، وليقتسم الفضل فيه أبو الفرج رحمه الله فإنه جمعه ، ومحمد الخضرى فإنه هذّبه .

وبعد ، فالسلام عليك من شيخ يحبك ، ويتمنى أن يعلو فى عالم الأدب صوتك » .

محمد الخضرى

* * *

نعم ! إذا كنت أحرص على أن تكون حرًّا فى النقد عامة وفى نقد أساتذتى خاصة ، فأنا شديد الحرص على أن يكون الناس أحراراً فى ردّ ما أوجهه إليهم من نقد ، وفى إظهار ما قد أتورط فيه من خطأ . وأنا لا أعترف لهم بهذه الحرية فحسب ، وإنما أقدم لهم عليها أجمل الشكر وأحسن الثناء ، وأتجاوز هذا إلى الاعتراف بالخطأ فى الرأى والجور فى الحكم إن دلونى على خطأ أو جور . وليعلم الكتاب والمؤلفون أن صناعة النقد فى نفسها ليست لذيذة ولا محببة إلى النفس ، وأن الناقد حقًّا لا يبتغى النقد للنقد ، وإنما هو يضطر إليه اضطراراً ، يضطره إليه حبه للحق وميله إلى الإصلاح ورغبته فى الخير . وليس محبباً إلى النفس أن يبحث الناقد عن سيئات الناس وأغلاطهم وما يعرض لهم من ضعف وما يصيبهم من زلل . ليس ذلك محبباً إلى النفس إلا أن يكون الإنسان شريراً بطبعه ، ميالا إلى الإساءة والأذى . وأرجو ألا أكون من هذا كله فى شىء . لهذا يسرنى أن

يدلني مؤلف أو كاتب على أنني أخطأت حين نقدته أو جُرْتُ حين حكمت عليه ، لأعدل عن هذا الخطأ وأصلح هذا الجور . وأنا أؤكد للكتاب والمؤلفين أني أشد سروراً بالعودة عن رأى خاطىء منى بإذاعة هذا الرأى قبل أن أعرف خطأه . ولقد كنت أريد حين وصل إلى كتاب الأستاذ الخضرى أن أجد فيه ما يحملنى على أن أغير من رأيى قليلا أو كثيراً ، فقرأت الكتاب وقرأته وتدبرت الكتاب وتدبرته دون أن أظفر بما كنت أريد . فالأستاذ والقراء يعلمون أني حمدت للأستاذ هذا الجهد ، وما زلت أحمده وأعلن أنه شاق عسير لا ينهض به إلا من أتيحت لهم قوة الإرادة والصبر على المكروه والاستعداد للتضحية بالوقت والراحة والمال . أعلن هذا كله ولا أغير رأيى فيه ، ولكنى مع ذلك أحتفظ برأيى كاملا فى تهذيب كتب القدماء واختصارها وتغيير نظامها ، وأعدّ هذا مسخاً وتشويهاً ، وأرى أنه مهما يكن نافعاً مفيداً فهو لا يخلو من الشر ولا يعفى صاحبه من اللوم . ذلك لأنى أرى أن لصاحب الكتاب حقاً مطلقاً فى أن يبقى كتابه كما وضعه دون أن يناله تغيير أو تبديل ؛ لأن كتاب الرجل جزء من نفسه ، وما كان لك مهما ترد من الخير أن تعبث بنفوس الناس .

تريد أن تقرب الأدب العريق إلى هذا الجيل ، وأن تبيح للناس الانتفاع بهذا الأدب فى غير مشقة ولا عناء ؟ ذلك لك . فخذ من كتاب الأغانى ما أحببت ، ورتبه كما تريد ، وأعرضه على الناس فى الصورة التى تهواها ولكن دع كتاب الأغانى كما وضعه صاحبه ؛ فهو لم يضعه لتأتى أنت فتغيره أو تبدّله . وَهبْ كتابك قد راج حتى استأثر بما كان للأغانى من شهرة فانصرف الناس عن الأغانى إلى مهذبه ، وضاعت نسخ الأغانى من بين أيديهم ، فليس من شك فى أن الصورة التى سيتخذونها من علم أبى الفرج ومذهبه فى التأليف لن تكون صحيحة ولا صادقة ، وأنت بذلك تسىء إلى أبى الفرج . ستقول إنك أردت أن تنفع الناس . ولكنك كنت تستطيع أن تنفعهم دون أن تسىء إلى هذا المؤلف المسكين . تريد أن تشاطر أبا الفرج مجده واستحقاقه للخلود ؛ ولم تقاسمه مجده ؟ ! ولم لا تبنى لنفسك مجداً مستقلا وأنت قادر على ذلك ؟ ! تريد أن تضمن الخلود لأبى الفرج ! معذرة يا سيدى الأستاذ ؛ فقد عاش كتاب أبى الفرج ألف سنة قبل أن يظهر كتابك ، وعاش رغم مختصر ابن منظور . وها نحن أولاء نرى كتاب أبى الفرج ذائعاً منشوراً ، ومختصر ابن منظور مقبوراً مجهولا . وأنا شديد الإشفاق على كتابك

أن يكون حظه كحظ مختصر ابن منظور ، وشديد الثقة بأن المهذبين والمختصرين مهما يلحوا على كتاب الأغانى بالتهذيب والاختصار ، فسيبقى هذا الكتاب كما تركه صاحبه وكما أراد أن يكون .

بقيت مسألة عظيمة الخطر جداً أريد أن ألفت إليها الأستاذ خاصة ورجال الأدب والتأليف عامة ، وهى أنهم يجدون فى كتب القدماء ألواناً من الضعف والنقص والاختلاط وسوء الترتيب ، فيخيل إليهم أنهم يحسنون إلى هؤلاء القدماء بإصلاح ما فى كتبهم من عيب ، وهذا حق ؛ فهم يحسنون إلى القدماء وإلى المحدثين أيضاً . ولكنهم يسيئون إلى القدماء حين يضطرهم هذا التهذيب والإصلاح إلى التغيير والتبديل وإلى المسخ والتشويه .

تريد أن تُصلح ما فى الأغانى من نقص وفساد ؟ ! ذلك لك . ولكن لا على النحو الذى سلكت ، وإنما على نحو آخر هو الذى سلكه العلماء الأوربيون وكثير من علمائنا نحن قبل هذا العصر ، وهو أن تضع كتاباً مستقلاً فيه إصلاح ما فى الأغانى من نقص وفساد ، ومن ضعف واضطراب . وما الذى كان يمنعك من أن تكمل نقص الأغانى وتضبط غريبه وتيسر على الناس البحث فيه بكتاب يؤلف من جزء أو جزءين على نحو ما فعل المستشرقون الأوربيون الذين وضعوا فهرس كتاب الأغانى ! فرقٌ عظيم بين من يريد أن يصلح كتاباً ليسهِّل على الناس الانتفاع به ، ومن يريد أن يغير كتاباً ليقاسم المؤلف حقه فى المجد والخلود .

ومسألة أخرى ، هى مسألة ما حذف الأستاذ من الكتاب . وأنا أعلم حق العلم أن من المتقدمين من كان يعدل عن رواية الفاحش من الشعر ، سواء أكان فحشه مؤذياً للعاطفة الدينية أو للأخلاق والآداب . أعرف أن ابن هشام عدل فى السيرة عن شعر فاحش ، وأعرف أن المبرد أبى أن يروى كل ما قال كعب بن جُعيْل فى علىّ . وأعرف أن أبا الفرج نفسه أبى أن يروى كثيراً من شعر السيد الحميرى لأن فيه سباً لأبى بكر وعمر . أعرف هذا كله ، وأعرف أن ابن قتيبة كان ينكر مثل هذا التحرج وهو يعيبه عيباً شديداً فى مقدمة كتابه المعروف : « عيون الأخبار » . أعرف إذاً أن القدماء كانوا فى هذا الأمر كما نحن الآن ، منهم من يتحرج من رواية الفحش ومنهم من لا يتحرج . أعرف هذا كله ، ولا أغير مع ذلك رأيى فى عمل الأستاذ تغييراً قليلاً ولا كثيراً ، لك

أن تتحرج من رواية الفحش أو لا تتحرج ، ولكن فى كتاب تضعه أنت لا فى كتاب يضعه غيرك .

تقول إنك لست من طغاة الأدب . وأنا أعتقد أنك لست من طغاة الأدب ، ولكنى أعتقد مع ذلك أن من الطغيان على أبى الفرج أن تحذف من كتابه شيئاً وضعه هو فى كتابه ، وأن من الطغيان على قراء الأغانى أن تحرمهم قراءة شىء فى الأغانى كان من حقهم أن يقرءوه . لست أشك فى أنك أردت الخير ، ولكنى لا أرى لإنسان مهما يكن حقًّا فى أن يكره الناس على أن يكونوا أخياراً فيما يكتبون ، أو فيما يقرءون أو فيما يعملون . لا أعرف لهذه الحرية حدًّا إلا القوانين العامة . وأحسب أن القوانين العامة لم تكلفك ولم تكلف غيرك من العلماء تطهير كتاب الأغانى أو غير كتاب الأغانى . ثم لا أزال أحتفظ برأيى كاملا فى هذه الأشياء التى رأى الأستاذ أنها لا تفيد . فمهما تكن الخبرة التى اكتسبها الأستاذ فهى لا تبيح له حذف هذه الأشياء من كتاب الأغانى ، وإنما تبيح له حذف ما يشاء من كتاب يضعه هو لا غيره .

وبعد ، فإنى أشكر للأستاذ على كل حال ما يتكلف من ضبط الغريب وتفسيره ، وتكميل الشعر وترتيبه ، وأستزيده من ذلك مع المستزيدين ، وأثنى على جهده مع المثنين . ولكنى آسف — وقد أكون وحيداً فى هذا الأسف — على هذا الجهد الذى كان يمكن أن ينتج للناس كتاباً قيما مستقلا يكون مجده خالصاً للأستاذ دون أبى الفرج .

* * *

٢ — قلت إن النقد صناعة ليست باللذيذة ولا المحببة إلى النفس ؛ فهى تكلف الناقد ضروباً من المكروه وألواناً من الألم قد كان يستطيع أن يستغنى عنها لو صرفه الله عن هذه الصناعة . ولكنها مع ذلك صناعة نافعة أو قل لازمة ، أو قل لا حياة للأدب بدونها ولا قوام له من غيرها . فنحن إذاً مضطرون إلى أن ننقد ، ونحن إذاً مضطرون إلى أن نتحمل الأذى ونتعرض للمكروه فى سبيل هذا النقد. ولست أخشى أذى خارجيًّا أو مكروهاً يلقانى من الكتاب أو المؤلفين ، وإنما أخشى هذا الأذى المنكر الذى يجده الإنسان فى نفسه وهذا المكروه الثقيل الذى يلقاه الإنسان من نفسه حين يتناول بالنقد كتب الإخوان والأصدقاء وأهل المودة والقرابة . فالدكتور أحمد ضيف أخ لى لا تصل بينى وبينه حياتنا فى الجامعة

المصرية وحدها ، بل تصل بينى وبينه حياة قضيناها معاً فى فرنسا كان فيها الحلو والمر ، وكان فيها الخير والشر ، وكنا نبلو حلوها ومرها ونحتمل خيرها وشرها أخوين صادقين ، لا يعدل أحدهما بصاحبه إنساناً ولا بمودة صاحبه شيئاً آخر . ومع هذا كله فأنا مضطر إلى أن أتناول بالنقد كتابه القيم الذى أذاعه فى الناس منذ أشهر ، وهو كتاب « بلاغة العرب فى الأندلس » .

لصديقى الأستاذ أحمد ضيف حظان مختلفان أشدّ الاختلاف: حظ فى الجامعة حيث يعلم الطلبة ويبصرهم بمناهج البحث الأدبى ، وحظ خارج الجامعة حيث يذيع كتبه ومباحثه الأدبية. أما حظه فى الجامعة فحسنٌ جدًّا خليق بالغبطة ؛ فقد وفِّق الأستاذ لأن يفتح أمام تلاميذه مناهج جديدة للبحث سلكوها فوفقوا فيها لخير كثير . ولقد حدثتك غير مرة عن تلميذ للأستاذ تناول ألواناً من البحث الأدبى نكان حظه من الإجادة عظيما ؛ هو الدكتور زكى مبارك . وسأحدثك عن تلميذ آخر للأستاذ تناول الأدب العربى فى الأندلس فأظهر كتاباً لا بأس به ، وهو كامل أفندى الكيلانى . وليس بالشىء القليل على أستاذ أن يكون من تلاميذه المؤلفون الذين لا يسيئون التأليف ولما يمض الأستاذ فى مهنة التعليم إلا أعواماً قصاراً .

حظ الأستاذ أحمد ضيف من هذه الناحية حسن خليق بالغبطة ، ولكن حظه من الناحية الأخرى سيىء مع الأسف الشديد . هو موفق فى التعليم ، غير موفق فى التأليف . ولقد حاول أن أجد سبباً لهذا ، وأحسبنى لا أخطئ ولا أتجاوز القصد إن قلت إن السبب الأساسى الذى يحول بين الأستاذ وبين الإجادة اللائقة به فى كتبه هو أن نفسه سريعة الحركة ، مسرفة فى هذه السرعة ، لا تكاد تعرض للشىء فتثبت له حتى تقتله بحثاً ودرساً وتنضجه فهماً وتفكيراً . وإنما هو شديد السأم كثير الملل ، لا يكاد يلم بالموضوع حتى يسأمه ويزيد فيه ، وينتقل منه إلى موضوع آخر فيسأمه ويزيد فيه ، وينتقل منه إلى موضوع ثالث وموضوع رابع . وتكون نتيجة هذا السأم وهذا الانتقال السريع آراء كثيرة ظاهرة الجدة ولكنها غير ناضجة ولا واضحة ولا قابلة للبحث . وإذا كانت الأناة شرطاً أساسيًّا للإجادة والإتقان فى كل شىء مهما يكن نوعه فهى الشرط الأساسى الوحيد للحياة العقلية المنتجة . وربما لم تكن المناهج العلمية شيئاً إلى جانب الأناة العلمية . ذلك لأن المناهج العلمية المنتجة على قيمتها ولزومها ليست فى حقيقة الأمور إلا

نتيجة طبيعية للأناة العلمية . وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وأظهر ما يكون ذلك فى العلم والأدب والمباحث العقلية على اختلافها ؛ فإن هذه النتائج الباهرة التى انتهى إليها العلماء والأدباء ليست فى حقيقة الأمر إلا آثاراً لجهود طويلة بطيئة شاقة ذهبت فيها القوى وأنفقت فيها لا أقول الأشهر ولا أقول الأعوام ولا أخطئ إذا قلت القرون . فكم من فكرة علمية أنفق فيها العالم حياته كلها ثم انقطعت به أسباب هذه الحياة دون أن يتمها درساً ، وجاء بعده العالم أو العلماء فأنفقوا فيها مثل ما أنفق أو أضعاف ما أنفق من جهد ووقت . وكذلك الأمر فى الأدب ، وكذلك الأمر فى الحياة العقلية كلها. فإذا كان للحياة العقلية المنتجة عدو حقاً فإنما هو العجلة والإسراف فى السرعة . ولقد تقرأ الكتابين اللذين أظهرهما الأستاذ الدكتور ضيف منذ بدأ الدرس فى الجامعة ، فتشعر بما أشعر به من أن الأستاذ تعجل فأسرف فى العجلة ، وأذاع فى الناس آراء لم تنضج فى نفسه كما ينبغى ، فلم يتقن هو فهمها ولم يستطع الناس أن يفهموها من بعده . تشعر بهذا ، وتشعر بشىء من الألم وضيق الصدر إذا كنت تعرف الأستاذ وكفايته وقدرته على الإجادة والإتقان . فأنت لا تكاد تقرأ صفحة واحدة من أحد الكتابين حتى تشعر بهذا الضيق ، وحتى تشعر بغموض شديد ، وحتى تسأل نفسك ملحاً متشدداً فى الإلحاح : ماذا يريد أن يقول ؟ وأنت تستطيع أن تسأل نفسك وأن تسألها ، بل أن تسأل المؤلف وتلح عليه دون أن تجد الجواب المقنع . ذلك لأن المؤلف ألم بالموضوعات إلماماً ولم يتقنها إتقاناً .

ولقد فرغت الآن من مقدمة كتابه الآخر فى بلاغة العرب فى الأندلس . ويؤلمنى أنى لم أفهم منها شيئاً ، أو أنى لم أستقر منها على شىء ؛ فأنا أشعر بأن الأستاذ يريد أن ينكر على القدماء والمحدثين تصورهم للأدب وحكمهم عليه ، فيخيل إلىّ أنه سيضع للأدب تعريفاً جديداً ويحكم عليه حكماً جديداً ، يرسم فيه مناهج للبحث والفهم جديدة ، فإذا مضيت فى القراءة لم أجد إلا غموضاً وإبهاماً ثم رجوعاً إلى تصور القدماء وحكم القدماء والنقل عن القدماء . ليس الأدب فى رأى الأستاذ ضرباً من الفكاهة والتسلية ولا نادرة ظريفة ولا عبارة طريفة ولا حكمة بليغة ولا بيت شعر يملك النفس ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة . وليس الأديب فى رأى الأستاذ من كان « كثير النادرة حاضر الذاكرة

واسع الاطلاع أنيس الجليس عذب الحديث حافظاً راوية » . وليس كتاب الأدب فى رأى الأستاذ ما كان جامعاً « لكثير من مسائل اللغة وقواعدها ، والشعر وأنواعه ، والنوادر الخاصة والعامة وتواريخ الأمم » . وليس الكاتب فى رأى الأستاذ من كان « طلق العبارة عارف باختيار الألفاظ عالماً بكثير من المترادفات تنقاد البلاغة إليه انقياداً فيصور الحق باطلا ويجعل الباطل حقاً » .

ليس الأدب ولا الأديب ولا الكتاب الأدبى ولا الكاتب فى رأى الأستاذ شيئاً مما قدمنا . فما الأدب إذاً ؟ الأدب عند الأستاذ « نتائج العقول والقرائح البشرية وقوة الفكر والإدراك الإنسانى التى تنفتق بها ألسنة الشعراء وتسيل بها أقلام الكتاب فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصوره وأسرار النفس وخفايا الوجود ما يملأ النفس غبطة وإعجاباً بصحيح الآراء ، وجمال الافتتان ، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفكرين بدقة الإدراك وتصوير المعانى النفسية والاجتماعية تصويراً يقرب من أن يكون مدركاً بالحواس » . أفهمت شيئاً ؟ أما أنا فلم أفهم شيئاً واضحاً ، وإنما يخيل إلىّ أن فى نفس المؤلف شيئاً يريد أن يقوله وهو لا يجد إلى قوله سبيلا .

ولنلاحظ قبل كل شىء أن الفكاهة والنادرة والعبارة الجيدة والبيت المتقن وكل هذه الأشياء التى لم يُرد الأستاذ أن يسميها أدباً ليست نتائج الآذان والأنوف ، ولا نتائج الأيدى والأرجل ، وإنما هى نتائج القرائح والعقول ، وهى ليست هواء من القول ولا سخفاً من الحديث ، وإنما هى على كل حال صورة لنفس إنسانية ما أو لحياة اجتماعية ما . وإذاً فهى أدب كما يريد أن يكون الأدب . الحق أن الأستاذ كلفٌ بالأدب الغربى ، ملاحظ للفرق بينه وبين الأدب العربى ، متأثر بهذا الفرق . وهو يريد أن يحدده ويدل عليه ، فلا يعينه قلبه ولا لسانه لأنه لم يصطنع الأناة فى التفكير والكتابة . فهو يقول أكثر مما يفكر ؛ وهو يفكر أكثر مما يقول . وكذلك الحال حين يزعم الأستاذ أن نفوسنا تمل الآن أسلوب القصيدة العربية لأن الشعر العربى كما هو أصبح لا يلائم أذواقنا وميولنا وحاجاتنا . وأنا أترجم عن المؤلف ولا أنقل عبارته ، فعبارته شديدة الغموض لا تكاد تدل على هذا إلا إذا كلفتها مشقة وجهداً . ومع هذا فليس من الحق أننا نمل الشعر العربى كما هو ونزهد فيه ، وإن كنا نريد له رقياً وتطوراً يقاربان بينه وبين أذواق العصر الحديث وحاجاته . وليس من الحق فى شىء أن الأدب العربى كما يظن الأستاذ لا يمثل الحياة الاجتماعية والنفسية ولا يعرب عن أسرار الوجود ، وإنما هو نحوٌ

من تمثيل الحياة الاجتماعية والنفسية وضرب من الإعراب عن أسرار الكون والوجود .
ولكنه محتاج إلى أن يُفْهَمَ ويدرس مع العناية والإنصاف وأرجو أن تكون « أحاديث الأربعاء » قد دلتك على أن الأدب العباسى يمثل الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى ، وأن الأدب الأموى يمثل الحياة الاجتماعية فى عصر بنى أمية ، كما أنه يمثِّل نفوس الشعراء وظروفهم الخاصة فى العصرين . ومالى أذكر أحاديث الأربعاء ! وهل يستطيع الأستاذ أن ينبئنى لمَ يؤلف كتاباً فى أدب الأندلس إذا لم يكن الأدب الأندلسى يمثل الحياة الأندلسية تمثيلا قويًّا أو ضعيفاً ؟ قل إن الأدب العربى لا ينحو نحو الأدب اليونانى واللاتينى والآداب الغربية الحديثة فى تمثيل الحياة ووصف الأحياء ؛ فهذا شىء لا نزاع فيه ، لكنه لا يمحو قيمة الأدب العربى فى نفسه من حيث إنه مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ومرآة للنفس الإنسانية . ولكن الأستاذ لم يُردْ أن ينكر قيمة الأدب العربى ، وإنما هو كما قلت لك يقول أكثر مما يفكر ، ويفكر أكثر مما يقول ؛ لأنه سريع الحركة لا يُنضج ما يعرض له من المباحث . وآية ذلك أنه أراد أن يذكر قيمة الأدب الأندلسىّ فكان كغيره من الكتاب ، أستغفر الله ! بل استعار كلام القدماء فنقل عن ذخيرة ابن بسام ونقل عن كتاب نفح الطيب .

ولنترك مناقشة هذه المقدمة لننتقل إلى ملاحظات يسيرة كنا نحب ألا يتعرض لها كتاب فى الأدب العالى . أراد الأستاذ أن يلم بتاريخ الأدب فى الأندلس مقدمة لبحثه الأدبى ، وهذا حسن . ولكنك لا تكاد تبدأ قراءة هذه المقدمة التاريخية حتّى تجد فيها ضروباً من الإهمال وإرسال القول على علاّته . تجد مثلا أن العرب فتحوا ما لم يفتحه غيرهم من الأمم فى ثلاثة قرون ، بل فى قرن واحد ، فلم تمض على العرب ثلاثة قرون حتّى كانوا قد سئموا الفتح وانصرفوا عنه إلى الاستمتاع بالحياة . وتجد مثلا أن العرب خرجوا من بلادهم إلى مصر ثم إلى القيروان ، ولكنهم مروا ببلاد أخرى ففتحوها قبل أن يصلوا إلى مصر . وتجد فيها مثلا أن دولة العرب فى الأندلس كانت أعظم دولة أقامها العرب ، وأن مدنيتهم فى الأندلس كانت أعظم مدنية جاء بها الإسلام .

أحق هذا ؟ أكانت دولة قرطبة أعظم من دولة دمشق وبغداد ؟ أكانت مدنية قرطبة أعظم من مدنية بغداد والقاهرة ؟ وهل يباح لكتاب فى الأدب العلمى أن يتورط فى مثل هذا الكلام المرسل على علاته ؟ ! ثم هل أسمح لنفسى بأن ألاحظ

أن الكتاب لا يخلو من إهمال لغوى ، فلا ينبغى أن يقال : « إذا وفقنا الله إلى العودة فى هذا الموضوع » ، وإنما يعاد إلى الموضوع لا فيه .

لقد يضيق بى الوقت والمكان عن أن أمضى فى نقد الكتاب نقداً مفصلا ، ولكنى أكتفى بما قدمت ، وأرجو أن يوفق الأستاذ فى كتبه المقبلة لهذه الأناة العلمية التى تنقصه ، والتى تكفل من غير شك لكتبه ما هى أهل له من الإتقان والفوز .

النقد والأدب والحرية

حول مهذب الأغانى أيضاً

سيدى الدكتور . . . .

أحب أن أجاذبك الحديث لأننى أشوق ما أكون إليك وإلى حديثك . وأحب أن أعود بك إلى مهذب الأغانى لأن قليلا على مثل مهذب الأغانى أن تخص به خطرة وخطرتان من صحيفة الأدب . وإذاً فاسمع أقص عليك حديثى :

أملك كتاب الأغانى منذ نيف وعشرين عاماً ، وقد عنيت منذ ملكته بأن أجعله حلية مكتبتى . ولكنى أؤكد لسيدى وأنا من أشغف الناس بالأدب أننى لم أملأ يدى من أدب ذلك الكتاب الكريم على فرط حبى له وإعجابى به وعلمى بأنه المنهل الفياض الذى يصدر عنه علماء الأدب جميعاً .

ومنذ عشرة أيام ملكت الجزء الأول من مهذب الأغانى ، وفى عشرة أيام فقط قرأت الكتاب كله وملأت يدى منه ، وعرفت أى شعوب العرب وقبائلها ، وأى بطونها وأفخاذها أصلب عوداً فى شعوب القول وأيها أرق نسجاً له .

إنى لأومن بأنى لست من الباحثين المنقرين الذين يسوقهم بحثهم وتنقيرهم إلى قراءة ما أورده صاحب الأغانى من فحش ومجون أو استيعاب تركه « المهذب » مما لا شأن له ولا معنى فيه . نعم لست من أولئك الباحثين المتعمقين . ولو كنت منهم لما أعوزنى أن أرجع إلى الأغانى وقت الحاجة إلى البحث والاستيعاب . ولكنى لست بدعاً من سواد المتأدبين الذين يحبون الأدب العربى حباً ملك عليهم مشاعرهم ، ويسرهم كل السرور أن يجدوه بديع النسق دانى القطاف فى كتاب واحد كما أجده فى « مهذب الأغانى » .

لم يكن كتاب الأغانى من خواطر أبى الفرج أو إنشائه حتى يكون ترتيبه وتهذيبه وضم كل شكل إلى شكله وجمع كل إلف إلى إلفه . مسخاً وتشويها . ولكن أبا الفرج نقل آراء غيره فى شعراء العرب ومغنيهم ، فأحسن كل الإحسان فى نقله ولم يحسن فى وضعه ، فجمع فى الجزء الواحد بين أقوام لا صلة بينهم فى نسب

الأدب ، وذهب بكل شاعر كل مذهب فى تفاريق كتابه . وربما كان فى شغل بإجادة الجمع عن إجادة الوضع . فهل يعاب على رجل رأى ذلك الذخر مبدداً فنظمه ، وتلك الثروة تائهة فجمعها ، وذلك الأدب الفياض مكدراً فصفاه ؟ ! وإذا كان سيدى الدكتور يرى تنسيق كتاب الأغانى وتهذيبه معارضة لأبى الفرج واعتداء عليه وهو لا شخصية له فيه، فما رأيه فى عمل أبى تمام والبحترى فى حماستيهما وقد عمد كل منهما إلى قصائد لشعراء الجاهلية والإسلام ، وفى كل قصيدة نفس صاحبها وخطرات مشاعره ونزعات سرائره وأسلوب نظامه ، فحذف منها ما حذف ، وفرّق بين أجزاء القصيدة الواحدة ، فردّ الغزل والوصف والحماسة والأدب منها كلا إلى إلفه من كتابه . فما رأى سيدى ؟ أيعدّ ذلك مسخاً للأدب وتشويهاً له ؟ وإذاً فقد جنى أبو تمام وصاحبه على شعراء العصور الخوالى ؟ أم يرى أنهما قد قرّبا بذلك النسق جنى الشعر من منال الأدباء ؟ !

ليسمح لى سيدى الأستاذ أن أقول : إن يكن أحد أحسن إلى أبى الفرج فالأستاذ الخضرى بك ؛ لأنه قرّب إحسانه إلى المتأدبين جميعاً ، وإن كتاب مهذب الأغانى كان يجب أن يظهر منذ أجيال بعيدة ، ولو هذبه ابن مكرّم تهذيب الأستاذ الخضرى له لأباح منه الأدباء تبراً لا ترب فيه .

وبعد ، فهل مبلغ عنى صديقى وأستاذى الجليل أنى أكبر جريدة السياسة وأجل صحيفة الأدب فيها أن يتاح لأناس يتخذونها ذريعة لشفاء حزازات الصدور وحك سخائم النفوس باسم النقد . وإلا فما لنقد الكتب وللتغلغل فى كرامات العلماء والنيل من أقدارهم ؟ وهل بهذه الوسيلة يخدم العلم والأدب ! ! وإذا لم تُصَنْ كرامات العلماء فى صحيفة الأدب من جريدة السياسة ففى أى صحيفة نرجو أن تصان ! !

تلك كلمتى لرجل أجلّ علمه وأدبه ، وأعرف له نبله ونزاهته . أما ذلك الذى قرأ نقدك فضحك وقهقه ، وما زال يضحك ويقهقه فى الترام وتحت وابل المطر ، فأنت وحدك المسئول عنه لأنك أنت الذى سببت له تلك الحال ! .

والسلام عليك ورحمة الله

« كاتب »

* * *

لست أدرى أيوافقنى الأستاذ الخضرى على هذا الرأى أم يخالفنى فيه ، وهو أن من الخير لكتاب ناشئ أن يكثر الكلام حوله وتختلف الآراء فيه وتتناوله

الصحف السيارة بالرضا عنه حيناً والسخط حيناً آخر ؛ فى ذلك إذاعة لأمر الكتاب وإلحاح فى الدعوة إليه ، وضرب من الإعلان الجيد المفيد الذى قد يبتغيه المؤلفون بأموالهم فلا يظفرون منه بما يريدون .

إذا كان الأستاذ يوافقنى على هذا الرأى فليهنئه أنى نقدت كتابه وشددت فى نقده ، وأنه ردّ على هذا النقد فنقدت ردّه ، وأن هذا الحوار بيننا قد أهم جماعة من المتأدبين فاشتركوا فيه ، ونشرت « السياسة » لهم فصلين يوم الأحد الماضى ، وهى تنشر لهم فصلا فى هذا اليوم . وفى كل هذا ذكر للكتاب وإلحاح فى الدعوة إلى الكتاب وتذكير للناس بأن الكتاب قد ظهر وأنه خليق أن يقرأ وينظر فيه . وما أحسب أن الأستاذ كان يظفر من جريدة « السياسة » بإعلان كهذا متصل مفصل متكرر مهما يبذل لها من مال .

على أنى أرى لكل شىء حدًّا ، وأحسب أن قد نشرت « السياسة » فى نقد الكتاب والذود عنه ما فيه كفاية ، وأن من الخير لصحيفة الأدب وقرائها أن ننتقل من هذا الموضوع إلى شىء آخر فيه نفع جديد . وما كنت لأستأنف القول حول « مهذب الأغانى » لولا أنى رأيت فيما نشرت السياسة صباح الأحد ، وفيما تنشره صباح اليوم ، وفى أشياء كنت أريد أن أنشرها ولكن صاحبها طلب إلىّ ألا أفعل ، أموراً خليقة أن نقف عندها وقفة قصيرة أخيرة .

الناس يفهمون النقد فهمين متناقضين تناقضاً شديداً ، وكلاهما خاطئ سيئ الأثر . فمنهم من يفهم من النقد حمداً خالصاً وثناء طيباً وتقريظاً من غير تحفظ . والنقد عند هؤلاء ضرب من المدح يقصد منه ترويج الكتاب وإذاعة أمره ورفع صاحبه بين الناس . لهذا لا يكاد أحدهم يفرغ من كتابه حتى يرسله إليك ويسعى به إليك ، وحتى يرجو منك أن تتناوله بالنقد وألا تحرمه كلمة من « كلامك العذب وأسلوبك الحلو وإنشائك الرائع » . وهو يقدّر فى نفسه أن الكلام العذب والأسلوب الحلو والإنشاء الرائع إنما هو كلامه وأسلوبه وإنشاؤه ، وأن الناقد إنما هو وسيلة لترويج الكتاب والثناء عليه لا أكثر ولا أقل . ومنهم من يفهم النقد على أنه طعن وقدح وتجريح ودلالة على السيئات ، فهو يكرهه ويكره أصحابه ويكره تأليف الكتب حتى لا يتعرض لألسنتهم وأقلامهم ؛ فإن اضطرته حياته وصناعته إلى التأليف فهو يتوسل إلى الناقدين ألا يعرضوا لكتابه بخير ولا بشر ، وأن يخلوا بينه وبين القراء يقرءونه فيرضون عنه أو يسخطون عليه . وقد وصلت

إلىّ كتب أولئك وهؤلاء ، وقرأت من أولئك وهؤلاء أعاجيب ، وسمعت من أولئك وهؤلاء أيضاً . ولو أنى أخذت أنشر لك طرفاً من هذه الكتب أو أقص عليك شيئاً من هذه الأحاديث لضحكتَ كما ضحكتُ ، ولحزنتَ كما حزنتُ ، ولكنى لا أريد أن أوذى أحداً ، فلأطو هذه الكتب ، وربما مزقتها ، ولأعرض عن هذه الأحاديث وربما نسيتها .

وفى الحق أن الصلة بين النقاد والمؤلفين دقيقة بطبعها لا تخلو من الحرج . فأى مؤلف لا يطمع فى الثناء على كتاب بذل فيه من الجهد ما بذل ولقى فيه من العناء ما لقى ! وأى مؤلف لا يكره أن يتناول النقاد جهده ونتيجة جهده بالنقد فيبينوا ما فيهما من ضعف ويدلوا على ما فيها من قصور ! كلنا يحب الثناء ويعتقد أنه مستحق له ، وكلنا يكره الذم ويعتقد أنه خليق ألا يتعرض له . ولكن شيئاً ينقصنا مع هذا وهو أن نقدر العلم قدره ، ونؤمن بأن لا قوام للعلم بغير النقد . ولا أكاد أفهم أن رجلا يستحق أن يوصف بأنه عالم أو أديب أو من طلاب العلم والأدب إذا لم يكن يقدر النقد وحاجة العلم والأدب إليه .

يقدّر النقد لا على أنه ثناء خالص ، ولا على أنه هجاء خالص ؛ فليس العلم فى حاجة إلى الثناء ، وليس هو فى حاجة إلى الهجاء ، وإنما هو يترفع عنهما جميعاً . إنما ينبغى أن يقدر النقد على أنه تمحيص للعلم ودلالة على ما فيه من حق يجب أن يبقى ، وباطل يجب أن يزول ، أو قل على ما تعتقد أنه حق أو باطل . ولست أدرى لمَ يؤذيك أن يدلك ناقد على أنك أخطأت وأنت لم تأخذ على الأيام عهداً بالإصابة المطلقة . ولست أدرى لم تحرص على أن يصفك الناس بأنك موفق للحق أبداً ، ولم يقدر هذا التوفيق لإنسان ما .

النقد إذاً حاجة طبيعية لكل حركة علمية أو أدبية أو فنية . ولكن النقد لا خير فيه ولا نفع منه إذا لم يكن حرّاً من كل قيد من هذه القيود المنكرة التى تحول بين النقاد وبين أداء واجبهم على وجهه .

يجب ألا يتقيد النقد بالمجاملة وما إليها ؛ فقد تكون للمجاملة أوقاتها ومواضعها ، ولكنها أشد الأشياء منافرة للعلم ، وبعداً عن النقد الصحيح . وما رأيك فيمن يرى الحق فيعرض عنه إرضاء لصديق ، أو رفقاً بأستاذ ، أو تقرباً إلى ذى مكانة ! أتراه رجلا حقّاً ذلك الذى يؤثر صديقه وأستاذه وصاحب المكانة على الحق من حيث هو وعلى الحق العلمى بنوع خاص ؟ وما رأيك فيمن يرى الباطل فيقره إرضاء

للصديق والأستاذ وذى المكانة ؟ أتراه رجلا حقاً ذلك الذى يؤثر الناس مهما تكن أقدارهم وصلاتهم على العلم فيرضيهم ليغضبه ؟

كثيرة جداً هذه الأسباب التى تحول بين النقاد وبين حريتهم . ولست فى حاجة إلى أن أحصيها ، فهى أظهر من أن تحتاج إلى أن يدل عليها . وأكبر ظنى أن حرية النقد ليست بدعاً من ضروب الحرية المختلفة ، فهى نتيجة من نتائج التربية الصحيحة وأثر من آثار الأخلاق القيمة . وهى عسيرة جداً فى بلد فسدت فيه الحياة الاجتماعية والسياسية ، واضطر الناس فيه إلى أن يسرفوا فى النفاق والمداجاة ليعيشوا . ولقد آلمنى ما قرأته فى الفصل الذى نشرته « السياسة » فى صباح الأحد لمعلم أراد أن ينقد كتاب الأستاذ الخضرى ، فلم يجد بداً من إخفاء اسمه حتى على السياسة نفسها لأنه مشفق على راتبه ومنصبه فى وزارة المعارف أن يمسها الأستاذ الخضرى ومغربى باشا بأذى

آلمنى ذلك ، لا لأننى أشفقت على هذا المعلم من الأستاذ الخضرى ، فأنا أعلم أن الأستاذ أشد رعاية للحرية من أن يؤذى الناس فى سبيلها ، بل لأن عاطفة كهذه قد تعبث بطائفة من الناس منهم الأساتذة والمعلمون ، وإذا كان المعلم يخشى النقد الأدبى على راتبه ومنصبه فكيف لا يخشى سلطان السياسة وأهواءها على هذا الراتب والمنصب ! وكيف لا يقف من الوزارات السياسية هذه المواقف المريبة التى ينكرها عليه الناس ! لا خير فى النقد إذا لم يكن حراً.ولكن الحرية شىء ، وتجاوز الحدود شىء آخر . وربما كان من الحق لى أن أنكر على هذا المعلم الأديب شيئاً من تجاوز القصد فى نقده للأستاذ . فقد كان يستطيع أن يقول كل ما يريد أن يقول دون أن يضطر إلى هذه الألفاظ التى تؤذى فى غير نفع . وأنا معتذر إليه من هذا الإنكار ؛ فقد اضطررت إليه اضطراراً ، وكنت أحب ألا أقدم له إلا شكراً خالصاً لحسن ظنه بى ، ولكنى لا أريد أن أؤثر نفسى على الحق . كما أنى معتذر إليه من اضطرارى إلى ألا أنشر فى صحيفة الأدب هذا الفصل الثانى الذى بعث به إلى « السياسة » ناقداً لكتاب الأستاذ الخضرى أيضاً . فأنا لم أفكر ولم تفكر « السياسة » فى نقد أخلاق الأستاذ الخضرى ولا فى استنباط هذه الأخلاق من مهذب الأغانى . وما كان لى ولا للسياسة أن نفكر فى شىء كهذا ، فليس لنا بأخلاق الأستاذ الخضرى شأن . وإنما سبيلنا مع الأحياء أن نعرض لكتبهم وآثارهم العلمية ليس غير ، فأما استنباط الأخلاق

والخصال فسبيلٌ نسلكها مع القدماء والذين أصبحت حياتهم ملكاً للتاريخ . وإنى أعذر المعلم الأديب فى تجاوزه حدود الحرية فى النقد الأدبى ؛ فقد قلت إن هذه الحرية أثر من آثار الحياة الاجتماعية والسياسية ، وإذ كنا حديثى عهد بها فى مصر فليس غريباً أن نتجاوز حدودها وألا نفرق بينها وبين الإسراف .

أما بعد ، فهل أنا فى حاجة إلى أن أردّ على الكاتب الأديب « أحمد الألفى » فيما يطلب إلىّ من الإعراض عن تلخيص القصص ؟ وهل أنا فى حاجة إلى أن أثبت للكاتب الأديب أن ليس على الأخلاق منها خطر ؟ وهل أنا فى حاجة إلى أن أثبت له أن الفرق عظيم جدًّا بين تلخيص القصص وتهذيب الأغانى؟ وهل أنا فى حاجة إلى أن أنبئه بأن كتاب صبح الأعشى كتاب قيم من الوجهة الأدبية والتاريخية لم يقدره الناس قدره بعدُ ، وربما لم يكن فى الآداب العربية ما يعدله؟ وهل أنا فى حاجة إلى أن أنبئه بأن صاحب صبح الأعشى قد أختصر كتابه ولخصه فى كتاب مطبوع يستطيع أن يرجع إليه إذا كان لا يريد أن يتورط فى قراءة صبح الأعشى .

أما الأستاذ الكاتب الذى نشرت« السياسة » فصله صباح اليوم فأنا أشكر له أدبه وظرفه ، ولكنى أعتذر إليه إذا لم أصدقه فيما يقول من أنه ملك الأغانى منذ أكثر من عشرين سنة دون أن ينتفع به حتى ظهر كتاب الأستاذ الخضرى . لا أصدّقه لأن أكبر ظنى أنه يسرف فى الإساءة إلى نفسه دفاعاً عن الأستاذ الخضرى ، وقد لا يحتاج الأستاذ الخضرى إلى كل هذا الدفاع . ثم ألفت الأستاذ إلى أن الفرق عظيم جدًّا بين ما صنع أبو تمام والبحترى وغيرهما من أصحاب المختارات الشعرية وما صنع الأستاذ الخضرى بكتاب الأغانى . وما أظنه فى حاجة إلى معرفة أن من حقنا أن نتخير من شعر الشعراء ما نحفظه وما نرويه دون أن يكون لنا الحق فى أن نغير كتب القدماء ونذهب بها غير مذهبهم . وخلاصة القول أنى أريد أن ألفت القراء إلى شيئين : الأول أنى ما زلت محتفظاً برأيى كاملا فى عمل الأستاذ الخضرى ، فهو سيء بالقياس إلى العلماء ، نافع بالقياس إلى عامة الناس ، وأنفع منه أن تؤلف لهؤلاء الناس كتب مستقلة لا تمسخ كتب القدماء ولا تشوهها . الثانى أنى سعيد كل السعادة بأن أبيح صحيفة الأدب للنقاد جميعاً ، على ألا يخلو نقدهم من خصال ثلاث : الحرية ، والأدب ، والنفع .

شعراؤنا ومترجم أرسطاطاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد أوفر كتّاب هذا العصر ومؤلفيه حظًّا من السعادة وأحقهم بالغبطة والرضا . فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصريًّا ظفر بمثل ما ظفر به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والإعجاب الذى لا حد له . وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصريًّا فى هذا العصر أكره خصومه وأصدقاءه على أن يحمدوا له عمله فى غير بخل ولا تقتير . وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصريًّا فى هذا العصر أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريظه وأطلق ألسنة الشعراء بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفى السيد حين أذاع فى الناس ترجمته لأخلاق أرسطاطاليس . فقد أجمع الكتاب على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى افتراقهم فى حب الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريظه وشكر ما قدّم إلى اللغة العربية من خير بترجمة هذا الكتاب . وليس يعنينا ما كتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف وقرأها الناس ، وإنما الذى يعنينا هو هذا الشعر الذى أطلق به الأستاذ ألسنة الشعراء . وأى الشعراء ! شوقى ، وحافظ ، ونسيم . فإذا كان من الحق علينا أن نقدم إلى الأستاذ تهنئتنا الخالصة بهذا الثناء الطيب الذى هو أهل له والخير منه ، وإذا كان من حقنا أن نثبت فى هذا الفصل أننا لم نكن مخطئين فيما قدرناه يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرسطاطاليس من أن ظهور هذا الكتاب حادث أدبى ليس كغيره من الحوادث — نقول إذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حتمنا أيضاً أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التى أنطق الشعراء بها كتاب الأخلاق لأرسطاطاليس لنتبين وجهاً من وجوه القوة الشعرية فى هذا العصر عندنا بعد أن بينا فى الفصول الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية فى هذا العصر . وأنا أعلم حق العلم أن من الإسراف أن نحكم على القوة الأدبية فى هذا العصر بكتاب « مهذب الأغانى » و « تهذيب الكامل » و « بلاغة العرب فى الأندلس » . وأعلم كذلك حق العلم أن من الإسراف والظلم أن نحكم على قوتنا الشعرية فى هذا العصر بهذه القصائد الثلاث التى أنشأها شوقى وحافظ ونسيم فى مدح الأستاذ لطفى السيد وترجمته لأخلاق أرسطاطاليس . على أن هذا إسراف وظلم ؛ فإن

لشوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائد أخرى قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفة من الجد والهزل ، فيها لذة للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب أن يلاحظ القارئ أنى لا أتخذ هذه القصائد عناوين لشعرائها ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الإجادة والإساءة ، ومن السمو والإسفاف ، وإنما هى فرصة نتحدث إليك فيها عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أنحائهم فى الشعر ومذاهبهم حين يعمدون إليه . وليس من شك فى أنى لا أبخل بالثناء الطيب العذب على هؤلاء الشعراء جميعاً ؛ فهم حين أنشئوا قصائدهم هذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة ، هى عاطفة الإنصاف وإكبار من يستحقون الإكبار ، والوفاء لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا فى نفسه بالشىء القليل ، ولا سيما بالقياس إلى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد على جلال خطره وعلو مكانته فى أمته ليس بحيث يستطيع أن يبتزّ ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر ، وما كان ذلك من شأنه ولا من أخلاقه . فشعراؤنا إذاً صادقون غير متكلفين ، مخلصون غير متصنعين فيما قدّموا إلى الأستاذ من مدح ، وفيما أهدوا إليه من ثناء . بل أنا لا أبخل على شعرائنا الثلاثة بشىء من الثناء غير قليل لما وفِّقوا له من الوجهة الفنية الخالصة ، فكلهم قد وفق لشىء من الإجادة لا بأس به ، كلهم قد جدّ فى تخير الألفاظ وإتقان النظم وإحكامه ، وإقرار القافية فى نصابها ، فوفق من هذا كله للشىء الكثير . وكلهم قد اجتهد فى الغوص على المعانى — كما يقولون — وتلمس الغريب الطريف منها ؛ فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطِّلبة ، وإنما عاد بشىء يمكن أن يحصى له بين الحسنات الشعرية .

على أنى أستأذن من شعرائنا وأستأذن من قبلهم أستاذنا لطفى السيد فى أن أكون حرًّا حين أنقد هذه القصائد ؛ فقد تعودت هذه الحرية وحرصت عليها وأكبرتها عن أن أضحِّى بها فى سبيل إنسان مهما تكن منزلته من الناس ومنى ولو كان هذا الإنسان هو الأستاذ لطفى السيد أو شوقى أو حافظ أو نسيم .

أريد أن أكون حرًّا ، وإذاً فأنا معتذر إلى شعرائنا الثلاثة ، إذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا لذكر أرسطاطاليس ومدحه والإشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ! ذكروا أرسطاطاليس ومدحوه وهم يجهلون آثاره . وأرجو أن يصدِّقونى — وهم يصدقوننى — إذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب الأخلاق الذى أنشئوا من أجله هذه القصائد . وما أظن أن علمهم

بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما أحسب أنهم جميعاً قرءوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقًّا . وهنا أتردد بين العتب والثناء ، فقد يكون مما يستحق الثناء والإعجاب أن يعمد الشاعر إلى موضوع لا يدركه ولا يحيط بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا يبرأ من إحسان . ولكنى ثقيل ملحاح شديد الطمع مسرف فى الحرص على المثل الأعلى ؛ فأنا لا أرضى لشعرائنا الجهل ، ولا أحب لهم أن يعرضوا للأشياء إلا إذا أتقنوها إتقاناً وظهروا على دقائقها وأسرارها حقًّا . وقد أفهم أن يقول الشعراء ما لا يفعلون ، ولكنى لا أفهم أن يقول الشعراء ما لا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو فى ذلك أو أسرف ، فما كان الجهل مصدراً للخير ولا وسيلة للإجادة ولا طريقاً إلى البراعة الفنية . وما رأيك فى مثال يطمع فى ابتكار الآيات الفنية وهو يجهل التشريح وما يتصل به من تكوين الجسم الإنسانى وما إلى ذلك من هذه العلوم التى لا سبيل إلى الإجادة الفنية بدونها ! ! إن الإجادة الفنية إذا كانت أثراً من آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوى والعواطف الدقيقة والخيال الخصب فهى لغو إذا لم تستمد غذاءها الحقيقى من العقل والعلم .

وربما كان شوقى أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب فى هذا الموضوع . نعم ! هو أحقهم بالعتب ، فهو من بينهم قد تعلق بأرسطاطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ، وخص له من قصيدته أكثر مما خص للأستاذ المترجم . ولعلك تدهش ولعل شوقى نفسه يدهش إذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرسطاطاليس وإنما مدح أفلاطون . نعم ! أراد عَمرًا وأراد الله خارجة . ولكنه أراد عمراً بالخير ، فانصرف هذا الخير عن عمرو إلى خارجة ؛ لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل إلى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة والحكماء رضية بطبعها ، لكان من حق أرسطاطاليس أن يخاصم شوقيًّا وأن يَنْفَسَ على أفلاطون أستاذه هذا المدح الذى جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقى أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون . ولست فى حاجة إلى أن أطيل القول فى أن شوقيًّا لم يمدح أرسطاطاليس ، فيكفى أن نقرأ قصيدة شوقى لنرى أنه يصف أرسطاطاليس بأنه سبق إلى التوحيد فأعلنه قبل البَنِية والحطيم ، وقبل المسيح أيضاً ، وبأنه كان قدسىّ الروح ، وبأن « لطفى » صدى صوته الرخيم ، وبأن رسائله كالسلافة إذا جرت فى جسم النديم . وإذا كان بين فلاسفة اليونان مَنْ سبق إلى إعلان التوحيد فليس هو أرسطاطاليس ، وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً ؛ فقد سبق فلاسفة اليونان إلى إعلان التوحيد فى

القرن الخامس قبل المسيح . ولكن الشيء الذى يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفاً يونانياً يُقرَنُ إلى المسيح وتعتبر فلسفته أصلا من أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها . وليس هذا الفيلسوف أرسطاطاليس ، وإنما هو أفلاطون ، أفلاطون صاحب المثل ، أفلاطون الذى أمعن فى طلب المثل الأعلى ، والذى استطاع أن يرقى بالنفس الإنسانية والفكرة الإلهية إلى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعده ، أما أرسطاطاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد فى السماء . ولهذا لم يصعد أرسطاطاليس فى السماء . ولعله لم يرفع بصره إلى السماء ، وإنما خفضه إلى الأرض ؛ ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء ، وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . وإذا كان هناك فيلسوف تلائم فلسفته الشعر حقاً ، أو قل إذا كان هناك فيلسوف هو الشاعر حقاً ، فهذا هو أفلاطون لا أرسطاطاليس. ولو عرف شوقى إله أرسطاطاليس ، هذا الإله العاجز الجاهل المفتون بنفسه المنصرف إلى جماله عن كل شيء ، الذى لا يعلم إلا نفسه ، ولا يفكر إلا فى نفسه ، ولا يُعجبُ إلا بنفسه — أقول لو عرف شوقى إله أرسطاطاليس هذا لرثى لهذا الإله ، ولرثى لأرسطاطاليس نفسه ، ولما استطاع أن يقول :

مَنْ كان فى هَدى المسيح وكان فى رشد الكليم
وغدا وراح موحّداً قبل البنيّة والحطيم

كلا ! لم يكن أرسطاطاليس فى هدى المسيح ولا فى رشد الكليم ، ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرسطاطاليس ، ولعله لم يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء . ولكن الشيء المؤلم حقاً هو أن يقول شوقى عن أرسطاطاليس :

ورسائل مثل السُّلا ف إذا تمشت فى النديم
قدسية النفحات تُسـ كر بالمذاق وبالشميم
يا لُطف أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرخيم

أىّ الرسائل يريد ! ! ومن الذى يستطيع أن يزعم أن آثار أرسطاطاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد ! ومن الذى يستطيع أن يزعم أن فى رسائل أرسطاطاليس شيئاً قليلا أو كثيراً من هذه النفحات القدسية ؛ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن صوت أرسطاطاليس كان رخيما ! !

أفهم جدّاً ألا يتعمق الشعراء فى فهم المذاهب الفلسفية — وإنما أريد شعراءنا

خاصة — وأعذر شوقى وغيره إذا خيِّل إليهم أن توحيد أرسطاطاليس يشبه توحيد المسيح أو توحيد المسلمين ، فهو توحيد على كل حال . وقد لا يصح أن نلح على شعرائنا فى أن يدرسوا ما بعد الطبيعة ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نُواس ، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد ، فيخيل إليهم أن أرسطاطاليس كان حلو النثر رخيم الصوت قدسىّ النفحات ، تشبَّه آثاره بالسلافة . صفْ بهذه الأوصاف كلها أفلاطون فلن تبلغ من وصفه ما تريد ، ولكن لا تصف بها أرسطاطاليس . فكم كدّ نثر أرسطاطاليس عقولا وصدع رءوساً . والأستاذ لطفى السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيد بأن نثر أرسطاطاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء ، وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير ، ولكنه نثر عالم قد أتقن لغته وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ، ويلائم بينها وبين حاجات العلم والفلسفة .

أنت لا تحمد أرسطاطاليس ولا تحسن إليه بهذه الصفات ؛ فقد لا يكون من الخير للعالم أن تكون لغته ساحرة فتانة ؛ لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها ، وإنما هو محتاج إلى الدقة وإلى التشدد فى الدقة ، وإلى أن يسمى الأشياء بأسمائها — ولكنى قد قلت لك إن شوقى أراد أرسطاطاليس ، وأراد الله أفلاطون .

على أنى أنتقل من هذا العيب إلى عيب آخر يشبهه ، وقد اشترك فيه شوقى ، وحافظ ، ونسيم ، وغيرهم من الكتاب أيضاً ، وهو أنهم لم يقرءوا كتاب الأخلاق ، ولم يقدروه قدره ، ولم يفطنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته ؛ فهم قد فُتنوا بلفظ الأخلاق ، وخيل إليهم أن أرسطاطاليس قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألّفه ، وأن لطفى قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ترجمه . ولعل الرجلين قد فكرا فى شىء من هذا ، ولكنى أستطيع أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف الكتاب وترجمته علمى لا عملى ، وأن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ والإرشاد . وما أظن أن كتاب أرسطاطاليس فى الأخلاق يصلح مراماً للوعاظ والمرشدين ، وإنما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه فى الجامعة وفى مدرسة الحقوق .

وهل أستطيع أن ألفت شوقى إلى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسطاطاليس حين قال :

يبنى الشرائع للعصور بنـــاء جبّـــار رحيم

فقد يكون أرسطاطاليس درس السياسة ، ووضع فى هذا الدرس أصولا قيمة ، ولكنه لم يبن الشرائع . وإذا كان هناك فيلسوف يونانى شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين .

كل هذا يدلنا على ما قدّمت من أن شوقى لم يدرس أرسطاطاليس قبل أن يمدحه . فلندع هذا العيب الأساسى إلى ملاحظات أخرى فنية .

انظر إلى هذه الأبيات :

وسريت من شعب الألمـ ـب به إلى وادى الصريم
فتجارت اللغتـان للـ ـغايات فى الحب الصميم
لغـة من الإغريق قيـ ـمة وأخرى من تميم

ألاحظ قبل كل شىء أنى لو كنت مكان شوقى لما ذكرت « الألمب » بعد أن زعمت أن أرسطاطاليس كان على نهج المسيح وفى رشد الكليم . فالألمب مستقر الوثنية اليونانية ، وعلى قمته كان يقوم قصر كبير الآلهة « زوس » . وألاحظ بعد هذا أن القافية قد عبثت بهذه الأبيات عبثاً غير قليل . فما وادى الصريم هذا ؟ وما صلة لطفى السيد بوادى الصريم وهو إنما نقل أرسطاطاليس إلى وادى النيل ! ! وما شأن تميم ؟ وهل من الحق أن اللغة التى ترجم الكتاب إليها هى لغة تميم ؟ وهل نعرف لغة تميم حقـًّا ؟ ! ولم لا تكون لغة قريش فهى لغة القرآن ، وهى اللهجة العربية الوحيدة التى نعرفها حقـًّا ! ! ولكن تميما والصريم ينتهيان بالميم . وكم كنت أحب ألا يخضع شوقى للقافية هذا الخضوع .

وبعد فإن من الجحود والظلم ألا أثنى على هذا البيت القيم الملائم للحق ملاءمة تامة ، وهو قوله :

لمسوا الحقيقة فى الفنـون وأدركوهـا فى العلوم

هذا البيت آية فى الصدق ؛ فقد لمس اليونان الحقيقة فى الفن وأدركوها دون أن يلمسوها فى العلم . أكرر أن هذا البيت آية فى الصدق ، ومثلٌ جيد للإيجاز البديع . وقد أسرف فى الظلم أيضاً إذا لم أثن على هذا الجمال اللفظى فى قوله :

العاشقـين العـلم لا يألونه طلب الغريم
المعرضـين عن الصغا ئر والسعاية والنمـيم

وإن كان لفظ « الصغائر » لا يعجبنى . وقد يكون من الإنصاف أيضاً أن أثنى على هذه الأبيات التى تمثل إنصاف شوقى ووفاءه وكرم خُلقه :

قسماً بمذهبك الجميل ووجه صحبتك القسيم
وقديم عهد لا ضئيـ ـل فى الوداد ولا ذميم
ما كنت يوماً للـكنا نة بالعدوّ ولا الخصيم
لـمّا تلاحى الناس لم تنزل إلى المرعى الوخيم
كم شاتم قابلتـه بترفـع الأسد الشتيم
وشغلت نفسك بالخصيـ ـب من الجهود عن العقيم
فخدمت بالعـلم البلا د ولم تزل أوفى خديم

* * *

ولندع قصيدة شوقى إلى قصيدة حافظ . وليكونن موقفنا مع حافظ أشد حرجاً ومشقة من موقفنا مع شوقى . ذلك لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر .

قلنا إن شعراءنا الثلاثة لم يقرءوا كتاب أرسطاطاليس ، وما نظن أنهم تجاوزوا مقدمة المترجم العربى . ولكن حافظاً يزعم لنا أنه قرأ الكتاب فيقول :

إنى قـرأت كتابه بين الخشوع والاعتبار
فإذا المؤلف ماثـل جنب المترجم فى إطار
وعليهمـا نور يفيض من المهابـة والوقار

كلا يا حافظ ! لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، ولم تر المؤلف والمترجم ماثلين فى إطار ، وإنما تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذى تذكره ، وأنا زعيم بأنك لن تجادل ولن تمارى فيما أقول .

فلو أنك قرأت الكتاب حقّاً ورأيت الفيلسوفين فى هذا الإطار يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا . وهل تريد أن تقنعنى بأن شاعراً مثلك مجيداً غنيّاً خصب الخيال يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرسطاطاليس ويتفهمه دون أن يوحى إليه الشعر آية من آيات البيان فى وصف هذا العقل الذى لم تعرف الإنسانية مثله بعد ؟ ! كلا ! أنت كشوقى لا تعرف أرسطاطاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذ لطفى ، ولكنك أحق بالرضا ، وأقل تعرضاً للعتب من شوقى . ذلك لأنك ذهبت مذهب أرسطاطاليس فلم تلتمس ما ليس فى يدك ، ولم تتجاوز الأفق الذى أنت

فيه ، مدحت لطفى خاصة ، وتأدبت مع أرسطاطاليس لا أكثر ولا أقل . ومن هنا أحسنت فى مدح لطفى إحساناً لا بأس به وإن لم يقصر عن مثله شوقى . ولكن حدثنى عن هذا البيت :

بكتاب أرسطاطاليس تا ج نوادر الفلك المــدار

ألم يثقل عليك ! أتحب هذه الإضافات ؟ ! وما معنى « نوادر الفلك المدار »؟ وما معنى تاج هذه النوادر ؟ وما معنى أن يكون كتاب أرسطاطاليس تاجاً لهذه النوادر ؟ أعترف أنى لا أفهم شيئاً إلا أنك سلكت هذه الطريقة الطويلة لتصل إلى لفظ « المدار » فتظفر بقافية وتحشر فى القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه . وكذلك استعبدتك القافية فى قولك :

تزن الكلام كأنــــه ماس بميزان التجار

فما ميزان التجار ؟ وما الحاجة إليه إلا أنه قافية ؟ !

ولكنى أثنى فى غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقًّا ، الصادقة حقًّا :

قالوا لقد هجــر السيـ اسة وانزوى فى عقر دار
ترك المجال لغـــيره ورأى النجاة مع الفرار
لا تظلموا رب النهى وحذَارِ من خطل حذار
هجــر السياسة للسيا سة لا لنوم أو قرار
لو أنهم علموا الذى يبنى لهم خلف الستار

وإن كنت أجد شيئاً من الابتذال فى قوله « ترك المجال لغيره » ، وأشعر بأن لفظ « مع » شديد القلق فى هذا الشطر : « ورأى النجاة مع الفرار» . وهلا قال : « ورأى الركون إلى الفرار » .

وهل يأذن لى حافظ فى ألا أحب « لقم الطريق » فى قوله :

واجعل على لَقَم الطريـ ق صُوًى تلوح لكل سار

وقد يكون اللفظ صحيحاً ، ولكن ليس كل صحيح جيداً ملائماً للغة الشعر . وأكبر ظنى أننا مدينون بهذا البيت كله للفظ « سار » فهو قافية ؛ والسرى لا يستتبع الصوى والأعلام . والصوى والأعلام تستتبع الطريق ، ولكنها لا تستتبع « لقم الطريق » .

وهل يغضب حافظ إذا لم أرتح إلى قوله :

عجِّل بهـــا قبل « الفسا   د » وقبل عادية البوار

وأنا أعلم أنه يطلب إلى الأستاذ لطفى السيد أن ينشر كتاب « السياسة » قبل كتاب « الكون والفساد » ولكن ألا يشاركنى حافظ فى أن ضرورات الشعر قد تكون منكرة أحياناً ، وفى أن التعبير بالفساد عن « كتاب الكون والفساد » ضرب من هذه الضرورات المنكرة ! . ولكن أشد من هذه الضرورة نكراً « عادية البوار » التى جاءت لا أدرى لماذا ! أستغفر الله ! جاءت للقافية ، فآخرها راء ، وويل لشعرائنا من القافية !

وسواء أرضى حافظ أم غضب فسأقول ما فى نفسى ورزقى على الله ، كما يقولون . ظن حافظ أن كتاب « السياسة » لأرسطاطاليس قد يعيننا على معالجة السياسة الإنجليزية وحل المسألة المصرية ، ولهذه آثره على كتاب « الكون والفساد » وطلب إلى الأستاذ لطفى أن يقدمه وأن يتعجل فى نشره ولم لا ! ألسنا متعجلين فى حل المسألة المصرية تتحرق أكبادنا ظمأ إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ! ولكن كتاب « السياسة » لا يقدِّم ولا يؤخر فى حل المسألة المصرية ولا فى فهم السياسة الإنجليزية ، ولن ينتفع به الوفد الرسمى الذى سيعالج « شامبراين » أو « كرزن » أو « ماكدونالد » ، كما أن الشيخ الحربى لن ينتفع بكتاب الأخلاق حين يريد أن يعظ المجرمين . ولندع قصيدة حافظ إلى قصيدة نسيم .

* * *

ولكنى متهم حين أعرض لنسيم ؛ فقد تفضل بالثناء علىّ ، وأشار إلى أن لى نثراً يعجبه . على أنى سأكون حرًّا ، وسأغضب نسيما كما أغضبت صاحبيه ، فهو مثلهما ينتظر من كتاب الأخلاق ما ينتظران وما لم ينتظر أرسطاطاليس ولا لطفى . وكما أن شوقى قد أخطأ حين قارن بين أرسطاطاليس والمسيح ، فقد أخطأ نسيم حين ذكر « هوميروس » على أنه من شعراء المدح ، وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفى شاعر كهوميروس . فما كان هوميروس مادحاً ، ولا هو من أصحاب المديح ، وإنما هوميروس وأصحابه أهل قصص وإشادة بذكر الأبطال الذين انقضت عصورهم . فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو « بسندار » وتلاميذه ، وشعراء الإسكندرية خاصة « ككاليماك » و « تيوكريت » وغيرهما .

وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية وتكلف فى شأن القافية ، ولكننى أعترف — لا لأن نسيما ذكرنى — بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتى صاحبيه ، بل أعترف بشىء آخر أجل من هذا خطراً ، أعترف بأن فى قصيدة نسيم شيئاً من الخفة لم يوفق له شوقى ولا حافظ . وانظر إلى مطلع قصيدته :

شعرٌ يُزَفّ بلا نسيب　　　وبلا شكاة من حبيب
ما عيبُ مُرْقصة خلتْ　　　من ذكــر غانية لَعوب

فى هذا الكلام — على أنه عادى — شىء من الظرف والعذوبة . وفى قصيدة نسيم شىء آخر وهو أن شخصيته ظاهرة مؤلمة مؤثرة ؛ فهو لم ينس ابنه ، ابنه الذى فقده ، ولم يكره وهو شاعر أن يتحدث بحزنه وبثه إلى ممدوحه وهو فيلسوف . وأحسب أن الأستاذ لطفى تأثر بهذه الأبيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح نسيم وصاحبيه ، فأنا أعرفه حسَّاساً رقيق النفس .

وفى قصيدة نسيم هذه الأبيات التى تقدمه على صاحبيه لأن فيها فكرة طريفة جريئة . أليس يتمنى على الملك فؤاد أن يكل تربية ولى العهد إلى لطفى مترجم أرسطاطاليس ، كما وكل فيليب تربية الإسكندر إلى أرسطاطاليس ! !

ليت المليك وقد رأى　　　ما فيك من خلق رحيب
يُدْلى إليــك بناشئٍ　　　فى حجر سُــدّته ربيب
تسقيه من نهى العــلو　　　م وِوردها غير المشوب
وتُــريه فى ريعانه　　　وضــح المسالك والدروب
فهنــالك الفاروق يصبـ　　　ـح كابن فيلبس المهيب
يمشى بنورك فى الصبا　　　ويُشيد باسمك فى المشيب

أنا أقدّم فى هذه المرة نسيما على صاحبيه .

« مختارات سلامة موسى »		للأستاذ سلامة موسى

« مطالعات فى الأدب والحياة »		للأستاذ عباس محمود العقاد

أريد أن أدع هذا العصر الذى نعيش فيه ، لأنى أحس شيئاً من الضيق فى البحث عنه ودرس كتّابه وشعرائه . أحس شيئاً من الضيق لأنى أجد فيه نقصاً شديداً ، ولأنى أشعر بأن حريتنا محدودة جدًّا إذا أردنا أن نعرض للمعاصرين بالنقد والتقريظ . فخير لنا أن ندع هذا العصر الذى يستمتع أهله بالحرية فى حياتهم اليومية ، ولكنهم يكرهون هذه الحرية فى حياتهم العقلية ، إلى عصور أخرى لم يستمتع أهلها بالحرية ، ولكن مُضىّ الزمن قد أتاح لنا أن نتناولها بالدرس والنقد أحراراً لا يحدّ حريتنا إلا العلم وما يقتضيه من إخلاص وإنصاف .

أريد أن أدع هذا العصر ، ولكن شيئاً يمسكنى ويضطرنى إلى أن أبقى فيه يوماً أو يومين ، وإلى أن أكتب فيه فصلا أو فصلين ، وأحس فى نفسى أنى أسىء إلى هذا العصر وإلى حق الحرية العقلية علينا إذا تركته إلى العصور الأخرى دون أن أقول فيه ما أريد أن أقول ، ودون أن أعلن فيه آراء أشعر بها وأرى أن من الحق علىّ إعلانها . فلو أن الناس جميعاً صنعوا مثل ما أصنع وأبوا أن يتناولوا العصر الذى يعيشون فيه بالنقد ، لكانت النتيجة منكرة ، ولتعرضت الحرية العقلية لخطر شديد . وقد يكون من حق الناس أن يحرصوا على الحرية فى حياتهم اليومية العادية ، ولكن من الحق عليهم أن يشتد حرصهم على الحرية فى حياتهم العقلية . فلأعلن رأيى إذاً ولأكن حرًّا فى إعلان هذا الرأى ، ولأبق فى هذا العصر يوماً أو يومين ، ولأكتب فيه فصلا أو فصلين ، ولأجتهد ما استطعت فى أن أتبين ما لهذا العصر الذى نعيش فيه من قيمة أدبية قليلة أو كثيرة ، وليكن الناس أحراراً فى أن يحمدوا ذلك منى أو يذموه ، وفى أن يعرفوا ذلك أو ينكروه ، فأنا أكتب للناس من غير شك ، ولكنى أكتب لنفسى قبل أن أكتب للناس .

أعترف بأنى قضيت ساعات لذيذة جدًّا مع الأستاذين سلامة موسى وعباس محمود العقاد ، وأنا لا أعرفهما ولم أتحدث إليهما قط فيما أذكر ، ولكنى مع ذلك

أحمد هذه الساعات التى قضيتها معهما ، وأشكر لهما أجمل الشكر ، وأقدم لهما عليها أحسن الثناء . قضيت معهما ساعات قصاراً لم تتح لى أن أقرأ كتابيهما القيمين اللذين سأحتفظ بهما أمامى حتى أفرغ من قراءتهما متى أذن العمل وسمحت بذلك الظروف ، ولكنى قرأت فى كتابيهما فصولا ، وأنا سعيد مغتبط بأن أعلن أنى لم آسف على الوقت الذى أنفقته فى قراءة هذه الفصول ، وإنما حمدت إنفاق هذا الوقت الذى أنفقته وأنا أتمنى أن يتيح لى العمل وظروف الحياة وقتاً آخر أنفقه فى إتمام الكتابين ، بل فى استعادة فصول منهما .

لست أدرى فى أى كتاب فرنسى قرأت أن موسيقياً استمع لموسيقى آخر وهو يُوقع على البيانو ، استمع له ساعة أو ساعتين ثم قال له : حسبك ، فقد عرفت الآن صوت نفسك . يريد أنه عرف موسيقاه وأسرارها وخواصها وما بينها وبين نفسه من صلة .

لست أدرى أين قرأت هذا الكلام ، وأحسبنى قرأته فى كتاب من كتب الأديب الفرنسى المعروف « رومان رولان » . وسواء أصدقتنى الذاكرة أم كذبتنى فأنا لم أخترع هذه القصة اختراعاً ، وإنما قرأتها فى كتاب ، وأنا أستعيدها الآن وقد قرأت فصولا من كتاب الأستاذ سلامة موسى وفصولا أخرى من كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد ، ولم أتم قراءة الكتابين ، لأقول لهما : حسبكما ، فقد عرفت صوت نفسيكما وأنا بهذه المعرفة مغتبط سعيد .

وأنا أعلم حق العلم أن الناس جميعاً سيقبلون منى ما أقول فى الأستاذ سلامة موسى مهما يكن ؛ لأن الأستاذ سلامة موسى ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ؛ فقد يكون سعدياً ، وقد يكون حراً دستورياً ، وقد يكون وطنياً ، بل قد يكون اتحادياً ، ولكنه على كل حال لا يعلن رأيه السياسى أو لا يتكلف إعلانه ولا يتخذه لنفسه لوناً . وإذاً فأنا حرٌ فى أن أحمد كتابه أو أن أذمه ، وأنا حرٌ فى أن أتناوله بالنقد أو التقريظ ، لأنه ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ؛ فالناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى كاتب مفكر ليس غير .

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فله شأن آخر ، لنقده أو تقريظه شأن يخالف نقد الأستاذ سلامة موسى أو تقريظه . ذلك لأن الأستاذ عباس محمود العقاد من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ، وأى لون سياسى ! وأى ظهور ! هو سعدى مغرق فى السعدية ، وهو كاتب من كتاب « البلاغ » وإذاً فعاداتنا

وآدابنا السياسية تقتضى أن نسلك معه طريقاً غير الطرق التى نسلكها مع المحايدين أو مع الأنصار السياسيين . فإذا تجاوزنا هذه الطريقة الخاصة التى تقتضيها الخصومة السياسية الحزبية فلن نعدم من خصومنا السياسيين من يتخذ هذا حجة علينا ، ولن نعدم من أنصارنا السياسيين من يخالفنا فى الرأى أو من يغاضبنا مغاضبة تختلف شدة وضعفاً باختلاف مزاجه وطبيعته وقوة إيمانه بمذهبه السياسى . ومع ذلك فقد أخذت نفسى بأن أكون حرًّا فى النقد ، وأعطيت على نفسى موثقاً من الله لأكونن حرًّا مطلق الحرية ، ولأنسين فى هذا النقد صلات المودة والقربى وعواطف الرضا والسخط . وإذا كنت قد أخذت نفسى بتلك الخصلة وأعطيت على نفسى هذا الموثق وتناولت الأصدقاء والزملاء والأساتذة بالنقد والتقريظ ، لم أصطنع فى هذا كله إلا الإنصاف والحق ، فقد يكون لى أن أتجاوز الخصومات السياسية ، وأن أجعل خلاف الأحزاب دبر أذنى وتحت قدمى ، لأقول كلمة حق فى الأدب ليس بينها وبين السياسة والأحزاب صلة .

فليطمئن خصومنا السياسيون ، وليطمئن أنصارنا السياسيون أيضاً ، وليعترف أولئك وهؤلاء بأن للعلم والأدب حقهما فى الوجود إلى جانب السياسة والأحزاب . وإذا كان من الحق أن ليس للعلم والأدب وطن ، فمن الحق أيضاً أن ليس للعلم والأدب حزب سياسى . وإذا كنت قد أخذت نفسى بأن أكون حرًّا فى النقد فلأكن حرًّا حقًّا ، ولأنس فى سبيل الأدب والعلم مذهبى السياسى كما نسيت عواطف المودة والقربى ومكانة الزميل والأستاذ . والناس أحرار فى أن يذهبوا مذهبى أو ينصرفوا عنه ؛ فقد قلت وأعيد أنى أكتب لنفسى قبل أن أكتب للناس .

ليطمئن أولئك وهؤلاء مرة أخرى ؛ فأنا أمقت المذهب السياسى للأستاذ عباس العقاد مقتاً شديداً وأزدريه ازدراء لا حد له ، ولا أقرأ للأستاذ العقاد فصلا من هذه الفصول السياسية التى يكتبها فى « البلاغ » ولن أقرأ منها فصلا ، بل لم أقرأ من فصولها الأدبية فصلا فى « البلاغ » ، ولولا أنها جمعت فى كتاب وانفصلت عن هذا السخف السياسى المنكر الذى تنشره هذه الصحيفة السخيفة لما قرأتها ولا نظرت فيها ، ولكنى رأيت أمامى كتاباً فى الأدب ؛ فنظرت فيه وقرأت بعض فصوله ، ورأيت أنه خليق أن ينقد وأن تقال فيه كلمة حق وإنصاف . سأنقده وسأقول فيه كلمة الحق والإنصاف هذه ، وسيكون هذا النقد وهذا الإنصاف فى جريدة السياسة التى تخاصم السعديين وتزدرى سياستهم ؛ لأن « للسياسة »

إلى جانب مذهبها السياسى الحزبى مذهباً آخر تقدّسه وتجدّ فى تقديسه ، ولا يفهمه غيرها من الصحف ، وهو حرية الرأى مهما يكن صاحبه ومهما يكن لونه السياسى .

ولكن أريد أن أبدأ بالأستاذ سلامة موسى ، لأنى لن أتكلم عنه كثيراً كما أريد أن أتكلم عن الأستاذ محمود العقاد .

لن أتكلم عنه كثيراً لأنه ليس فى حاجة إلى كلام كثير ؛ فهو ساذج سهل خفيف الروح محبب إلى النفس ، شديد البغض للتكلف قليل الحظ منه أو ليس له منه حظ ما . وإذاً فأنت تستطيع أن تكتفى بأن تقول عنه إنه كاتب خصب مجيد . هو كاتب خصب قبل كل شىء ، ويكفى أن تقرأ هذا الكتاب الذى أذيع فى الناس منذ حين أو أن تقرأ طائفة من فصوله لتعلم أنى لم أكذبك ولم أسرف عليك ؛ فقد تناول موضوعات مختلفة شديدة الاختلاف ، وعرض لمسائل مفترقة عظيمة الافتراق ، وأنت مع ذلك تجده يتنقل فى هذه الموضوعات والمسائل فى غير تكلف ولا مشقة كما يتنقل الرجل فى بيته الذى ألفه وأطال الإقامة فيه من غرفة إلى غرفة ومن حجرة إلى حجرة دون أن يشعر بوحشة أو غربة . هو خصب بل شديد الخصب ؛ لأنه كثير القراءة ، وأحسبه مسرفاً فيها ؛ فهو يقرأ فى الأدب العربى ، وهو يقرأ فى الأدب الغربى ، وهو يقرأ ضروباً من العلم مختلفة وألواناً من الفلسفة متباينة . وهو لا يقرأ لنفسه وحدها وإنما يقرأ لنفسه وللناس أيضاً ، ليس بخيلا ولا ضنيناً ، ليس أثِراً ولا مجدًّا فى حب نفسه ، لا يريد أن ينتفع وحده ، وإنما يريد أن ينتفع الناس معه . ولعله يكره أن ينتفع وحده دون أن ينتفع الناس معه .

قلت إنه يقرأ فى الأدب العربى والغربى ، ويلم بضروب من العلم وألوان من الفلسفة . وقلت قبل هذا إننى لم أعرفه ولم أتحدث إليه . وإذاً فلم أعرف عنه كثرة القراءة وتنوعها إلا لأنى رأيته يتحدث فى موضوعات كثيرة متنوعة ، ويتحدث فيها عن علم وبصيرة وعن دراية وفهم . وهو كثير القراءة متنوعها ، وهو كثير الاستفادة من هذه القراءة المتنوعة والانتفاع بها ؛ فقد منحته شيئاً من الذوق وحسن الفهم قلما يظفر به المصريون . تقرؤه فكأنك تقرأ أحد كتاب الإنجليز الذين أحسنوا الدرس وثقفوا عقولهم تثقيفاً متقناً . هو مثقف حقًّا ، ولكنى أريد أن أكون حرًّا ، ولن يكره منى الأستاذ سلامة موسى أن أكون حرًّا معه ، فالمثقف حقًّا

يحب الحرية ولا يكرهها . وأنا أشهد أنه مثقف حقًّا ، وإذاً فأنا أستبيح لنفسى أن أكون حرًّا فى نقده .

يخيل إلىّ أنه يسرف فى القراءة ، ويخيل إلىّ أن إسرافه فى القراءة هذا يحمله على الإسراف فى الكتابة أى يحمله على تناول موضوعات لم يتقنها ولم يقتلها ، لا أقول علماً ، وإنما أقول بحثاً وتفكيراً . وأحسبه لو فكر فيما يعلم واصطنع الأناة فيما يكتب ، لاستطاع أن يتجنب شيئاً من السخف يتورط فى مثله كبار الكتاب حين يجتنبون الأناة والروية فيما يكتبون .

يقول الأستاذ سلامة موسى مثلا : إن المصريين القدماء فكروا فى الموت كثيراً وتحدثوا عن الموت كثيراً . وهذا حق لا شك فيه ، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولن يستطيع الأستاذ أن يفهمه إذا خلا إلى نفسه هو قوله : إن تفكر المصريين فى الموت كثيراً وذكرهم للموت كثيراً قد استتبعا هذه النتيجة الغريبة ، وهى أن الأمة المصرية ماتت موتاً لم تمته أمة أخرى ، ففقدت استقلالها ألفى عام . هذا إسراف فى القول ولعب بالألفاظ . فقد تكون الأمة المصرية نامت ولكنها لم تمت . وليست العاطفة الوطنية ولا تملق الجماهير هو الذى يحملنى على أن أنكر أن الأمة المصرية قد ماتت فى عصر من عصورها ؛ فأنا شديد المقاومة فى العلم للعواطف الخاصة على اختلافها ، وأنا قليل الاكتراث لعواطف الجماهير وأهوائها ، ولكنى مع ذلك أعتقد أن الأمة المصرية لم تمت قط وهى لم تفقد استقلالها ألفى عام ، ولئن كانت قد فقدته حيناً أو أحياناً إنها لم تنسه قط . ولو أن الأستاذ سلامة موسى فكر قليلا لرأى ما أرى ولقال كما أقول . لم تمت الأمة المصرية ؛ وآية ذلك أنها لا تزال حية تشعر وتحس وتفكر وتناضل فى سبيل الحياة . ولم تنس استقلالها يوماً منذ دالت دول الفراعنة ؛ وآية ذلك أن الأجانب الذين تسلطوا عليها قد اضطروا دائماً إلى إحدى اثنتين : فإما أن يتجنسوا بجنسيتها المصرية ويندمجوا فيها ، وإما أن يأخذوا مصر بشىء من العنف والقهر يشبه الأحكام العرفية ، كذلك اتخذ المقدونيون والمماليك والفاطميون الجنسية المصرية ، فأتيح لهم المجد واستقرار الملك وأصبحت دولهم مصرية كدول الفراعنة ، وأبى الفرس والرومان والبيزنطيون الأولون أن يتجنسوا بالجنسية المصرية ، فلم يستقر لهم أمر فى مصر إلا بالعنف والقهر وبالسطو والبأس . لم تمت الأمة المصرية ، ولم تنس استقلالها . ومتى ماتت هذه الأمة ؟

أكانت ميتة حين أساغت الفلسفة اليونانية وطبعتها بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين أساغت الديانة المسيحية وطبعتها بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين أساغت الإسلام وطبعته بطابعها الخاص ؟

أكانت ميتة حين آوت حضارة اليونان والعرب وآداب اليونان والعرب ؟ ومع هذا فهى قد فعلت هذا كله فى العصر الذى يزعم الأستاذ سلامة موسى أنها كانت فيه ميتة قد فقدت الاستقلال . وهبها ماتت حقاً وفقدت استقلالها حقاً ، أفتظنها ماتت لأنها أكثرت التفكير فى الموت وأسرفت فى ذكر الموت ، كما يقول الأستاذ سلامة موسى ؟ وكيف يستطيع رجل كالأستاذ قد ألم بضروب من العلم مختلفة وذاق ألواناً من الفلسفة متباينة أن يعتقد أنه يكفى أن نفكر فى الموت ونذكره لنموت ! ولكن الأستاذ لا يعتقد هذا ولا يريده ، وإنما فتنته صورة لفظية حلوة ، وهى أن الأمة المصرية ماتت لأنها أسرفت فى ذكر الموت . فتنته هذه الصورة اللفظية فصرفته عما كان فيه من جد . وقد أفهم أن يلهو الكاتب ويداعب الفن ، ولكنى أريد أن يكون الكاتب حريصاً ، لأنه وإن كان يكتب لنفسه فالناس يقرءون ما يكتب ، وهم لا يفهمونه كما يفهمه ، ولا يقدرونه كما يقدره ، وإذاً فشىء من الاحتياط لا بأس به .

كان اليونان يتخذون لأنفسهم مثلا قامت عليه فلسفة سقراط وأفلاطون وأخلاق أرسطاطاليس ، وهو : « لا تسرف » . وأحسبنى محتاجاً إلى أن أذكر الأستاذ سلامة موسى بهذا المثل الحكيم ؛ فهو من أنصار الجديد ، وهو يعلم أنى أرى رأيه وأشاركه فيه دون تحفظ ولا احتياط . ولكن نصره للجديد قد اضطره إلى شىء من الإسراف كنت أحب — وما زلت أحب والأستاذ مثلى يحب — ألا يتورط فيه الباحثون المنصفون وهو مسرف فى ازدراء الأدب العربى القديم والغض منه . وقد أفهم ألا يكون هذا الأدب القديم كما هو ملائماً كله لذوقنا الحديث أو كافياً لحاجات أنفسنا ، ولكن القدماء لم يضعوا أدبهم لنا وإنما وضعوه لأنفسهم . وليس من شك فى أن هذا الأدب القديم كان يلائم أذواق القدماء وحاجات نفوسهم ، فإذا لم يلائم أذواقنا وأهواءنا فلنبتغ غيره لا أكثر ولا أقل . وهو مسرف أيضاً حين يقول : إن الأدباء المصريين لم يكن لهم شأن فى حركة الاستقلال ؛ فهم لم يقودوا الأمة فى هذه الحركة ، وإنما قادتهم الأمة ، بل قادهم الرّعاع إلى الاستقلال . قد يكون هذا حقاً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الذين تبعوا الجمهور ولم يتبعهم.

ولكن الأستاذ نفسه قد كتب فصلا عن المجددين ذكر فيه الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد ونسى فيه مصطفى كامل ، فما رأيه فى هؤلاء ؟ ألم يكونوا من الأدباء ؟ أقادوا الأمة إلى الاستقلال أم قادتهم الأمة إلى الاستقلال ؟ يقول الأستاذ إن لطفى السيد قد أوجد فكرة الوطنية وجمع حولها المسلمين والأقباط . وهذا صحيح ، وصحيح أيضاً أن الأستاذ لطفى السيد قد أوجد فكرة الاستقلال التام قبل أن تعلن الحرب الكبرى وقبل أن ينشأ الوفد وقبل أن يؤم الثلاثة دار الحماية . وإذاً فمع احتفاظنا بالنسبة نستطيع أن نقول : إن مصر لم تخل من « روسو » و «منتسكيو» و « فولتير » . والأستاذ مسرف فى هذا الفصل الذى كتبه عن الوزير الفرنسى « مرسيل سانبا » . فلست أدرى إلى أى حد كان هذا الوزير من كبار الأدباء الذين يؤبه لهم فى الأدب ، ولكنى أعلم أنه كان من زعماء الاشتراكية ، وكان بحكم مذهبه السياسى يؤثر العلم على الأدب . وقد سمعته يخطب فلم يعجبنى ، وهو لن يعجبك إذا قرأت ما نقل عنه الأستاذ سلامة موسى ، فهو يذم الفلسفة ويغرق فى ذمها ، ولكنه مع ذلك يفلسف حين يذكر أن لكل فرد نفسين : نفساً فردية وأخرى اجتماعية ! كأن الإنسانية قد فرغت من إثبات وجود النفس الفردية لتشقى بالبحث عن هذه النفس الاجتماعية الجديدة . وهو يذم الأدب ويزدريه ، ولكنه يغرق فى الخيال حين يزعم أن الإنسانية بعد ثلاثة قرون ستستطيع أن تسبح فى الكون ، وأن تنتقل من كوكب إلى كوكب ، وأن تهاجر من الأرض إلى أى كوكب يروقها ؛ قد يكون هذا كله حقاً بعد قرون ، ولكنه الآن خيال ، وهو إلى الأدب أقرب منه إلى العلم .

كتاب الأستاذ سلامة موسى روضة قيمة نضرة ، لا تستطيع أن تلم بها دون أن تجد فيها فائدة ولذة .

* * *

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فأريد أن أنقده ، ولكنى أعترف بأنى خائف متهيب ؛ لأنه مهيب مخوف . فلأكن شجاعاً ، ولأهجم على كتاب الأستاذ فى ثبات وأمن ، ولأعترف بأنى أحسست حين نظرت فى هذا الكتاب شيئين متناقضين أحسست سخطاً وأحسست رضاً ، وبعبارة واضحة أحسست غموضاً وسخفاً ، وأحسست وضوحاً وقيمة ، ولأفصل :

قرأت مقدمة الكتاب فسخطت وضجرت وضقت ذرعاً بالكاتب وكتابه ، وأكرهت نفسى على المضى فى قراءته ، ذلك لأنى لم أفهم من المقدمة شيئاً . . . . نعم ! لم أفهم منها شيئاً . ويقينى أن المتواضعين أمثالى لن يفهموا من هذه المقدمة شيئاً ، لا لأنها لا تدل على شىء ، بل لأنها أدق من أن تتناولها العقول المتواضعة . أنا أريد أن يضحك الأستاذ العقاد ، وأزعم أنه لم ولن يفهم من مقدمته شيئاً ، لا لأنها لا تدل على شىء بل لأنها أدق من أن يفهمها عقل الأستاذ العقاد نفسه . سألت نفسى حين كنت أسمع هذه المقدمة : هل درس المؤلف اللغة الألمانية ؟ وهل تعمق فى الفلسفة الألمانية حتى طبعته بطابعها ووسمته بسمتها ؟ وأحب أن يضحك الأستاذ العقاد وأن يضحك القراء جميعاً منى لا من المؤلف ، وأحب أن يكون أول الضاحكين صديقى منصور فهمى . فأنا أعترف بأن الفلسفة الألمانية تمتاز عندى بالغموض والإبهام ، وأن الله لم يوفقنى فى يوم من الأيام إلى أن أفهمها أو أجد فيها لذة إلا حين كنت أقرؤها فى الكتب الفرنسية الملخصة . ومع ذلك فقد وجدت لذة عند أفلاطون وأرسطاطاليس والفارابى وابن سينا ، بل عند الدوّانى والتفتازانى ، وعند « ديكارت » و « كونت » و « إسبنسر » و « بركسون » ، وجدت اللذة العقلية عند هؤلاء جميعاً . ماذا أقول ! بل وجدتها عند « جوت » و «سيلير وهين» ولكنى لم أجدها عند « أمانويل كانت » ولا عند « هيجل » . ولقد ضقت ذرعاً غير مرة بنقد العقل المحض ، ونقد العقل العملى ، وانصرفت غير مرة عن المؤلف إلى الشراح الفرنسيين لأعرف شيئاً عما أراده فيلسوف ككنزبرج . إذاً فأنا أعترف بأن مقدمة الأستاذ العقاد قد ذكرتنى بتلك الأيام السود التى قضيتها مع « كانت » و « هيجل » ، واتهمت فيها نفسى بالغباوة والجهل ، وقلت مذعناً لقضاء الله ضاحكاً من نفسى ومن الفلسفة ومن الفلاسفة : وفوق كل ذى علم عليم . وإذاً فقد ضقت ذرعاً بالعقاد وكتابه ، وبحثت فى غير نفع عن الجمال كما يريده العقاد فى مقدمته ، وعن الحياة كما يريدها العقاد فى مقدمته ، فلم أجد شيئاً ، أو قل وجدت شيئاً أكرهه ، وهو أنى جاهل غبى قاصر عن فهم العقاد ، فقلت : وفوق كل ذى علم عليم . وأخذت أفكر فى الغموض وأسبابه ، وانتهيت فى ذلك إلى نظريات قد يتيح الله لى من الوقت والفرص ما يمكننى من ذكرها وتفصيلها ، ولكنى أكتفى الآن بالإشارة إلى أنى قلت فى نفسى : إن من الغموض ما يصدر عن جهل وغفلة ، كغموض قوم لا أريد أن أسميهم الآن لأنى لا أريد أن أضيف

خصوماً إلى خصوم ، وحسبي العقاد وأنصار العقاد . ومن الغموض ما يصدر عن إسراف فى العلم والفلسفة وقصور اللغة والبيان ، ومثلت لذلك بالعقاد ، أقولها وأمرى إلى الله . ومن الغموض ما يصدر عن طول اللسان وقصر العقل ، ومثلت لذلك بأديب ثرثار فى غير طائل ولكنه لا يخلو من أصل قيم ، ولا أريد أن أسميه لآن فله يومه ، وويل له منى وويل لى منه . ولأعد إلى العقاد . تركت هذه المقدمة الجبارة الطاغية ، ومضيت فى الكتاب فإذا علم حقاً ، وفهم حقاً ، وعقل المخليق أن يلتفت الناس إليه ، وما أشك فى أنهم قد فعلوا ؛ فقد وصل صوت الأستاذ إلى بغداد وكتب إليها منه كاتبون ، وهو خليق حقاً بهذه الشهرة .

أعترف بأن الأدب ثقيل أحياناً ! لأنه ينسيك الخصومة السياسية ويحبب إليك خصمك السياسى كما حبب إلىّ أدب العقاد ، وبأن السياسة ثقيلة أحياناً لأنها تنسيك القرابة الأدبية وتبغض إليك الأدب كما بغضت سياسة العقاد أحياناً أدب العقاد . ولست أخدع نفسى ؛ فمن الأدباء الذين يخاصموننى فى السياسة ويرون فيها رأياً غير رأيى من يقول فىّ ما أقوله فى العقاد . ولقد سمعت شباباً من السعديين يقولون فى محكمة الجنايات وقد خلبتهم بلاغة المحامين الذين كانوا يدافعون عن « السياسة » : ما أكفأهم أولاد الكلب لو لم يكونوا عدليين ، وأنا أعتذر إلى أساتذتنا من رواية هذا الكلام المنكر ، ولكنه يؤرخ أخلاقنا وآدابنا فى هذا العصر .

أعجبت إذاً بكتاب العقاد ولم أقرأه كله وإنما قرأت منه فصولا . ومهما تكن الظروف فلا بد من أن أقرأ ما بقى منه ؛ أعجبت بفهمه للأدب كما ينبغى أن يفهم الآن ، واحتياطه من الإسراف الذى تورط فيه الأستاذ سلامة موسى أحيانا والدكتور أحمد ضيف دائماً . أعجبت بتوفيقه إلى التفرقة بين حاجات القدماء والمحدثين ، وأعجبت بدقته فى فهم الهزل الأدبى والأدب الذى هو هزل كله . أعجبت بهذا كله إعجاباً لا حدّ له ولا تحفظ فيه ، لولا أن لغة الكاتب لا ترضينى من كل وجهة ، ففيها إهمال ، وهى لا تخلو من غموض ، مصدرها أن عقل الأستاذ أطول من لسانه . على أن شيئاً فى الكتاب أعجبنى بنوع خاص وهو هذه الفصول التى كتبها عن أبى العلاء عامة وعن رسالة الغفران خاصة ، لم أكد أرى هذه الفصول حتى حرصت على قراءتها حرصاً شديداً ! لأنى كما تعلم شديد الصلة بأبى العلاء ،

وأحب أن أرى آراء الناس فيه وأن أتبين مقدار ما بين هذه الآراء وبين آرائى من قرب أو بعد .

أول هذه الفصول يتناول حزن أبى العلاء وتشاؤمه . وليس ينكر أحد أن أبا العلاء كان حزيناً غالياً فى الحزن ، ومتشائماً مسرفاً فى التشاؤم . والناس جميعاً أحرار فى أن يحزنوا وأن يتشاءموا كأبى العلاء ، أو أن يبتهجوا ويبتسموا كأصحاب اللذة ، أو أن يتوسطوا بين الأمرين . الناس أحرار ، وهم لم ينتظروا أن نقول لهم هذا ليكونوا أحراراً وليذهبوا فى الحياة أحد هذه المذاهب الثلاثة . وإذاً للعقاد أن يحزن كما يحزن أبو العلاء ، أو أن يبتهج كما يبتهج أبو نواس ، أو أن يتخذ بين الأمرين مكاناً وسطاً . فالأمر فى هذا راجع إلى الطبيعة والمزاج قبل أن يرجع إلى العقل والتفكير . ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقاً فى رسالة الغفران ، هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد . نعم إن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه ، فهو بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء عاد فأثبت له منه حظاً قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئاً غيرى ، أما أنا فلن أنخدع له . فهو ينكر على أبى العلاء أن يكون شاعراً عظيم الحظ من الخيال فى رسالة الغفران. « سنه سوده » كما يقول العامة . وهل يعلم العقاد أن « دانت » إنما صار شاعراً نابغة خالداً على العصور والأجيال واثقاً من إعجاب الناس جميعاً بشىء يشبه من كل وجه رسالة الغفران هذه ؟ أستغفر الله ! إن من الأوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسا قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيراً .

وما الخيال ؟ أما إذا كان الخيال ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئاً من لا شىء أو يؤلف شيئاً من أشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال لأنه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئاً من لا شىء ولم يؤلف بين متناقضات ، ولكننا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالا وإنما يسمونها وهماً ، وهم ينبئوننا أن الخيال لا يخترع شيئاً من لا شىء وإنما يستمد صوره ونتائجه من الأشياء الموجودة يؤلف بينها تأليفاً غريباً يبهر النفس ويفتنها . وإذا كانوا صادقين ونحسبهم صادقين فحظ أبى العلاء من الخيال فى رسالة الغفران لاحد له . ليس لأبى العلاء حظ من الخيال ؛ وإذاً فماذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولمَ يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لأن خيال أبى العلاء

الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفاً غريباً قيما لذيذاً ! لم يكن أبو العلاء ملزماً أن يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار ! فـ « دانت » لم يخترع « فرجيل » ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيهم فيه ، وإنما استمدهم جميعاً من الأدب القديم أو من الدين المسيحى ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ، وخياله هذا مصدر مجده الخالد . لا تقل إن حظ أبى العلاء من الخيال قليل ، بل قل إن حظه من الخيال عظيم جدًّا قيم جدًّا خليق بالخلود ، لأنه الخيال الخصب المنتج حقًّا ، هو الخيال الذى تجده عند « دانت » والذى تجده عند « أناتول فرانس » . عند « أناتول فرانس » بنوع خاص . وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء ! ليس بين الرجلين إلا فرق واحد ، وهو أن تشاؤم الكاتب العربى محزون مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسى مبتسم مشرق . ومن غريب الأمر أن من الفرنسيين من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء . انخدع بعض النقاد الفرنسيين بكثرة ما يروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان فى القرون الوسطى فقالوا : إن الرجل لا شخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل . ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران ! لأن أبا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة ، وما أخذ عن رجال الدين . ولكن غير العقاد خليق بأن يتورط فى مثل هذا الخطأ . فسرُّ البلاغة — ولقد كدت أقول الإعجاز — أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفل عنه أديب كالعقاد .

أرى أن العقاد قد وفق التوفيق كله لفهم السخرية العلائيـــة فى رسالة الغفران . ولعلى أول من سبق إلى ذكر هذه السخرية ، ولعلى لقيت فى سبيل هذه السخرية العلائية شيئاً من العنت والأذى . ولكنى كنت أحب أن يذهب العقاد فى تحليل هذه السخرية العلائية إلى أقصى ما تنتهى إليه حرية البحث . فلم يكن أبو العلاء ساخراً من الناس فى حياتهم العاديه ولا أمالهم وأعمالهم وحدها وإنما رسالة الغفران مثل قوى شنيع للسخر بما كان للناس من مثل أعلى فى الدين ؛ فهو لا يسخر من شهواتهم ولذاتهم ، وإنما يسخر من دينهم ويقينهم . والذى أحب أن يلتفت إليه قارئ رسالة الغفران ليس هو هذه السخرية التفصيلية التى نجدها عند ما يعرض أبو العلاء لإوَزّ الجنة أو بقرها أو عند ما يعرض للخصومة بين الشعراء ، وإنما هى السخرية الجميلة العامة المنكرة التى تمثل الله عز وجل كأنه قد فرغ للذات أهل الجنة وشهواتهم يديرها ويدبرها ، لا عمل له إلا هذا ولا تفكير له إلا

فى هذا . إن الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلماً حقّاً . وقد أفهم أن يتنجب العقّاد مثل هذا البحث لأن فيه شيئاً من الحرج ، ولكنى أحب أن يكون الناس جميعاً مثلى يكرهون أنصاف الحقائق ، ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شىء .

أنا معجب بما كتب العقاد عن أبى العلاء . وأرجو أن أعجب بما كتب عن المتنبى حين أقرؤه .

—

« جان جاك روسو ، حياته وكتبه » بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك —
« أشهر قصص الحب التاريخية » بقلم الأستاذ سلامة موسى —
« رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب » بقلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

وصلت إلىّ رسالتان كنت أود أن أثبتهما فى هذا الفصل وأن أردّ عليهما ، ولكنى آثرت ألا أفعل ، ورأيت أن أكتفى بالإشارة إليهما ؛ لأن هذا الفصل أضيق من أن يسع الحوار والجدال . إحداهما من الأستاذ عباس العقاد فيها خير وشر وفيها ثناء وذم . وأنا أتقبل هذه الرسالة شاكراً ما فيها من خير وشر ومن ثناء وذم . وأؤكد لصاحبها أنه لم يصدق فى رسالته كلها كما صدق فى آخرها حيث يقول : « إن صوتى يسمع على ما فيه من نشوز . وأنا أعلم أن فى صوتى نشوزاً وأحمد الله على أن هذا النشوز لا يمنع الناس من الاستماع لهذا الصوت ، فقد يكون فى الاستماع له خير ، مهما يكن قليلا فهو خير » .

أما الرسالة الثانية فأرق من رسالة العقاد وأدعى إلى الابتسام والفكاهة . ويجب أن أكون شديد الحرص على الإيجاز لآخذ نفسى بألا أنشرها . ويجب أن أكون شديد الحرص على المجاملة لأمنع نفسى من ذكر صاحبها ، فلن أسميه وإن كان ميلى إلى ذلك شديداً .

قرأ كاتب هذه الرسالة فى حديث من هذه الأحاديث أنى أصف بعض الكتاب بأن لسانه أطول من عقله وأن له يومه ، فخطرت له خواطر وعبثت به ألوان من الخيال ، وكتب إلىّ يتعجلنى فى نقد هذا الكاتب والدلالة عليه ويلح فى تعجله إياى . وأنا أجيب هذا الكاتب الأديب أنى لم أرده ولم أقصد إليه ، وأنه يستطيع أن يستريح من هذه الناحية ، وأن يتركنى حرًّا أتخير اليوم الذى يعجبنى أن أنقد فيه هذا الكاتب وأمثاله ، فهو ليس كاتباً واحداً ، وإنما صورة لكتاب كثيرين . ولأدع رسالة العقاد ورسالة هذا الكاتب الأديب ، ولأنتقل إلى هذه الكتب التى وضعت أسماءها فى أول هذا الفصل . وإنى لأعلم أنى سأجد فى نقدها أو فى نقد بعضها مشقة غير قليلة ، فكلها خليقة بالنقد ، وبالنقد الشديد ، وكلها خليق بالثناء ، وبالثناء الكثير .

ليس من اليسير أن أنقد كتاب صديقى هيكل ؛ لأن قراءته ليست يسيرة . نعم ! ليس من اليسير ولا من المحبب إلى النفس أن نقرأ هذا الكتاب القيم ونستمتع بما فيه من لذة علمية وأدبية ، فنى الكتاب لذات علمية وأدبية كثيرة ، ولكن الله أراد أن تحول بيننا وبين هذه اللذات حوائل مختلفة ، منها ما هو منكر بغيض ، ومنها ما هو ثقيل على النفس ، ومنها ما يحرج ويغيظ . يجب أن يكون هيكل شديد الالتواء على النقاد ، مسرفاً فى ازدراء القراء ، غالياً فى الاقتناع بأنه وحده موفق للخير حين يفكر وحين يعمل . فقد ذكر أنى تناولت الجزء الأول من كتابه حين ظهر فى سنة ١٩٢١ فقرأته بعد مشقة ، ونقدته مخلصاً ناصحاً للكاتب أن يكبر قراءه بعض الشىء ، وأن يعنى بهم ولو قليلا . وكنت أحسب أن هذا النقد سينزل من نفس صديقى هيكل منزلة حسنة ، فيجيبنى راضياً إلى ما دعوته إليه . وكنت أنتظر ظهور الجزء الثانى من كتابه لأثنى عليه ثناء خالصاً من كل عيب ، ولأحمده حمداً بريئاً من كل انتقاص . ولكنى أعترف بأنى أحسست شيئاً كثيراً مما يسمونه خيبة الأمل حين انتهى إلىّ هذا الكتاب . ذلك أنى رأيت صاحبى هذه المرة كما رأيته فى المرة الماضية مزدرياً لقرائه مزدرياً لنقاده ، لا يحفل بأولئك ولا بهؤلاء . وما أحسب إلا أن هذا الازدراء خُلق من أخلاقه ليس إلى إصلاحه من سبيل .

لا أعرف كتاباً علمياً أدبياً أردأ طبعاً من كتاب الدكتور هيكل ، بل لا أعرف كتاباً علمياً أدبياً أقبح ورقاً من كتاب الدكتور هيكل ، بل لا أعرف كتاباً علمياً أدبياً بلغ فيه الإهمال والفتور ما بلغاه فى كتاب الدكتور هيكل : طبع ردىء ، مفعم بالأغلاط المنكرة ، وورق ردىء يصرف القارئ عن أن ينظر فى الكتاب ، ويصد من يحب اقتناء الكتب عن أن يقتنى هذا الكتاب ، وإهمال يصرف عن القراءة أشد الناس رغبة فى القراءة ، ويزهد فى الاستفادة أحرص الناس على الاستفادة . أذكر أنى طلبت إلى الدكتور هيكل حين ظهر الجزء الأول من كتابه هذا أن يتقى الله فى قرّائه : فى أبصارهم وأذواقهم وفى ميولهم وأهوائهم ، فيحسن طبع كتبه ويتخير لها ورقاً لا يؤذى الأبصار ولا يشق عليها. وأرانى مضطراً إلى أن ألاحظ أن صديقى لم يُعنَ بما دعوته إليه ، فكانت طبعة الجزء الثانى كطبعة الجزء الأول إن لم تكن أشد منها إمعاناً فى السوء .

أنا أعلم أن الذين يُقدمون على التأليف والنشر يتعرضون فى أكثر الأحيان لخطر أشد من خطر النقد ، وهو ضياع ما ينفقون من أموال . ولكنى أعلم من جهة أخرى

أن الذين يؤلفون وينشرون إذا كانوا من العلماء والأدباء حقاً يضنون بما يؤلفون وينشرون على الورق القبيح الرديء ، وهم بالطبع يريدون أن يتجملوا فى كتبهم كما يتجملون فى أزيائهم ، وهم يعنون بأن تروق كتبهم الأبصار قبل أن تروق النفوس ، كما أنهم يعنون — إن لم يكونوا من أتباع ديوجين — بأن تروق أشخاصهم وأزياؤهم أبصار الناس قبل أن تروق آراؤهم عقول الناس . بل أنا أزعم — والناس جميعاً يرون هذا الرأى — أن من الأسباب القوية التى تعينك على أن تنزل من نفوس الناس منزلة تحببك إليهم وتمكنك منهم ألا ينبو شخصك عن عيونهم . ومثل هذا يقال فى الكتب . ولكن صديقنا هيكل لا يريد أن يسمع لشىء من هذا ، وهو بإعراضه عن هذا النصح يسىء إلى كتابه ، لأن القراء لا يرغبون فيه ولا يسرعون إليه ، ويسىء إلى قرائه ، لأنه يحرمهم قراءة هذا الكتاب اللذيذ .

ومن غريب الأمر أنى ضحكت منذ أيام حين انتهى إلى كتاب هيكل ؛ لأنه انتهى إلىّ وقد قرأت فى جريدة « الطان » فصلا عنيفاً كتبه الناقد الأدبى لهذه الصحيفة ، حمل فيه حملة منكرة على الشاعر الفرنسى المعروف « هنرى درينيه » وعلى طابعه ، لأنهما نشرا ديواناً لهذا الشاعر فى طبعة بلغت من الإتقان والزينة وجودة الورق أن ارتفع ثمنها على أوساط الناس ، وأصبح الكتاب لا يتاح إلا للأغنياء والمترفين . ضحكت ورثيت لأوساط الناس الذين يزدريهم « هنرى درينيه » فيغلى كتبه ويسرف فى إتقانها وتزينها ، ويزدريهم هيكل فيرخص كتبه ويسرف فى إهمالها وانتقاصها . رثيت لأوساط الناس من هذين الكاتبين اللذين يختلفان فيما بينهما اختلافاً شديداً ، ولكنهما يسلكان طريقين مختلفين تنتهى بهما إلى غاية واحدة هى ازدراء القراء . أما أحدهما فيغلو فى الترف ، وأما الآخر فيغلو فى التفلسف . وما أصدق المثل اليونانى الذى قامت عليه فلسفة الفلاسفة حقاً وهو « لا تسرف » .

ثم لا يقف أمر هذا الكتاب عند سوء الطبع وقبح الورق . فما رأيك فى كتاب تبحث فيه عن فهرست فلا تجد ! وما رأيك فى كتاب لا تستطيع أن تلم بما فيه إلا إذا قرأته من أوله إلى آخره ! ليس لكتاب هيكل فهرست ، أستغفر الله ! بل ليس فى كتاب هيكل عناوين للموضوعات التى يتناولها . وكل ما فى كتاب هيكل من هذا النحو أرقام ثلاثة هى ٩ و ١٠ و ١١ ، تأخذ الكتاب فيصادفك رقم ٩ ثم يتفضل عليك المؤلف فيذكرك بما كان فى الجزء الأول ، وينبهك إلى أن هذا الفصل الذى تقرؤه هو الفصل التاسع من فصول الكتاب كله . ثم تمضى فى الكتاب وتمضى

وتمضى حتى تتجاوز خمسين من صحف الكتاب فتجد رقم ١٠ . ثم تمضى وتمضى وقد تنسى نفسك وقد تصل . وقد يختلط عليك الأمر ، ولكنك تمضى حتى تجاوز الثمانين بعد المائة من صحف الكتاب ، وإذا أنت أمام الرقم الثالث ١١ ثم تمضى حتى تنتهى من الكتاب أو قل من الجزء، وترى نفسك مضطراً إلى أن تنتظر ظهور الجزء الثالث الذى سيبتدئ طبعاً برقم ١٢ . هذا كل ما فى الكتاب من تقسيم . وأنت ترى أنه قليل ، أقل مما ينبغى ، وأنت تستطيع أن تقول إن الكتاب يخلو من التقسيم والترتيب . وإذا كان إهمال الورق والطبع إسرافاً فى التفلسف وازدراء للقراء ، فإهمال التقسيم والترتيب غلو فى التقصير وازدراء للبحث العلمى نفسه. ذلك أن البحث العلمى يطبيعته محتاج إلى التقسيم والترتيب ، بل قل إن البحث العلمى تقسيم وترتيب قبل كل شىء . فالانصراف عن التقسيم والترتيب إثم على العلم إذا تكلفه صاحبه وتعمده ، وهو قصور فاحش إذا اضطر إليه اضطراراً . وكم كنت أريد أن يخلو كتاب هيكل من صفتين أعتقد أنا أن شخص هيكل منهما برىء .

ثم لم يقف الأمر فى هذا الكتاب عند هذا الحد ، فهيكل لم يكتف بإهمال الطبع والورق ، ولا بإهمال الفهرست ولا بإهمال التقسيم والترتيب ، بل أضاف إلى هذه الضروب من الإهمال ضرباً آخر ليس أقل منها قبحاً عندى ، وقد يكون أشد منها قبحاً عند غيرى من الأدباء والنقاد ، ذلك هو إهمال اللغة .

ليس من الثناء على هيكل فى شىء أن نقول إنه كاتب مجيد ، فالناس جميعاً يعلمون أنه كاتب مجيد ، وما أظن أن بين قراء الصحف من يستطيع أن ينكر أنه مدين لقلم هيكل بساعات لذيذة تأثرت فيها نفسه ألواناً من التأثر ، فغضبت مع الكاتب للحق ، وسخطت مع الكاتب على الباطل ، وشعرت مع الكاتب بالوطنية الصادقة والحرص على المنفعة القومية ، واستمتعت مع الكاتب بلذة العلم والأدب حين يبحث عن العلم والأدب ، وحين يتناول بتحليله الدقيق ونقده الموفق كبار الكتاب والأدباء ولا سيما « أناتول فرانس » و« بيير لوتى » . الناس جميعاً يعلمون هذا من هيكل ، ويعترفون بأنهم مدينون له بساعات لذيذة قيمة . والناس جميعاً يعلمون أن هيكلا على امتيازه الفنى وبراعته الكتابية يحسن لغته العربية ويتقنها ويتصرف بها كما يحب ويسخرها كما يشتهى . وربما كانت له فى ذلك شخصية بارزة حين يختلج فى نفسه الرأى ويشعر بأن اللغة قد تضيق برأيه فيكرهها على أن

تتسع ويرغمها على أن تؤتيه من الألفاظ ما هو فى حاجة إليه . ولكنى لا أدرى أيعلم الناس أن صاحبنا يكره التعمق فى اللغة والإسراف فى تخير الألفاظ القديمة وتجنب الألفاظ الحديثة المبتذلة ؟ ولقد كانت بينه وبينى فى ذلك مناقشات ومخاصمات حظ الهزل فيها أكثر من حظ الجد ، ولكنها كانت على كل حال مظهراً من مظاهر اختلافنا فى الرأى أمام هذه المسألة الفنية . وأنا أفهم حق الفهم أن يميل بعض الكتاب إلى تخير الألفاظ المتقنة ، بل أنا أفهم حق الفهم أن يتحرج بعض الكتاب فى استعمال ألفاظ لا يجدها فى المعاجم، أنا أفهم هذا حق الفهم ، وأفهم شيئاً آخر وهو أن يطلق بعض الكتاب لأنفسهم الحرية فى استعمال ما يعرض لهم من الألفاظ رضيت عنه المعاجم اللغوية أو سخطت عليه . أفهم هذين المذهبين ، وأريد أن أتوسط بينهما ما استطعت إلى ذلك سبيلا ؛ لأنى أريد أن أحتفظ للغة بجمالها وبهجتها من جهة ، وبحياتها وقوتها من جهة أخرى ، وأريد أن أكون قادراً على أن أصف ما فى نفسى وألا أسلب نفسى هذه القدرة لأنى لا أجد فى المعاجم لفظاً أشعر بأنه يعجبنى ويؤدى ما فى نفسى . ولكن هناك شيئاً لا أستطيع أن أفهمه ، وما أحسب أن أحداً يستطيع أن يفهمه ، وهو أن يسرف الكاتب فى حريته اللغوية حتى يهدم قواعد اللغة ويتجاوز حدودها وقوانينها فى غير نفع ولا نكتة فنية ولا ضرورة قاهرة . لا أستطيع أن أفهم مثلا أن يذكر اللفظ المؤنث ويؤنث اللفظ المذكر . فقد تستطيع أن تكون حراً فى اللغة بل إباحياً ، ولكنك لن تستطيع أن تمنح هذه الحرية التى لا خير فيها ولا نفع . وأى فائدة تجدها وأى لذة تظفر بها حين تضم فعلا يجب أن يكسر ، وتذكر لفظاً يجب أن يؤنث ؟ ومع هذا فأنا أجد هذا النحو من الخطأ اللغوى فى كتاب صديقى هيكل .

ولست أريد أن أسرف ولا أن أطيل فى إحصاء هذا الخطأ ، وإنما أريد أن أدل عليه دلالة موجزة . أريد أن أسأل كيف استطاع هيكل أن يقول : « وكان قدمه قد استقر يومئذ فى الأدب» وهو يعلم أن القدم مؤنثة لا مذكرة .

أريد أن أسأله كيف استطاع أن يقول : « وألا نكون من السخف حتى نضحى هناءنا بسبب مثل هذا الرأى الأخرق » . ومتى كان « حتى » ظرفاً مكانياً ! وإنما أراد هيكل أن يقول : « وألا نكون من السخف بحيث نضحى . . . » وأكبر ظنى أنه كتب هذا ولكنه أهمل العناية بطبع الكتاب فتورط فى هذا الخطأ . ومثل هذا الخطأ الذى ورطه فيه إهمال العناية بالطبع قوله : « فرفضت مخافة

ما يصيب ذلك أبواها من سوء » . فما رأيك فى هذا المفعول الذى ينصب بالألف وكان حقه أن ينصب بالياء ؟ وخطأ آخر لا أستطيع أن أغفره وهو حيث يقول : « وأنت تعلمين أنك أشد ما يكون فى هذه الحال خطراً » أراد « أشد ما تكونين » . وخطأ آخر أشد من هذا نكراً وهو قوله : « ووقف والدى المحترم موقف مهوباً » . وليس من شك فى أن على المطبعة وحدها تبعة هذا « الموقف » الذى كان ينبغى أن ينصب ويصرف فمنع الصرف . ولكن أعلى المطبعة وحدها تبعة هذا « المهوب » الذى ينبغى أن يكون مهيباً بالياء لا بالواو ؟ هذا كله ولما أتجاوز الخامسة والعشرين من صحف الكتاب . وقد أخذت نفسى بأن أكون ميسراً لا معسراً حتى لا يقول أنصار حرية اللغة : تقعَّر فى النقد ولم ينس دروس الأزهر الشريف . وما أشد حرصى على ألا أنساها! ولست أشك فى أن الإهمال وحده هو الذى اضطر هيكلا إلى هذه الأغلاط . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن الإهمال يباح للكتّاب والعلماء .

أما بعد ، فهل أنا فى حاجة إلى أن أثنى على هذا الكتاب ؟ ألست أتعرض للسخف إذا أثنيت على فيلسوف كجان جاك روسو ، وعلى كاتب كهيكل ! وأى الناس من قراء هذا الحديث يجهل مكانة روسو فى الأدب الفرنسى خاصة ! وأى الناس من قراء هذه الفصول يجهل مكانة هيكل فى أدبنا العربى الحديث ؟ !

الناس جميعاً يعرفون مكانة هذين الكاتبين ، ولكن من قراء العربية من لا يتاح لهم أن يقرءوا « جان جاك روسو » فى لغته الفرنسية أو فى ترجمة عربية . وهؤلاء ينتفعون من كتاب هيكل انتفاعاً قيما حقًّا ؛ لأنهم يجدون فيه شخص روسو ماثلا مثولا واضحاً ، ولأنهم يجدون فيه آراء روسو مبسوطة أحسن بسط مفصلة أجمل تفصيل ، هذا كله فى إيجاز حسن وتجنب للإطالة والإسراف . بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأزعم أن الذين قرءوا « روسو » بالفرنسية وأكثروا قراءاته وأتقنوها يجدون لذة لا تكاد تعدلها لذة فى قراءة هذا الكتاب الصغير الذى نشره هيكل عن جان جاك روسو . يجدون هذه اللذة المقدسة التى يجدها الأديب حين يقرأ نقداً صادقاً صحيحاً لكتب قيمة لذيذة ، وحين يوازن بين هذا النقد وبين ما شعر به وهو يقرؤه ، وحين يتمم بهذا النقد نقص قراءته ، وحين يوجهه هذا النقد وجوهاً من التفكير لم يعرض لها ولم يلتفت إليها الناس جميعاً حين يقرءون هذا الكتاب فيجدون فيه من اللذة العقلية والقلبية ما لا ينقصه إلا سوء طبع الكتاب. فأنا لا أغفر

لهيكل سوء طبع الكتاب. لا أغفره له؛ لأن الكتاب قيم حقا ، خليق ان يقرأ وأن تعاد قراءته . ومن الجناية على مثل هذا الأثر القيم ؛ أن يعرض على الناس فى مثل هذه الثياب الدميمة . وكم يحسن هيكل لو تفلسف فى غير هذا الأمر فلم يسئ إلى روسو ولا إلى نفسه هذه الإساءة المنكرة . وأقسم لو كنت غنياً لتكلفت محو هذه الإساءة ولأعدت طبع الكتاب فى عناية متقنة وإتقان خليقين بموضوعه وبكاتبه وبقرائه .

ولكنى قد أعطيت نفسى من الحرية فى نقد هذا الكتاب أكثر مما ينبغى لها فيما يظهر . وما رأيك فى محرر « السياسة » الأدبى يتناول بهذا النقد العنيف رئيس تحرير « السياسة » ثم لا يستحى أن ينشر هذا النقد العنيف فى جريدة « السياسة » نفسها ؟ أليس هذا إسرافاً أو شيئاً فوق الإسراف ؟ ! كلا ! ليس إسرافاً ، إنما هو القصد كل القصد والاعتدال كل الاعتدال . فهيكل تلميذ لطفى السيد . ولقد أذكر أن لطفى السيد علمنا حين كان مدير « الجريدة » أن ننقد أصحاب الصحف فى صحفهم ، وعودنا أن ينشر نقدنا راضياً به مبتهجاً له معتذراً إن كان فى الأمر ما يدعو إلى الاعتذار . ونحن قوم يحب بعضنا بعضاً ، ولكنا نتحاب فى الحق والعلم والأدب وحرية الرأى قبل كل شىء . ولو علمت أن فى هذا النقد ما يغضب صاحبى أو يغيظه لما نشرته لا فى « السياسة » ولا فى غير « السياسة » . أستغفر الله ! بل لو علمت أن فى هذا النقد ما يغضب صاحبى أو يغيظه لنشرته ولضحيت بصحبة هيكل فى سبيل ما أعتقد أنه حق . ولكنى أعلم أن صاحبى أو أن أصحابى جميعاً فى الرأى والمذهب فوق هذه الملاحظات التى لا ينظر إليها إلا صغار النفوس . وإذا كانت « السياسة » قد وسعت تقريظ خصم من خصوم « السياسة » فهى حرية أن تسع نقد رئيس تحرير « السياسة » . وليس معنى هذا أنى لن ألقى من رئيس تحرير « السياسة » شططاً ولا عنتاً ، فأنا أعلم ما ينتظرنى منه بعد أن يعود من سفره ، ولكنى أعلم أننا سنتحاور ونختصم ، ثم نتضاحك ونفترق وقد أعلن إلىّ هيكل كما تعود أن يعلن إلىّ كلما اختصمنا فى أمر كهذا أنى أجهل اللغة العربية . فلأنتظر سخط هيكل ورضاه ، ولأنتقل منه إلى كاتب آخر كنت أريد أن أرضيه لأنى أحبه وإن كنت لم أعرفه ، ولأن الكلفة لم ترتفع بينى وبينه كما يقولون ، فلا بد من اصطناع المجاملة حين أعرض له . ولكن كيف السبيل إلى المجاملة وصناعة النقد لا تحتملها ولا ترضاها ! وقد أراد الله أن أكون ناقداً ،

فأراد أن أكون ثقيلا إذاً ، ولأقل صراحة للأستاذ سلامة موسى أنى غير راض عن كتابه الذى أذاعته مجلة الهلال منذ أيام .

للأستاذ سلامة موسى فى نفسى منزلة قيمة ؛ لأنى أعجب بعقله وحريته ومذهبه فى التفكير وطريقته فى الكتابة ، ولهذا كله اغتبطت حين وصل إلىّ كتابه، وأخذت أحمد « للهلال » عنايتها بالآداب واجتهادها فى نفع قرائها واستعانتها بالأستاذ سلامة موسى .

وعنوان الكتاب لذيذ خلاّب ، وإن كنت لا أدرى إلى أى حد يرضى عنه النحو ، ومن الذى لا يجد لذة فى قراءة قصص الحب ؟ أعترف أنى من الذين يكلفون بالحب وأخباره وأحاديثه ، ويجدون فيها لذة وتفكهة ونفعاً . وإذاً فقد اغتبطت بكتاب الأستاذ سلامة موسى حين وصل إلىّ ، وقلت إنى سأجد فى قراءته من اللذة ما ينسينى بعد المسافة بين دارى وبين الجامعة . ولكنى لم أكد آخذ فى قراءة الكتاب حتى رأيت أنه لا يصلح للمترو . ولايغضب الأستاذ سلامة موسى فأنا أقرأ فى المترو كتب « أناتول فرانس » ، بل أنا أقرأ فى المترو تاريخ المقدونيين فى مصر ، وتاريخ الجمهورية الرومانية . فليست قراءة الكتب فى المترو ازدراء لها ، وإنما هى إكبار لهذه الكتب وثقة بها . وأى ثقة بكتاب تعدل الاستعانة به على احتمال المكروه! أسفت إذاً حين أحسست أن كتاب سلامة موسى لن يعيننى على المترو ، واضطررت إلى أن أقرأه فى مكتبى . وأنا مضطر إلى أن أعترف بأنى أسفت أيضاً حين قرأته فى مكتبى ، لا لأن الكتاب ليس أهلا للعناية ، ولا لأن الكتاب لا يبعث فى نفس قارئه لذة قوية ، بل لأن الكتاب لا يمثل كاتبه . وأنا أحب فى هذا النوع من الكتب أن أرى أشخاص المؤلفين ، وأن أتحدث إليهم وأستمع لهم . هذا الكتاب لا يمثل كاتبه ، وإنما هو طائفة من الأحاديث حظ النقل فيها أكثر من حظ التفكير . وكأن الكاتب قد نظمها نظماً ، وألصق بعضها ببعض إلصاقاً ، دون أن يتكلف إظهار شخصيته أو قوته فى النقد . وفى الحق أن موضوع الكتاب لا يصلح موضوعاً لبحث قيم تظهر فيه شخصية الكاتب . فكيف تظهر شخصية الكاتب فى رواية أحاديث الحب عند العرب واليونان والرومان والفرنج المحدثين ! ! وكيف يمكن أن ينسى الكاتب اختلاف هذه الأمم ويمتلىء بموضوعه امتلاء فيتحدث عنه وكأنه يتحدث عن نفسه !

ومع ذلك فقد يخيل إلىّ أن الأستاذ سلامة موسى كان يستطيع أن يحسن إلينا

بعض الإحسان فى غير موضوع . كان يستطيع مثلا أن يضع لكتابه مقدمة صالحة فيها شىء من البسط والتفصيل لهذه الآراء القيمة التى يعرض فيها الحب على الناس . كان يستطيع أن يحكم عقله وقوته النقدية حين يعرض علينا رأى العرب فى الحب ، وحين يعرض علينا رأى الفرنج فى الحب . ولكنه لم يفعل من هذا شيئاً ، إنما عرض علينا أطرافاً من القول نقلها عن طائفة من الكتاب العرب والفرنج ، وخيل إلينا أن هذه الأطراف المقتضبة التى ألصق بعضها ببعض إلصاقاً تمثل آراء العرب فى الحب حقًّا ، وآراء الفرنج فى الحب حقًّا . خيل ذلك إلينا ، ولم يخيله إلى نفسه طبعاً ؛ فهو يعلم أن مثل هذه الأطراف من القول لا تمثل آراء أصحابها ، فضلا عن أن تمثل آراء الأمم التى ينتسب إليها أصحاب هذه الأطراف .

وكنت أحب أن يكون الأستاذ سلامة موسى ناقداً بعض الشىء حين يعرض لأخبار الغزلين من العرب ، كجميل وكثير وغيرهما ، ولكنه لم يكد يفعل من هذا شيئاً ، وإنما يترك القدماء يقولون ما يشاءون ، واختار من أحاديثهم أطرافاً رواها فى غير نقد ولا تحفظ إلا ما يدعو إليه الإيجاز . وفى الحق أنى لست أدرى على من تقع تبعة هذا التقصير : أعلى الأستاذ لأنه مال إلى هذا النحو من التأليف الذى قد يليق بالتجارة أكثر من لياقته بالبحث العلمى ، أم على مجلة (الهلال) التى عرضت على الأستاذ هذا النحو من التأليف ، لأنها تعرف عقلية الكثرة من قرائها ومقدرتهم ، أم على القراء أنفسهم لأنهم يضطرون الكتّاب إلى أن ينصرفوا عن البحث والنقد ليكون فهمهم ميسوراً ، ويضطرون (الهلال) إلى أن تقدم إليهم كتباً حظ الجمع فيها أكثر من حظ النقد ! ! ومهما يكن من شىء فإن هذا الكتاب بعيد كل البعد عن أن يؤيسنى من الأستاذ سلامة موسى ، وأنا واثق بأنى سأضطر بعد حين إلى أن أثنى عليه ثناء خالصاً .

* * *

وقد بلغت من هذا الفصل أقصاه ، ولم أبدأ فى ذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وكتابه فى فلسفة الجمال والحب . وأنا بين اثنتين إما أن أنقد هذا الكتاب كما أحب وكما يليق بصاحبه ، فأطيل عليك ، وربما تأخرت عن هذا الدرس الذى يجب أن أذهب لإلقائه فى مدرسة الآثار ، وإما أن أرجئ نقد هذا الكتاب إلى حديث الأربعاء فى الأسبوع الآتى . ويظهر أنى أوثر الثانية على الأولى . فإلى الأسبوع الآتى إذاً .

عود إلى كتاب هيكل

رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

أخى طه

تحية واحتراماً . أكتب لك عما تبرعتَ به من نقد الجزء الثانى من كتاب جان جاك روسو ، حياته وكتبه . ولست أقصد بما أكتب إلا مناقشة لصديق وستجدها مناقشة خالية من كل ما تتهم به نفسك من عنف أو شدة .

أخذت على هذا الجزء الثانى من كتابى عن روسو أنه مطبوع طبعاً رديئاً على ورق غير لائق بكتب العلم والأدب ، وأن به أغلاطاً مطبعية كثيرة . وأخذت علىّ أنى فى إهمال الطبع وعدم اختيار الورق وعدم العناية بالتصحيح أزدرى الجمهور ، وأنى لا أحفل باللغة كما ينبغى ، وأنى لم أضع لكتابى فهرساً ولم أبوبه ، وجعلت لهذا النقد أكثر من أربعة أنهر فى السياسة . ثم أثنيت على الكتاب بأن موضوعه جان جاك روسو ، وبأن كاتبه هيكل ، وجعلت لهذا الثناء نصف نهر من أنهر السياسة .

ولست أخفيك أنى أشعر بأن نصف النهر هذا فيه من المعنى ما « يخجل تواضع » روسو لو أنه كان حيًّا ، وما « يخجل تواضعى » أنا اليوم ، واعذرنى إذا استعرت فى هذا المقام عبارة سعد زغلول . لكنى أود أن أسألك إذا كان القارئ البعيد عنى وعن روسو يشعر بمثل شعورى بعد أن يفرغ من قراءتك ، لقد عرف أن الكتاب مطبوع طبعاً سيئاً على ورق ردىء ، وأن به خطأ مطبعيًّا وإهمالا لضبط بعض الألفاظ من الجهة اللغوية ، وأنه مع ذلك كتاب دسم مفيد ، لكن سوء طبعه وورقه يصدان عن قراءته ، فما الذى يمكن لهذا القارئ أن يقف عليه من أمر الكتاب؟ ما هو هذا الغذاء الأدبى والعقلى الذى لا يستطيع أن يصل إليه والذى كان حقًّا عليك أن تدله عليه ؟ ألا تظن أنه — ولم يستدل على شىء منه — يشعر

بأنك لم تقرأ الكتاب ، بل اكتفيت بتقليب صفحاته ، واقتصرت بعد ذلك على الكتابة عن الشكل والصورة الظاهرة من غير أن تكلف نفسك عناء الوقوف على موضوع الكتاب ، لترى إن كان على سوء شكله يستحق احتمال القراء عناء مطالعته ، ولتنتقد مباحث الكاتب فتحكم له أو عليه .

ثم هب ياصديقى أن قارئك كان رجلا صالحاً من أهل الأزهر الذين تعودوا قراءة الكتب مطبوعة على الورق الأصفر أو النباتى ولا تزيد على الكتاب الذى تفضلت بنقده بهاء ولا رواء ، وهب أن قارئك كان من الذين يولعون باستقصاء ما فى الكتب مهما يحملهم هذا الاستقصاء من عناء . وهب أنه كان من الذين لا يحفلون بالظواهر ولا يعنون كثيراً باللباس ولا يفهمون قيم الناس بأرديتهم ويحسبون التأنق لهواً ، فماذا يكون حكم القارئ على ما كتب حين يراك اقتصرت على نقد الطبع والورق ؟ وهلا تخشى أن يقول لك إن وضع صحيفة فى آخر الكتاب لبيان الخطأ والصواب كانت تكفى لرد نقدك الألفاظ ، وإنه كان أحوج إلى العلم بشىء من موضوع الكتاب !

أما نقدك غياب الفهرس والتبويب فكنت أود أن أشاركك رأيك فيه ، لولا أن هذا الجزء الثانى من كتاب جان جاك فى غير حاجة إلى فهرس أو تبويب ؛ فهو يلخص رواية هلويز الجديدة وكتاب التربية وينقدهما ، وليس فيه شىء آخر . فهل كان يكفيك أن يكتب بدل ٩ و ١٠ و ١١ — هلويز الجديدة ، واميل ، وصوفيا ، كما فعل فاجيه ولمتر وغيرهما من الذين كتبوا عن روسو؟ وهل تحسب الفارق كبيراً فى نظر العلم والأدب إلى حد لا يصبح معه نقدك مشوباً بشىء غير قليل من الإسراف الذى ذكرت أنك لا ترضاه ؟

وتقول لو أنك كنت غنيًّا لقمت بطبع الكتاب فى صورة تليق بروسو وبهيكل

وإنى أشكر لك حسن ظنك ورقيق شعورك . وربما رأيتُ أنت كتابى على غير ما رأيته لو أننى كنت غنيًّا . على أنى لا أقول لك ذلك عن ثقة ؛ فإن بى عيباً آخر قد يحول دون إتقان الطبع ، وأظنك تعرفه . فإنى تتحكم فىّ صفتان ليس أضر منهما على تجارة الحياة وتبادل المنافع ، هاتان الصفتان هما الأنفة والحياء . وقد أسرف الحظ فيما خلعه علىّ من كل منهما إلى حد انقلب معه ما يجده الناس فى كل منهما من فضل عيباً عندى ونقصاً . وليس لى من سبيل إلى محاربة هذا الإسراف فى الصفتين إلا أن يستطيع الإنسان محاربة طبعه .

هاتان الصفتان تحولان بيني وبين الناس وتجارتهم . وأشهد أني ما اغتبطت يوماً لهذا العجز ، كما أشهد أني ما حزنت يوماً بسببه ؛ فهو يحميني من شرور كثيرة ، ويدع المجال أمامي فسيحاً لأحظى من نعيم الحياة بما تيسره المقادير من غير أن أخشى مداخلة الناس في أمري لتكدير صفو نفسي . ثم هو في الوقت نفسه يمنع عليّ الاستفادة من معاملة الناس والاستعانة بذوي الإخصاء منهم في طبع كتبي وتصحيحها وتوزيعها واسترداد نفقاتها لطبع كتب أخرى ، كما يمنع عليّ الاستفادة من معاملتهم في غير هذه من شؤون الحياة ، ويضطرني إلى القناعة من علاقاتي بالناس بما ييسر لي أقل حظ من النعيم أطمع فيه . فأنت تراني أشد ما أكون غبطة ما دمت جالساً إلى مكتبي متصلا بالناس في غير حاجة إلى معاملتهم والاتجار معهم . وتراني أشد ما أكون حياء وحيرة ما اتصلت بالناس في تجارة . وهذا يا صديقي هو السر فيما رأيت من سوء ورق كتابي وطبعه ، وهذا هو السر فيما تتهمني به خطأ من ازدراء الناس . ولو أنصفت لقلت : إنه عكوف النفس على ذاتها وقناعتها بالرضا الداخلي الذي لا يعنى كثيراً بحكم الناس ؛ لأن حكمهم لا يصل إليه ، وإن وصل فلا يعلق به .

وقد لا يسوءك في هذا المقام أن أخبرك أني حين قرأت نقدك ابتسمت أن رأيتك تأثرت فيه بصداقتك إياي أكثر مما تأثرت بموضوعك . فإنك قد عالجت إخفاء ما تبعثه المودة في نفسك من محبة صادقة ، فلمَ حرصُك على التعرض لشكل الكتاب دون موضوعه ، مع إظهارك الإعجاب بالموضوع عرضاً ، على أنك كنت تود أن يكون ما يظهر للناس من صاحبك بالغاً ما يستطاع بلوغه من الكمال ؟

لكنك يا صديقي تعلم ما انطوت عليه نفسي ، وتعلم أني لا أكتب إلا ما يكون متاعاً لي ولذة ، فإذا نشرته بعد ذلك فلأني لا أستطيع المحافظة عليه ، وأخشى أن يضيع وقد أحتاج يوماً لأتلذذ بمجهوداتي الماضية في الساعات المجدبة من حياة الحاضر . وهذا هو ما دعاني لتقسيم ما كتبت عن روسو إلى ثلاثة أجزاء ، فكنت كلما فرغت من قسم من بحثي وهجمت على مشاغل الحاضر وخشيت أن أوخذ بها إلى حد نسيان ما كتبت ، قدمته للطبع لكي لا يضيع ، وهذه غاية يكفي لبلوغها أن يطبع بأقل نفقة ممكنة ومن غير عناء كبير .

على أني أعدك يا صديقي ، إن أراد الحظ لي أن أظهر للناس كتباً أخرى ، بأن أجاهد لأحرص على رضاك . وإذا أنا وجدت من عناية الأقدار ما يسمح لي

بإتمام الجزء الثالث من كتاب روسو — وهذا ما لا أعدك به — فلن أكتفى بما اكتفيت به فى الجزءين الأولين ، ولن أتركه بغير فهرس أو تبويب ، ولن أطبعه إلا على ورق يعجبك ، ولن أتركه بغير بيان لما فيه من خطأ مطبعى ، ومن زلات القلم حين الكتابة .

لكنى مع ذلك كنت أرجو ألا يقف نقدك عند الغضب لى منى ، وإظهار هذا الغضب فى ثورة صريحة . وكنت أود أن تتناول موضوع الكتاب وأن تبين لقارئك فى شىء من التفصيل ما تراه من وجوه حسنه وقبحه وكماله ونقصه ؛ فقد يمكن ملافاة ما كان من نقص فى الطبع والورق عند إعادة طبع الكتاب ، سواء أعدت أنت الطبع أو أعدته أنا أو أعاده غيرنا . لكن ملافاة نقص الموضوع لا تكون إلا إذا دل النقاد المؤلف على مواقع الخطأ فى البحث ومواضع التواء الدليل . وأصدقك القول أنى أحوج إلى هذا النقد منى إلى نقد الشكل والصورة . فنقد الشكل والصورة أعرفهما وأعرف أسبابهما من غير حاجة إلى أن يدل عليهما أحد ، كما أعرف وسائل علاجهما ، وهذه الوسائل على ما نعلم يسيرة لمن أراد الإصلاح . فأما النقص فى الموضوع ، وأما التواء الدليل فيحتاج إصلاحهما إلى تنبيه من أمثالك الأصدقاء المخلصين ذوى الفضل والعلم . فهل لك أن تكلف نفسك العناء فتنفعنى وتنفع الناس ، ويكون الشكر لك مضاعفاً ؟ !

وما أحسبك حين تعرض لهذا النقد مضيعاً وقتك سدى ، فإن فى رواية الهلويز تحليلا نفسيًّا شيقاً ومباحث فلسفية غير تافهة . وكتاب التربية هو خير ما كتب روسو . وأحسبنى حين لخصتهما ونقدتهما لم أترك شيئاً جوهريًّا مما جاء فيهما أو ورد عليهما ، وإن كنت قد أوجزت فى التلخيص والنقد فذلك لأوفر على القارئ وقته ، ولأحول بينه وبين الملال ، ولأعصم نفسى من زلة ادعاء العلم بما لا أعلم .

وقبل أن أختم هذه الكلمة أرجو أن أعيد أمامك كلمة مما سطرته فى مقدمة الجزء الأول لتكون متسامحاً معى بمقدار ما يسمح به قدرى لمجهودى . قلت فى تلك المقدمة : « لا أدعى استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل ، لأننى لم أتخصص له ، وإنما هويته فأخذ منى وقتاً ومجهوداً كانا من خير الأوقات والمجهودات التى أنفقت فى حياتى فلم أشعر معهما بألم ولا بملال ، بل كنت أتنقل إلى تذوق أنواع من اللذة ، وأشعر فى أعماق روحى بدسم ما يصل إليها أثناءهما من الغذاء ، ولكنى على كل حال لم أتخصص . والبحث الكامل لا يتأتى إلا بالانقطاع والمزاولة

والإمعان وطول التفكير فى الساعات والأيام والأشهر المختلفة ، وعند مراجعة المؤلف ومن كتب عنه من الكتاب الكثيرين جداً . وإذا كنت قد قرأت كتباً كثيرة فهى على كل حال قليلة إلى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو » .

هذا ومع شكرى لله على حسن عنايتك بكتابى أرجو أن تتفضل بقبول فائق الاحترام .

أخوك

محمد حسين هيكل

ولن أطيل الوقوف على كتاب هيكل وإن كان يسألنى هو ويسألنى غيره أيضاً أن أتناول موضوع الكتاب بالنقد والتحليل ؛ فقد أحسبنى أشرت فى الفصل الماضى إلى موضوع الكتاب وقيمته ، إشارة إن لم تكن مفصلة مغرقة فى الإسهاب فهى إشارة كافية . وماذا يريد منى القراء حين أعرض لكتاب هو تحليل لشىء من كتب جان جاك روسو ؟ أليس يكفى أن أشير إلى مكانة روسو وأثره فى الأدب الفرنسى خاصة وفى الأدب الأوربى عامة ؟ أم هل يريدون أن أتناول كتب جان جاك روسو بالبحث المفصل والنقد المطول كما فعل هيكل نفسه ؟ أم هل يريدون أن أتناول التحليل بالتحليل والنقد بالنقد ، فأكتب حاشية على شرح هيكل لجان جاك روسو ، أو تقريراً على حاشية هيكل على جان جاك روسو ؟ أليس فى هذا إطالة لا حاجة إليها وإسراف نستطيع أن نجد عنه منصرفاً ! !

ربما كان من الحق علىّ أن أقول فى صراحة ووضوح : إن كتاب هيكل يتناول بالنقد والتحليل كتابين قيمين من كتب جان جاك روسو ، هما هلويز الجديدة وكتاب إميل أو التربية . والناس بين رجلين : أحدهما قرأ جان جاك روسو فمن الحق أن أفصل له كتب جان جاك روسو ، والثانى لم يقرأ هذا الكتاب فمن الخير أن أحثه على قراءة هيكل ليجد فى كتابه كل ما يحتاج إليه أو أكثر ما يحتاج إليه فى هذين الكتابين من كتب جان جاك روسو .

أعلم أن كتاب هيكل يستحق كثيراً من الثناء فى موضوعه وفى مذهبه فى النقد والتحليل ، وأن هذا الثناء الذى يستحقه قد يكون أكثر جداً من الثناء القليل الذى قدمته إليه فى الفصل الماضى . ولكنى أعلم حق العلم أن صديقى هيكلا لا يطمع منى فى هذا الثناء الكثير ، وإنما يكفيه أن أقول إن كتابه قيم نافع حسن التأليف وإن لم يكن حسن التبويب والتقسيم . وهل من الحق أن صديقى هيكلا يريد أن أدله على ما فى الكتاب من عيب ليتقيه حين يعيد طبع الكتاب ؟

أما أن يكون هذا حقًّا فإنى لا أطلب منه إلا أن يتقى ما ذكرت من العيوب العرضية فى الفصل الماضى ، فهو إن اتقاها أحسن إلى كتابه وإلى الناس . وليطمئن هيكل ؛ فليس من الحق أنى لم أقرأ من كتابه إلا صحفاً قليلة ، فقد ذكرت بنفسى أكثر كتابه ، ولعله يذكر أنه قرأ علىّ منه طائفة قبل أن يشرع فى طبع الكتاب . أنا إذاً لا أجهل الكتاب فى جملته ولا فى تفصيله ، ولكنى لا أحب أن احلل التحليل ولا أن أفصل التفصيل ، ولا أن أتورط فى الشروح والحواشى والتقارير . وأحسب أن الفصل الماضى يكفى لما أريده حين أكتب هذه الفصول ، وهو أن أرغب القراء فى أن يقرءوا كتاباً أحسبه قيما نافعاً ، وأمكنهم من أن يقدروا طائفة من الكتب على وجهها .

أعود فأقول : إن صديقى هيكلا يستطيع أن يطمئن ؛ فقد يكون نقدى شديداً ، وقد يكون نقدى عرضيًّا . ولكن هناك شيئاً لا شك فيه ، وهو أن هذا النقد إن لم ينفع الكتاب لم يضره . على أنى أختم هذه الكلمة بالاعتذار إلى هيكل من خطأ أخذته به فكنت أنا المخطئ وكان هو المصيب ، أنكرت عليه استعمال كلمة «مهوب» بالواو لا بالياء ، ونبهنى بعض الأدباء إلى أن هذا الاستعمال صحيح ، فرجعت إلى المعاجم فإذا الكلمة تستعمل بالياء والواو ، وإذا هى قياسية حين تستعمل بالياء ومسموعة حين تستعمل بالواو . وإذاً فلم يخطئ الكاتب وإنما أخطأ الناقد ، وإذاً فقد نقصت الأغلاط المطبعية واللغوية فى الكتاب ، وهذا شىء لا بأس به .

ولأنتقل من هيكل إلى كاتب آخر لا يشبهه فى شىء . ومن كتاب هيكل إلى كتاب آخر ليس بينه وبينه صلة ، لأنتقل إلى الأستاذ الرافعى وإلى كتابه فى فلسفة الجمال والحب . وأنا أشهد أن هذا الانتقال ثقيل مؤلم ؛ لأن الفرق بين الكاتبين عظيم وبين الكتابين أعظم .

الأستاذ الرافعى لا يحب النقد إلا أن يكون هذا النقد على هواه . وقد كنت أتحدث إليه يوم السبت الماضى فعرفت أنه يحب النقد على هذا الشرط ، ولم أكد أعلن إليه أن لى فى كتابه رأياً قد لا يرضاه حتى أعلن إلى متشدداً أنه سيرد على ، وطلب إلى رئيس التحرير متشدداً أن ينشر رده ذلك ، وهو يرى رئيس تحرير «السياسة» يدفع إلى رده على نقد كتابه يسألنى أن أنشره فى صحيفة الأدب . وإذاً فأنا أكتب ما أكتب وأنا أعلم أن الأستاذ الرافعى

سيغضب وسيردّ ، وسيكون سخطه شديداً . وكل هذا ليس شيئاً ؛ فقد غضب ناس قبل الأستاذ الرافعى ، وسخطوا وردوا وأسرفوا فى الرد ، فلم يصرفنى ذلك عن رأى ، ولم يحولنى ذلك عن مذهب .

وإنما الشىء العسير حقًّا هوأن أنقد كتاب الأستاذ الرافعى . فكيف تستطيع أن تنقد كتاباً لا تفهمه ؟ وما رأيك فى أنى لا أفهم كتاب الأستاذ الرافعى ؟ لا أفهمه . ولقد اجتهدت فى أن أفهم ، فقرأت وقرأت واستأنفت القراءة ، ولكنى لم أفهم شيئاً .

ولقد ذكرت هذا أو بعضه للأستاذ الرافعى فقال : ولم تتخذ نفسك مقياساً للناس ! ثم لم نستطع أن نمضى فى هذا الحديث الذى كان يمكن أن يكون قيما : لست أتخذ نفسى مقياساً للناس ، وإنما أتخذ نفسى مقياساً لنفسى ، فإذا قلت إنى لا أفهم فليس معنى هذا أن الناس لا يفهمون ، وإذا قلت أفهم فليس معنى هذا أن الناس يفهمون . ولكنك تسألنى أن أنقد كتابك وأعلن رأيى فيه ، فلم تسألنى هذا ؟ ألست تسألنى إياه لأنك تريد أن يعرف الناس رأيى فى كتابك ، ولأنك تظن أن كتابك قد يصيب خيراً قليلا أو كثيراً حين أتناوله بالنقد ؛ وأنت قد سألتنى أن أنقد كتابك ، سألتنى هذا حين أهديت إلى هذا الكتاب ، وسألتنيه حين كتبت إلىّ فى الصيف الماضى كتاباً جلواً رقيقاً تطلب إلىّ فيه أن أقول رأيى فى الكتاب ، وإذاً فلك على أن أقول رأيى فى الكتاب . وأن أقول فى صراحة ووضوح ، وفى قصد واعتدال أيضاً . ورأيى فى الكتاب أنى لا أفهمه فلا أستطيع أن أقول إنه ردىء أو جيد ، بل أستطيع أن أقول إنى لا أفهمه ، وإذاً فلا يمكن أن يكون جيداً . ذلك أنى وإن لم أتخذ نفسى مقياساً للناس فلست من الأميين ولا من الذين يشق عليهم أن يفهموا الآثار الأدبية القيمة . وإذاً فإذا كتبت كتاباً لا سبيل إلى أن أفهمه فيجب أن يكون فى هذا الكتاب عيب حال بينى وبين فهمه ؛ ذلك لأنى أقرأ القرآن فأفهمه ، وأقرأ الشعر فأفهمه ، وأقرأ ضروبًا من النثر العربى والأجنبى فأفهمها ، وأقرأ كتابك فلا أفهمه ، فيجب أن يكون كتابك شيئاً لا كالكتب ، ويجب أن يكون مذهبك فى الكتابة شيئاً لا كالمذاهب .

والحق أنى ترددت كثيراً قبل أن أكتب هذا الفصل ؛ فأنا أعلم أن الأستاذ الرافعى قد تكلّف مشقة لا تكاد تعدلها مشقة فى وضع هذا الكتاب ، ذلك

شيء يظهر واضحاً جلياً لمن يقرأ من هذا الكتاب أسطراً قليلة ، أو هو تكلف العناء فى طبعه ونشره وأنفق مالا فى هذا الطبع والنشر ؛ فقد يكون من الإسراف فى القسوة أن تعرض لعمل كهذا فيه مشقة وعناء ومال ، فتعلن أنه غير جيد ، وتعلن أنك لا تفهمه .

ولكن ما رأيك فى أن مثل هذه الكتب التى تذاع وتغلو الصحف فى حمدها وتقريظها يتناولها الشبان فيقرءونها ويحتذونها ، فهموها أو لم يفهموها ، وتكون لها الآثار المختلفة فى عقولهم وآرائهم وأساليبهم الكتابية ؟ أليس لهؤلاء الشبان علينا حق أن نلفتهم إلى هذه الكتب ونعينهم على أن يقدروها قبل أن يقرءوها ؟ بلى ! لهم علينا هذا الحق . وأنا مضطر إلى أن أعتذر إلى الأستاذ الرافعى من أنى لا أستطيع أن أثنى على كتابه ولا أن أحث الشبان على قراءته .

تظلم الأستاذ الرافعى إن قلت إنه لا يشق على نفسه فى الكتابة والتأليف ، بل أنت تنصفه إن قلت إنه يتكلف من المشقة فى الكتابة والتأليف أكثر مما ينبغى . ولقد كنت أريد أن أقول إنه ينحت كتبه من الصخر ، ولكنى أجد فى هذه الجملة ما لا ينبغى لوصف هذه المشقة !

ومالى لا أتبسط بعض الشيء : فأقول إن كل جملة من جمل هذا الكتاب تبعث فى نفسى شعوراً قوياً مؤلماً بأن الكاتب يلدها ولادة ، وهو يقاسى فى هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع ، ولو أنه ظفر بعد هذه الآلام بما تظفر به الأمهات بعد آلام الوضع ، لقلنا آلام قيمة لها نتائجها الحسنة وآثارها الخالدة ، ولكنه لا يظفر من هذه الآلام بشيء . فأنت لا تجد لذة فى قراءة هذه الجمل المتعبة المكدودة التى شقت على كاتبها وهى تشق على قارئها .

وكذلك تظلم الأستاذ الرافعى إن قلت إن حظه من العلم باللغة العربية وآدابها وبدقائقها وأسرارها قليل ، وإنما الحق أن الذين يعلمون هذه اللغة كما يعلمها الأستاذ الرافعى قليلون جداً ، وأحسبهم يحصون . والحق أن الذين يظهرون على أسرار هذه اللغة ودقائقها كما يظهر عليها الأستاذ الرافعى قليلون جداً ، وأحسبهم يحصون أيضاً . ولكن ماذا تريد وقد أبى الأستاذ الرافعى ، أو أبت عليه فطرته ، أن يكون علمه باللغة مفيداً وأن يكون ظهوره على أسرارها نافعاً ! ماذا تريد وقد حرص الأستاذ الرافعى على أن يكون عالماً وحده منفصلا عن هذا العالم الذى يعيش فيه .

كنت أصف العقاد فى فصل مضى بشدة الغموض أحياناً ، وقد رضى الأستاذ الرافعى عن هذا الفصل وأنبأنى أنه لم يرض عن شىء مما كتبت كما رضى عن هذا الفصل . ولكنى أعترف بأن غموض العقاد أحياناً ليس شيئاً بالقياس إلى غموض الرافعى دائماً . فأنا لم أفهم مقدمة العقاد ، ولكن فهمت كتابه كله . أما كتاب الرافعى فقد قرأت مقدمته فلم أفهمها ، فقلت كتاب ككتاب العقاد ، فسأفهم رسائله بعد أن أعيتنى مقدمته ، ومضيت فى هذه الرسائل ، فليتنى ما مضيت ؛ لأنى أتممت الكتاب ولم أفهم منه شيئاً .

يجب أن أكون منصفاً ، فأنت تستطيع أن تقطع كتاب الرافعى جملا جملا وأن تجد بين هذه الجمل طائفة غير قليلة فيها شىء من جمال اللفظ وبهرجه يخلبك ويستهويك ، وفيها معان قيمة لا تخلو من نفع ، ولكن المشقة كل المشقة فى أن تصل هذه الجمل بعضها إلى بعض وتستخرج منها شيئاً قيما . لن تظفر من هذا بشىء ، وأكبر ظنى أن الأستاذ الرافعى نفسه لا يحاول أن يقول شيئاً حين يكتب هذه الرسائل ، وإنما هو يذهب فى النثر مذهباً غريباً ، فيتكلف العناء والمشقة فى الغوص على المعانى الغريبة ، ثم يتكلف العناء والمشقة فى أن يسبغ على هذه المعانى الغريبة ألفاظاً غريبة ، حتى إذا تم له من ذلك خلق غريب رص هذا الخلق بعضه إلى بعض فاتسقت منه رسالة ، ثم يستأنف العمل حتى تتسق له رسالة أخرى ، ورسالة ثالثة ورابعة ثم يرص هذه الرسائل بعضها إلى بعض فيتسق له منها كتاب .

وليس أدل على غموض الرافعى من هذه النادرة التى لا أراها تخلو من ظرف وأنا أترك للعقاد وأصحابه أن يصدقوها أو يكذبوها ، وهى أن العقاد أراد أن ينقد كتاب الرافعى فانتفع منه بما كتب على الغلاف ، واتخذ عنوان الكتاب وسيلة إلى أن يذكر مذهبه هو فى فلسفة الجمال والحب . وأحسب أن العقاد لم يكتف بالغلاف فى القراءة ، وإنما وصل إلى قلب الكتاب ، ولكنه اضطر أن يكتفى بالغلاف حين أراد أن يكتب لأنه لم يجد فى الكتاب شيئاً .

ومن غريب الأمر أن لدينا فى مصر رجلين: أحدهما فيلسوف الجمال والحب ، والآخر أديب الجمال والحب . فأما الأول فهو العقاد ، وقد قلت لك غير مرة إنى لا أفهمه أحياناً . وأما الثانى فهو الرافعى . وأنت تظن أن الفلسفة أشد عسراً على الفهم من الأدب ، وأنك تستطيع أن تفهم الأديب فى يسر ،

بل يجب أن تفهمه فى يسر ، وأنك تعذر الفيلسوف إذا وجدت مشقة فى فهم فلسفته . ولكن الله أراد أن تنعكس الآية هذه المرة فتفهم فلسفة العقاد فى الجمال والحب ، أو ما يسميه العقاد فلسفة الجمال والحب،ولا تفهم أدب الرافعى فى الجمال والحب . وإذا أراد الله شيئاً فلا مرد له .

وأنا أريد الآن أن أختم هذا الفصل بطائفة قليلة من الجمل نتخذها نموذجاً لما فى كتاب الرافعى من الغموض والإغراب والعسر . انظر إلى هذه القطعة البديعة : « اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينيه نيفاً وأربعين سنة ، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله فى فصول وأبواب جف القلم منها على نيف وأربعين جزءا كلماتها فى حوادثها ، وإن السطر منها ليرعد فى صحيفته من الغيظ ، وإن الكلمة لتبكى بكاء يرى ، وإن الحرف ليئن أنيناً يسمع ، وإن تاريخه كله ينتفض لأنه مصيبة ملكية مصورة فى ملك » .

اللهم إنى أشهد أنى لا أفهم شيئاً ، إلا أنه يشبه العمر بكتاب من كتب التاريخ ،والحوادث بالكلمات التى تكتب فى هذا الكتاب، والسنين بأجزاء الكتاب . فأما هذه السطور التى ترعد غيظاً فى الصحف ، وأما بكاء الكلمات الذى يرى ، وأنين الحروف الذى يسمع فعلم ذلك كله عند الله وعند الرافعى !

ومع هذا فهذه الجملة أيسر ما فى الكتاب . ومهما يكن من شىء فإن الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم على الطلاسم واقتحام الصعاب وتجشم العظائم من الأمور يستطيعون أن يجدوا فى كتاب الرافعى ما يريدون .

أحسن إليّ وأنا مولاك

في صيف السنة الماضية أهدى الأستاذ الرافعي إليّ كتابه «رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب»، وكتب إليّ يسألني أن أقول في كتابه شيئاً، وأن أحسن كما أحسن الله إليّ، وألا أنسى نصيبي من الدنيا ولا أبغي. وإذاً فقد كان يسألني أن أثني عليه، وقد كان على هذا الثناء حريصاً. وقد كان يدبر في نفسه أني آمن إن أجبته إلى ما يريد فأثنيت وأطريت، وأني معرض لحرب شعواء إن أبيت عليه الثناء والإطراء. وكان في كتابه أقرب إلى التضرع والتسول منه إلى الوعيد والتذير. وقد ضحكت من كتابه هذا وأهملته فيما أهمل، ثم نقدت فلسفته في الجمال والحب، فأغضبه هذا النقد. ويظهر أنه أغضبه إلى حد أن أفقده رشده وصوابه، فكتب ما ستقرأ.

وفي الحق أني قرأت هذا الفصل الذي ستقرؤه، فترددت بين اثنتين: رأيت أن فيه سفهاً كثيراً وشتماً منكراً وتجاوزاً لحدود الأدب والأخلاق، فقدرت في نفسي أن نشره شر لأنه ترويج للمنكر. ورأيت أن الرجل قد هوجم في كتابه، فمن حقه أن يدفع عن نفسه، ومن الحق عليّ أن أنشر له هذا الدفع وإن كان قد أسرف فيه إسرافاً وأسفّ فيه إسفافاً، وقدرت في نفسي أن الناس يقرءون مثل هذا الشر ويحتملون مثل هذا المنكر في طائفة من الصحف، فليس عليهم بأس من أن يقرءوا سفه الرافعي ويحتملوا منكره مرة في «السياسة». وقدرت في نفسي أيضاً أن للناس شيئاً من الحق في أن يظهروا بأنفسهم على أخلاق الكتّاب وآدابهم ومناهجهم في الحوار وهم أحياء. وإذا كنت أكره أن أعرض لأخلاق الأحياء وآدابهم، وإذا كان الرافعي قد أراد أن يعرض نفسه على الناس وأن يعرضها عارية مجردة كأبشع ما خلقها الله، فليس من حقي أن أحول بين الناس وبين هذه النفس، وليس من حقي أن أحول بين الرافعي وبين إظهار نفسه للناس كما خلقها الله في غير تكلف ولا تصنع. وقدرت في نفسي شيئاً آخر، لو أن للرافعي حظّاً من الإنصاف لقدّم إليّ

الشكر عليه . ذلك أن الرافعى كغيره من الكتاب يستطيع أن يكتب ما يفهم وأن يقول أحياناً كلاماً يدل على شىء . وهو إنما يستطيع هذا حين يحس ويشعر ، ويريد أن يصف ما يحس ويشعر ، أى حين يكون صادقاً فى وصف نفسه لا كاذباً عليها ولا واصفاً لها بما ليس فيها . وآية ذلك أنك ستقرأ هذا الفصل فتفهمه أو تفهم منه شيئاً كثيراً ؛ لأن نقدى إياه قد آذاه وأمضه ، فأحس شيئاً من الألم ، وأجرى هذا الألم قلمه بما كتب ، فكان صادقاً فى وصف نفسه وإعلان ألمه ، ومن هنا كان مفهوماً . وهو إذاً يستطيع أن يكون مفهوماً حين يكون صادقاً . ومن هنا تستطيع أن تتبين العلة الصحيحة فى أن فلسفته فى الجمال والحب لا تفهم ولا تدل جملتها على شىء ؛ ذلك لأنه لا يحس هذه الفلسفة ولا يشعر بها ولا يصف جمالا يخلبه حقًّا ، ولا يذكر حباً بعث قلبه على الخفوق ، وإنما هو يكذب على نفسه حين يزعم لها حب الجمال وفهمه ، ويكذب على قلبه حين يزعم له الخفوق بألم الحب ولذته ، ويكذب على الناس حين يزعم لهم أنه يصدر فيما يكتب عن حس وشعور . هو متكلف ، وهو يعرض لما لا يعلم ، وهو يصف ما لا يحس . ومن هنا تورط فى سخف القول وهراء الحديث . ولكنه على كل حال يستطيع أن يكتب شيئاً يفهم إذا لم يكذب على نفسه ولم يصفها بما ليس فيها . فإذا كان لى أن أقدم إليه وإلى أمثاله من الناس الذين يعشقون القديم على غير علم به ولا فهم صحيح له نصيحة ، فهى أن يصدقوا حين يكتبون ، فقد كان القدماء صادقين حين يكتبون ؛ ومن هنا فهمنا القدماء ، ولم نفهم هؤلاء السادة «المتقادمين» .

قدرت فى نفسى كل هذه الأشياء ، فآثرت أن أنشر فصل الرافعى وأنا مع ذلك معتذر إلى القراء من نشره ؛ لأنى لم أعدهم أن أنشر مثل هذا الحمق فى صحيفة الأدب . ومع ذلك فإنى واثق بأن كثيراً من القراء سيشكرون لى نشر هذا الفصل ، لأنهم سيضحكون منه كما ضحكت ، وسيستعينون به على قضاء ساعة لا تخلو من فكاهة وتسلية . وما رأيك فى رجل يزدرينى ثم يكتب هذا الفصل الطويل فلا يدل به إلا على أن الله قد ملأ نفسه غلا وحقداً وخوفاً من النقد وذعراً ! وما رأيك فى رجل يفلسف فى الجمال والحب ، أى يضع نفسه بين الفلاسفة بل بين كبار الفلاسفة ، فلم يفلسف منهم فى الجمال والحب إلا قليل ، ثم لا تمنعه فلسفته أن يكون طفلا ، فيتحدانى ويطلب إلى أن أكتب كتاباً

ككتابه أو كفصل من كتابه . أستغفر الله ! ومتى أبيح لمثلى من الضعفاء أن ينهض لتقليد الرافعى ! أعترف بأنى عاجز عن أن آتى بكتاب ككتاب الرافعى أو بفصل كفصول الرافعى ؛ لأن الله لم يرد أن أكون غامضاً غموض الرافعى ، ولا كاذباً على نفسى وعلى الناس كذب الرافعى ، ولا عابثاً بجمال هذه اللغة عبث الرافعى ، ولا متسولا على الناس فى المدح والثناء تسول الرافعى ، ولا حاقداً على الناقدين حقد الرافعى . أبى الله على كل هذه الحسنات ؛ فليس غريباً أن يعجزنى كتاب الرافعى ، بل فصل من فصوله ، بل جملة من جمله .

ستضحك حين تقرأ هذا الفصل ، ستضحك حين ترى الرافعى يعتب علىّ فى غيظ وحقد . إنى لم أسمه حين خطأنى فى نقد هيكل لاستعمال كلمة « مهوب » ! ولقد أحب أن يعلم الرافعى أنى لم أسمه لأنه لم يكن أول من دلنى على هذا الخطأ ولا آخرهم ، وإنما سبقه إلى ذلك هيكل نفسه ، وروى لى فى ذلك شعراً ، ثم دلنى على هذا الخطأ الأستاذ « وحيد » فى مقال نشرته له « السياسة » وباح لى إلى هذا الخطأ تلميحاً ظريفاً . فإذا كنت لم أسم أحداً فلم يكن ذلك نفاسة على الرافعى ولا جحوداً لعامه باللغة ، وأنا الذى يقول فى الفصل الماضى : إن الذين يحسنون العلم باللغة كما يحسنها هو قليلون .

ستضحك حين تقرأ هذا الفصل فترى الرافعى قد انتهى به الغرور والعجب إلى حيث خيل إليه أنه أغضبنى ، وأنى كنت أسمع كلامه فتبتلعنى ثيابى ، وأنى اقتلعت نفسى من المجلس اقتلاعاً ، بل فررت منه مرتين : تركته عند « عزمى » مرة وفررت إلى هيكل فتبعنى ، فتركت له « السياسة » كلها وأخطأ حين فسر هذا الاقتلاع بأنه أثر الخوف أو ما يشبهه . ولو فسره بشىء آخر يشبه استثقال الظل واستبطاء الحركة لوفق لبعض الصواب . وأخطأ حين قدّر أن ثيابى كانت تبتلعنى ولم تبتلعنى ثيابى !

لقد يكون من الحق على الرافعى لو أنصف نفسه أن يعلم أنى من قوم قد بلوا السفهاء فأحسنوا بلاءهم ، وصبروا لهم واحتملوا منهم شرًّا كثيراً لاضجرين ولا متحرجين ولا مستخفين فى ثيابهم . وإن رجلا يحتمل من السفهاء مثل ما نحتمل منذ امتحن الله مصر فى أخلاقها هذه الأعوام الأخيرة لخليق ألا يضيق صدره إن زاده الله على هؤلاء السفهاء واحداً ، أو يبسم ثغره إن نقص الله من هؤلاء السفهاء واحداً .

أحب أن يعلم الرافعى أنى لا أضيق بالسفهاء ذرعاً، وقد أرى فى سفههم سبيلا إلى اللهو والتسلية . وأحب أن يعلم الرافعى أنى بعيد كل البعد عن أن يغضبنى فصله هذا أو يؤذينى ، وأنى إن أشفق على أحد من هذا الفصل فإنما أشفق على كاتبه ؛ لأنه كتبه وهو محموم أو كالمحموم ، وأشفق على قارئه لأنه سيقرأ نكراً من القول هو إلى هذيان الحمى أقرب منه إلى كلام العقلاء . ولقد نقدت الناس من قبل الرافعى فلم أصانعهم ولم أرفق بهم ، وفيهم ضيِّق الصدر ، وفيهم من لا يحتمل النقد ولا يسعه ، فلم أجد منهم هذا الألم ولا هذا السخط ولا هذا الشيء الذى يذهب على الرجل بعقله وصوابه . ويحك ! وما عليك أن يقول الناس فى كتابك إنه جيد أو ردىء إذا كنت مقتنعاً بأن كتابك جيد ! ويحك ! وفيم تسأل الناس آراءهم فى كتابك إذا كنت ضيق الصدر بهذه الآراء ؟ ويحك ! وفيم تغشى الناس فى بيوتهم ودور أعمالهم ! وفيم تلح عليهم بالبريد مرة وبالبرق مرة أخرى، وفيم ترسل إليهم الوسطاء وتتوسل إليهم بوجوه الناس ، ليتصدقوا على كتبك بكلمة ، إذا كنت لا تستطيع أن تقبل هذه الكلمة كما يريد صاحبها أن تكون؟ ! ويحك ! أللمدح وحده تسلك هذه السبل وتصطنع هذه الوسائل وتتكلف هذه المشقات ! وما قيمة المدح يكره عليه صاحبه ! وما قيمة الثناء يبذله الرجل ليتخلص من ملحّ ثقيل ، كما يبذل الرجل درهمه فى غير إحسان ولا حب للإحسان ولكن ليتخلص من هذا السائل الذى يتبعه فى الطريق أو يأخذ عليه السبيل ! أفى هذا الثناء تطمع ، فإن ظفرت به فأنت سعيد ، وإن لم تظفر به فأنت كهذا السائل الملح يؤيسه العطاء فيتبع مانعه بالشتم والسب ؟! ويحك ! إنك تذكر قوماً قرءوا كتابك وأثنوا عليه . أواثق أنت بأنهم قرءوه ؟ أواثق أنت بأنهم فهموه؟ أواثق أنت بأنهم أثنوا عليه؟ ألم يخطر لك أنهم إنما ذادوك عن أنفسهم وألقوا إليك طرفاً من الثناء ليكفّوك عن اتباعهم والإلحاح عليهم ؟ صدّقنى ، فأقسم ما أريد بك إلا الخير ، وما أكتب هذا إلا مشفقاً عليك رفيقاً بك ناصحاً لك . إن الذين يخيل إليك أنهم يرضون عن كتابك لم يقرأه أكثرهم ولم يفهمه واحد منهم ، ولم يخلصوا فى الثناء عليك ، وإن على هؤلاء الناس لوزراً غير قليل ؛ فهم يشجعونك على الإيغال فى السخف ، ويبعثون فى نفسك غروراً وإعجاباً بما كان ينبغى أن تستخزى له وتستحى منه .

رحم الله حفنى ناصف ! إن لك معه قصة لم أنسها بعد ، قصة توسط فيها البريد وتوسط فيها البرق ، وتوسط فيها بعض الناس ، لينتزع من الرجل ثناء على كتاب من كتبك ، أحسبه « حديث القمر » .

رحم الله حفنى ناصف ! لقد لقيته ذات يوم ، فإذا هو متبرم بك ساخط عليك ، يرسلك ويرسل كتابك معك إلى الشيطان ، وإن بين الأساتذة الأحياء لمن شهد معى تبرمه وسخطه فى القطار بين القاهرة وحلوان .

لا تقل إذاً أثنى علىّ فلان وفلان ؛ ورضى عنى فلان وفلان ؛ فليس لهذا الثناء ولا لهذا الرضا قيمة ، ولكن قل نقدنى فلان وفلان ، وعابنى فلان وفلان ؛ فإن أصدق الناس فى نصحك والإخلاص لك هم الذين ينقدونك لاالذين يحمدونك . إن الذى يحمدك إما أن يكون كاذباً عليك ، وإما أن يكون متخلصاً منك، وإما أن يكون محبًّا لك قد صرفه حبه عن عيوبك . فأما الذى ينقدك فمهما يكن سيئ النية ومهما يكن مسرفاً فى ظلمك والجور عليك ، فهو يدلك على عيوب أنت خليق أن تمتحنها فإن تكن فيك اجتهدت فى أن تبرأ منها ، وإن لم تكن فيك حمدت الله واجتهدت فى ألا تتورط فيها .

كن عاقلا وخف حامدك أكثر مما تخاف ناقدك .

كن عاقلا ، واعلم أن الثناء الخالص الذى لا يشوبه النقد إنما هو كالماء أذيب فيه كثير من السكر ، وتوشك إن أسرفت فى شربه أن يأخذك الغثيان ، وخير لك وأصلح لصحتك أن تضيف إلى هذا الماء والسكر عنصراً ثالثاً يحول بينك وبين التىء . فما كان لك ولا للناس نفع قليل أو كثير فى أن تقىء لهم من حين إلى حين رسائل أحزان أو شيئاً يشبه رسائل الأحزان ...

أما بعد ، فإنى أقوم مقام هيكل فأشكر ثناءك عليه وإكبارك إياه ، وأؤكد لك أنه ليس فى حاجة إلى هذا الثناء لينشر ما تبعث إليه من الفصول . وأؤكد لك مرة أخرى ، وقد أكد لك هيكل نفسه ، أنه لا يستطيع نشر هذه الفصول إذا لم أرد أنا نشرها ما دام إلىّ أمر صحيفة الأدب . ثم أؤكد لك أن رئيس تحرير « السياسة » يؤثر نقدى إياه على حمدك له ، لأن رئيس تحرير السياسة يؤثر الليمون على السكر الخالص . ثم أنصح لك ألا تدخل بينى وبين هيكل فتضطر نفسك إلى ما لا تحب . أحسبك لا تطمع فى أن أرد على ما فى فصلك هذا من رد على ما نقدتك به ؛ فأنت لم تردّ إلا بشتم وسب . وما زلت أقول إن

هذا دليل على أن كتابك ليس جيداً . وما زلت أقول إنى أفهم القرآن وغيره من الآثار الأدبية القديمة والحديثة ، وإذاً فعجزى عن فهم كتابك دليل على أن كتابك ردىء .

أما « السحاب الأحمر » فسأحدثك عنه ، ولكن حين أريد أن أحدثك عنه ، وكما أريد أنا وقواعد النقد ، لا كما تريد أنت وتهالكك على الثناء .

* * *

أرجو أن يتقبل الدكتور أحمد زكى أبو شادى منى أجمل الشكر لهذه الأبيات التى تفضل فأرسلها إلىّ يثنى فيها على حديث الأربعاء ، والتى أعتذر إليه من نشرها ، لا لشىء إلا لأنى أرى الشاعر قد أسرف فى حسن الظن بى ، وغلا فى الثناء على ، حتى حال بينى وبين نشر أبياته هذه ، فأنا أحتفظ بها عندى ، وأرجو أن أوفق لتصديق ظن الشاعر بى ورأيه فيما أكتب . وإذا كنت قد نصحت للرافعى بألا يسرف فى حب الثناء وإذاعته بنوع خاص ، فأنا خليق أن أنتصح بما أنصح به للناس ، وأعيد للشاعر شكرى ، وأرسل إليه تحيتى الخالصة .

ولدىَّ كتب أخرى أحب أن أنشرها اليوم ، ولكن ضيق المكان يضطرنى إلى أن أرجئها إلى الأسبوع الآتى . فلينتظر أصحابها فلن تهمل .

١ – أسلوب الأستاذ وحيد

٢ – مجلة الجديد للأستاذ محمود عزمى

١ – سألنى منذ أسبوع كاتب أديب عن رأيى فى أسلوب الأستاذ وحيد ، وقد كنت أريد أن أقول فى هذا الأسلوب كلمة ، وكنت أرجئ هذه الكلمة من وقت إلى وقت حتى سألنى هذا الأديب ، فرأيت أن أجيبه فى هذا الحديث . ولكن الأستاذ وحيد تعجل الأمر وسبقنى إلى الإجابة ، فوصف نفسه بما أراد له تواضعه واقتصاده وحبه للاعتدال .

وليس من شك فى أن للأستاذ وحيد أن يجيب من شاء بما شاء وكيف شاء . وليس من شك فى أنى أعرف له رفقه بى وأشكر له ضنه بوقتى وأقدر له تواضعه . ولكن هذا كله شىء ، وحقى أن أتناول أسلوب الأستاذ وحيد بكلمة فى هذا الحديث شىء آخر . وأنا شديد الحرص على هذا الحق شديد الضن به . فليعذرنى الأستاذ إذا لم أكتف بجوابه ، وليعذرنى إذا حرصت على أن أعلن رأيى فى أسلوبه .

ليس من الحق أن أمر هذا الأسلوب « ضئيل بئيل » كما يقول صاحبه ، وإنما الحق أنه جليل بليل ، أو عظيم نظيم ، أو خطير بطير ، أو ما شاء الأستاذ وحيد من هذا الإتباع الذى يحسن أحياناً ويسوء أحياناً ، والذى يجيده الأستاذ وحيد كما يجيد غيره من ألوان التكلف اللغوى إجادة يحسد عليها حقًّا .

ولقد قلت الكلمة ، وكنت أريد ألا أقولها إلا بعد تحفظ واحتياط ، وبعد أن أقدم بين يديها المقدمات ، لأنى لا أريد أن أسوء الأستاذ . وإذا كنت لا أريد أن أسوءه فليس ذلك لأنى أريد أن أجامله أو أصانعه ، وإنما هو لأنى أراه خليقاً ألا يساء ، بل أراه بالثناء حريًّا بريًّا ! .

قلت الكلمة فى غير تحفظ ولا احتياط . فلأفسرها ليَعلم الأستاذ وقراؤه أنى لم أرد بها شرًّا . وإنما أردت بها حقًّا الخير .

الأستاذ وحيد ، أو قل أسلوب الأستاذ وحيد ، ظاهرة أدبية غريبة فى

هذا العصر ، غريبة من وجوه عدة . فالناس لم يألفوا الكتابة على هذا النحو ، وإنما ألفوا أن يرسلوا النثر إرسالا مع الطبع ، فيكتبون كما يفكرون وكما يتكلمون . وإذا أرادوا أن يتكلفوا الإحسان ويستزيدوا من الإتقان اجتهدوا فى اجتناب التكلف ، وأحسنوا تخير ألفاظهم على أن تكون سهلة جزلة ، وحرصوا على أن تكون أساليبهم مستقيمة لا ملتوية ولا معوجة : وبعبارة مجملة . ألف الناس فى هذه الأيام ألا يعوقوا القارئ بالتفكير فى ألفاظهم وأساليبهم عن التفكير فى آرائهم ومعانيهم ، لا أستثنى من هؤلاء الناس إلا قوماً لم يرزقهم الله حظاً من المعنى ولم يتح لهم أن يكونوا من ذوى الآراء ، وقد قضى عليهم أن يكونوا كتاباً ، فهم يتكلفون إجادة اللفظ وتعقيد الأسلوب والتحدث إلى الآذان حين عجزوا عن أن يتحدثوا إلى القلوب والعقول . أما الأستاذ وحيد فليس واحداً من هؤلاء ؛ لأنه لا يكتب ليبهر الناس بلفظ أو يسحرهم بأسلوب . وهو لا يرى نفسه كاتباً كبيراً ، ولا يزعم لنفسه مكانة ممتازة بين أهل الأدب . وهو لا يريد أن يروعك باللفظ ولا أن يسحرك بالأسلوب ، وهو لا يكتب ليكتب ، وإنما يكتب لأنه يريد أن يقول لك شيئاً . وقد يكون هذا الشيء عظيما فيطيل فيه إطالة حسنة ، وقد يكون هذا الشيء يسيراً فيوجز فيه إيجازاً بديعاً . وليس هو إذاً من عبيد الألفاظ ، وإنما هو من أهل الرأى ، ولكنه مع ذلك يعنى باللفظ والأسلوب عناية خاصة لا يشاركه فيها أحد . وقد يكون من العسير جداً أن يشاركه فيها إنسان ؛ فأنت لا تقرؤه فى سهولة ويسر ، وأنت مضطر إلى أن تحتمل شيئاً من العناء قليلا أو كثيراً لتفهم عنه وتصل إلى ما يريد . أما منذ حين فقد كنت تحتمل هذا العناء فى أسلوب الأستاذ وحيد ، فقد كان هذا الأسلوب شديد الالتواء ، فيه تعرج وانعطاف وفيه انثناء وانحناء . وقد كنت تجد الضمائر فتبحث لها عن المراجع ولا توفق لها إلا بعد شيء من الجهد . ولو أنك من الذين يقرءون اللاتينية واليونانية القديمة لشبهت لك جمل الأستاذ وحيد فى طوره الأول بجمل هاتين اللغتين اللتين يريد منطقهما أن يكثر فيهما التقديم والتأخير ، حتى إن فهمهما يصبح أقرب إلى حل المسائل الحسابية منه إلى فهم الكلام المألوف .

كنت أفكر كثيراً فى اللاتينية واليونانية حينما كنت أقرأ فصول الأستاذ وحيد فى طوره الأول . وكنت « أبنى » كلام الأستاذ وحيد كما « يبنى » الطلاب

جملهم اللاتينية حين يريدون أن يترجموها ، ، أو قل حين يريدون أن يفهموها ، ومعنى هذا البناء فى اصطلاح الذين يدرسون اللاتينية واليونانية هو هدم الجملة التى وضعها الكاتب وإقرار الألفاظ فى مواضعها كما يريد الفن ، بحيث يوضع المبتدأ فى أول الجملة ثم يليه الفعل ثم يليه المفعول وما يشبهه على النحو الطبيعى .

كنت أبنى جمل الأستاذ وحيد فأرتبها كما يريد النحو ، لا كما يريد فن الأستاذ . وكنت أجتهد فى تلمس النكت الفنية التى حملت الأستاذ على أن يقدم ويؤخر ويدور بمعناه دوراناً يتعب القارئ ويشق عليه ، فكنت أظفر بهذه النكت أحياناً وأخطئها أحياناً أخرى ، ولكنى كنت أجد فى الحالين لذة وفكاهة ، وكنت أقول فى نفسى إن عقل الأستاذ وحيد عقل لاتينى ركب فى شخص عربى .

ولعلى أذكر أن كثيراً من الناس كانوا يجدون ما كنت أجد من المشقة فى فهم الأستاذ وحيد ، وكانوا يجدون ما كنت أجد من الفكاهة واللذة فى تحليل جمله كما نقول نحن ، أو فى « بنائها » كما يقول طلاب اللاتينية واليونانية .

ولعلى أذكر أنى حاولت تقليد الأستاذ وحيد واجتهدت فى ذلك فلم أظفر بشىء ، ولم يقدر الله لى هذا الفوز ، ولكنه قدره لغيرى ، فاستطاع اثنان أو ثلاثة أن يقلدوه فيحسنوا تقليده ، ولكنهم كانو مقلدين ، أى متكلفين لا يصدرون عن طبع ولا يجرون مع سجية ، فلم يتح لهم جمال الصنعة الوحيدية الحرة .

ومهما أنس فلن أنسى مقالا نشرته الأهرام للأستاذ وحيد فى حوار الأحرار الدستوريين ، أراد صاحبه الجد فكان آية الفكاهة ، وكان عنوانه : « ما قول فئة ما قولها ؟ » وقد أراد كتّاب « السياسة » جميعاً يومئذ وأنا منهم أن يردوا على الأستاذ وحيد ، فأعياهم ذلك ولم يوفق له واحد منهم ثم انتدب صديقنا الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة فأجاب الأستاذ وحيد بمقال عنوانه : « ها قول فئة ها قولها » . ولقد اتقن الأستاذ دسوقى أباظة تقليد صاحبه يومئذ حتى خدعنى عن نفسه ، وحتى خيل إلى أن وحيداً قد رد على وحيد . ولست أدرى أكان جاداً أم مازحاً ذلك الذى زعم لى أن الأستاذ وحيد قد أعجب بهذا الفصل حين قرأه واعترف بأن فى « السياسة » قوماً يحسنون الكتابة أو اعترف بشىء يشبه هذا .

ولكنى قلت : إن أسلوب الأستاذ وحيد ظاهرة غريبة فى هذا العصر .

ويجب أن أتم تفسير هذا الرأى ، فليست غرابة أسلوبه فى التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والتأنيث والتذكير وإرجاع الضمير ، بل هى فى ذلك كله وفى شىء آخر ، فى تخير اللفظ الغريب الذى لم يألفه الناس أو لم يسمعوه ؛ فتراه يبحث عن ألفاظ لم يسمع بها أحد من قبل ، وتراه يوفق لهذه الألفاظ فى معاجم اللغة فيسرع إلى اصطناعها وإذاعتها ، ويكره قراءه على أن يعرفوها ويصطنعوها . ثم لا يكتفى بالغوص على الألفاظ الغريبة ، وإنما هو يغوص على الصيغ والأشكال أيضاً ، فيستعمل الصيغ القياسية إذا كان الناس قد ألفوا الصيغ السماعية ، ويلجأ إلى السماع إذا كان الناس قد ألفوا القياس . وأكبر ظنى أنه يكد نفسه ويشق عليها فى البحث عن هذه الألفاظ والصيغ . وأكبر ظنى أنه يرى هذا المثل الأعلى فى الفن من جهة ، ويراه وسيلة إلى نشر اللغة وإذاعتها من جهة أخرى . وأكاد أقدر أنه يكتب كما يكتب الناس أول الأمر ، ثم يترجم هذه اللغة السهلة المألوفة إلى لغته الغريبة النادرة . على أن أسلوب الأستاذ وحيد قد تطور فى هذه الأيام الأخيرة تطوراً شديداً ، تطور فى شكله وصورته كما تطور فى معناه وموضوعه وغايته ، فاستقامت الجمل ، واستقرت الألفاظ فى مواضعها ، وقلت الضمائر ورجعت إلى مراجعها المألوفة ، وعرّف المعرف ونكّر المنكر ، ثم اشتد البحث عن اللفظ الغريب والصيغ النادرة ، فقربت المسافة بين الأستاذ وحيد وبين أصحاب الرجز من الأعراب ، كرؤبة والعجّاج وذى الرمة والشماخ ومن إليهم . وإلى هذ التطور فى الشكل والصورة تطور الأسلوب فى الموضوع والغاية ، فقصد الأستاذ وحيد إلى الهزل وافتن فى المزاح ، وكأن هذا الأسلوب كان قد خلق لهذه الغاية ؛ فإن الذين يحبون الأستاذ والذين يكرهونه والذين يشاركونه فى الرأى والذين يخالفونه فيه والذين يجدونه واضحاً جليًّا والذين يجدونه عويصاً بويصاً ، كل هؤلاء يقرون لأسلوبه فى هذه الأيام،وبعبارة أدق فى هذه الأسابيع الأخيرة،بالظرف وخفة الروح . نعم ! خلق أسلوب الأستاذ وحيد للفكاهة لا للجد . وليس هذا غريباً ؛ فإنك لا ينبغى لك أن تكلفنى مشقة التأويل والتحويل وجهد التقديم والتأخير إلا إذا كنت تكافئنى على هذه المشقة وتثيبنى على هذا الجهد . وقد تعودنا ألا نرى فى الجد مكافأة ولا ثواباً ، وإنما المكافأة الحلوة والثواب اللذيذ هو هذه الفكاهة تسليك وتلهيك وأنت محزون مشغول ، وتحملك على أن تسيغ

الجد ضاحكاً وإن كان مرًّا ممعناً فى المرارة . وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرف الأستاذ وحيد فى استكشاف كلمة « الألعبان » و « الفنخير » و « الفشوش »! وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرفه حين يفسر هذه الكلمات على نحو ما تفسرها معاجم اللغة ، ولكنه يتخذ سعداً موضوعاً لهذا التفسير ! وأنا أريد أن أعود إلى الألعبان بعد حين . وأى الناس يستطيع أن يجحد ظرف الأستاذ وحيد فى هذا الإيجاز البديع الذى يوفق له أحياناً توفيقاً غريباً ، فيكتب المقال لا يتجاوز السطر والسطرين وإن فيه لشيئاً كثيراً ، وإن القارئ ليقرأ فإذا هو قد حفظه عن ظهر قلب . ولقد يستطيع الناس أن يقولوا فى الأستاذ وحيد ما يشاءون ، ولكنهم لن يستطيعوا أن ينكروا أنه مرسل الأمثال فى هذه الأيام . أليس هو الذى أرسل هذا المثل البديع « أما ألعبان ! »

وقد قلت إنى أريد أن أعود إلى « الألعبان » فأنا أخالف الأستاذ وحيد فى ترجمتها إلى الفرنسية ، لا لأن هذه الترجمة خاطئة ، فهى ترجمة حرفية صحيحة ، بل لأنها لا تؤدى فى الفرنسية ما نفهم من اللفظ العربى ، فنحن لا نفهم من لفظ الألعبان كثير اللعب ، سواء أراد الأستاذ وحيد أو لم يرد، وسواء أرادت المعاجم اللغوية أم لم ترد ، وإنما نفهم رجلا يسرف فى اللعب المضحك ، ويسرف فيه حتى يُسلى ويلهى ويبعث على الإغراق فى الضحك . وواضح أن لفظ Grand joueur لا يؤدى هذا المعنى . وما رأى الأستاذ وحيد فى أن نترجم هذه الكلمة بلفظ pitre فهو فيما أرى أوفق الألفاظ للدلالة على ما نفهمه من لفظ « الألعبان » ، فهو يدل بالدقة على ما يفهمه الناس من لفظ « بلياتشو » . أليست هذه الترجمة أدق وأوفى ؟ !

واختيار لفظ الألعبان هذا مظهر لذوق الأستاذ وحيد ، ويجب أن نعترف بأن هذا الذوق رقيق دقيق ، أو قل هو دقيق بقيق . فأنت تجد فى القاموس ألفاظاً كثيرة مشتقة من اللعب تدل على هذا المعنى نفسه ، تقول رجل تَلْعاب وتِلْعاب وتَلْعابة وتِلْعابة بفتح التاء وكسرها . وللكلمة وجوه كثيرة كلها غريب وكلها قوى ، ولكن أقربها إلى الظرف والفكاهة هذه الصيغة التى اختارها الأستاذ وحيد ، صيغة « الألعبان » . ولعل زيادة الألف والنون هى التى جعلت هذا اللفظ خفيفاً سائغاً محبباً إلى الآذان جارياً على الألسنة .

ولست أريد أن أترك أسلوب الأستاذ وحيد دون أن أذكر هذه البطاقات

Billets التى أخذ يرسلها منذ حين إلى الأخبار يضمنها أنباء فكاهية عن سعد، وهى تذكر ببطاقات أنطوان التى يرسلها إلى « الجورنال » كل يوم من ملاعب التمثيل .

وجملة القول فى أسلوب الأستاذ وحيد أنه ظريف كل الظرف إذا ذهب به الكاتب كما يذهب الآن مذهب الفكاهة والهزل . فأما إن قصد به إلى الجد فذلك شىء آخر .

* * *

واندع أسلوب الأستاذ وحيد على كره منا لننتقل إلى مجلة « الجديد » . وأؤكد لعزمى أنى شديد الرغبة فى أن أتحدث عن « الجديد » ، وشديد الحرص بنوع خاص على أن أقرأه وأتدبره ؛ فقد يكون « عزمى » صديقاً لى ، ولكنى لاأفكر فى صداقته حين أكتب ، وإنما أفكر فى شىء آخر يصل بينه وبين الذين يقرؤونه من أحبائه وأعدائه ، وهو أنه خفيف الروح جذاب شيق التفكير ، وأى الناس لا يحب أن يقرأ فصلا تظهر فيه خفة الروح ، ويظهر فيه تفكير شيق قوى ! .

لو أنى أردت أن أميز عزمى من الكتاب السياسيين — فعزمى لا يتشدق بالأدب ولا يتمدح بأنه أديب ، ولا يلصق نفسه بالأدباء إلصاقاً — لميزته بخفة روحه ، وميله إلى الطرافة والابتكار : ولعل أحسن مميز له ولشخصيته الكتابية بنوع خاص هو اسم مجلته « الجديد » ، فعزمى جديد حين يتكلم ، جديد حين يكتب ، جديد حين يفكر ، هو جديد فى لفظه ومعناه .

وما رأيك فى هذه الثقافة « البيضاء المتوسطة » التى تجدها مرات فى مقدمة مجلته، والتى يترجم بها اللفظ الفرنسى : Culture Mediteraneenne ، يريد ثقافة الأمم التى عاشت حول البحر الأبيض المتوسط . أراد أن يعبر عن هذه الثقافة تعبيراً موجزاً شاملا فجلعها بيضاء متوسطة ، كما أن الناس جعلوا البحر أبيض متوسطاً .

هذا تعبير مترجم ، وهو جديد كعزمى . ولست أخفى على عزمى أنى أقبل لفظ« الثقافة » وأقرأه وأعين على إذاعته واستعماله ، ولكنى لا أحب هذه « البيضاء المتوسطة » . وأستطيع أن أسمى ثقافته البيضاء المتوسطة هذه ثقافة يونانية رومانية . فقد يكون من الحق أن الحضارة نشأت فى مصر ونقلها الفنيقيون

إلى اليونان ، ولكن هناك حقا آخر لا شك فيه قد يغضب المتعصبين للشرق ، ولكن هذا لا يغير منه شيئاً ؛ هذا الحق هو أن الثقافة البيضاء المتوسطة ليست شيئاً آخر غير الثقافة اليونانية اللاتينية فى عصرها القديم والحديث . فلنسمها إذاً بهذا الاسم . فهو صحيح ، وهو خفيف على السمع ، وهو برىء من التكلف الذى نجده فى هذا البياض والتوسط . ولكن عزمى جديد يشذ عن المألوف دون أن يشذ عن هذا الشذوذ ! وهو يفكر بالفرنسية ، فإذا كتب فى العربية فهو إنما يترجم إليها . ولعلك تذكر له « منطق الأشياء » « وطبيعة الأشياء » يريد أن يترجم من الفرنسية La logique des choses. La nature de choses .

ولعلك تذكر له « المعلومة الأولى » و « المعلومة الثانية » يريدأن يترجم La donnée التى هى ترجمة فرنسية للكلمة اللاتينية Data .

كل شىء عند « عزمى » جديد ، وقد يغرق أحياناً فى الجدة فيجعل على نفسه سبيلا ، ولكن الإنصاف يقضى بأن نقول إنه لا يتكلف هذا تكلفاً ، لا يقصد إليه حبًّا فى البدع ، وإنما هو مضطر إليه اضطراراً ، كأنه قد فقد طبيعته القديمة فى التفكير والتعبير ، واستبدل منها هذه الطبيعة الفرنسية والجديدة . هناك خطأ فى التعبير يمضك ويثقل عليك حين تلقاه ، وهناك خطأ آخر يحملك على الابتسام ، وربما بعثك إلى الضحك والإغراق فيه ، ومن هذا الخطأ اللغوى المضحك الخفيف ، خطأ عزمى الذى يضطر إليه حين يترجم عن الفرنسية . على أنى لا أريد أن أطيل فى هذه الملاحظات العرضية ، فلنهجم على الموضوع هجوماً ، ولنهنئ عزمى بهذه المجلة المصرية الراقية التى كان المصريون وما زالوا فى حاجة إليها .

ولكن ما موضوع هذه المجلة ؟ كنت أحب أن يكون الأدب من موضوعاتها ، لتكون مجددة فى الأدب كما هى مجددة فى السياسة وفى غيرها من فروع الحياة . ولكنى لم أر إشارة إلى الأدب فى مقدمة عزمى ، أذلك لأنه لا يتكلف الأدب ولا يدعى العلم به ؟ ولكنه لن يكتب مجلته وحده ، ولن يعوزه الأعوان على التجديد فى الأدب ، وإذاً فليفتح عزمى للأدب باباً فى مجلته ، فليست حاجة الناس إلى الأدب أقل من حاجتهم إلى السياسة وما يشبهها .

وهل يغضب عزمى إذا أخذته بشىء كنت أحب ألا آخذه به ، ذلك أنه يذكر الصلات بين مصر وغيرها من البلاد العربية ، فيذكر الجوار واللغة

وفعل التاريخ . وما فعل التاريخ هذا ؟ وما الذى يريده عزمى ؟ أيريد الفتوح واتصال العلاقات السياسية ؟ ولأكن صريحاً ، ولنسأله أين الصلات الدينية ؛ ولم لا يذكرها ؟ ولم يدمجها إدماجاً فيما يسميه فعل التاريخ ؟

ولألاحظ ملاحظة أخرى على عزمى . فهو يريد أن يكون التعليم الأولى فى مصر مدنياً خالصاً لا صلة بينه وبين الدين . وهذا رأى جديد له أنصاره ومؤيدوه ، ولست أناقش عزمى فى حسنه أو قبحه ، ولكنى ألفت عزمى إلى أن تحقيق هذه الفكرة يستلزم تحقيق فكرة أخرى ، وهى أن تكون الدولة مدنية ليس لها دين رسمى ، فأما أن تكون الدولة مسلمة أو مسيحية ويكون التعليم مدنيًّا خالصاً ، فذلك شىء لا يستقيم فى « منطق الأشياء » ! .

أضف إلى هذا أن عزمى معتدل فى السياسة ؛ فهو يريد أن تتحقق آمالنا السياسية على اختلافها فى تطور هادئ ، ولكنه متطرف فى غير السياسة ، فهو يريد ثورة اجتماعية خلقية . ولعل هذا هو الذى حمله على أن يطالب بالتعليم المدنى دون أن يطالب بالفصل بين الدولة والدين . ولست أخفى على عزمى أنى أكره الثورة الاجتماعية كما يفهمها هو وكما يصفها كُرْهى للثورة السياسية ، ولا أستطيع أن أتصور بلداً يثور أهله على أخلاقهم وعاداتهم ونظمهم الاجتماعية دون أن يثوروا على نظمهم السياسية أيضاً فليست النظم السياسية شيئاً مستقلا عن النظم الأخرى ، وإنما هى حلقة من حلقات هذه النظم . ولولا اضطراب فى نظمنا الاجتماعية والخلقية لما اضطربت نظمنا السياسية ؛ ولا أكاد أفهم فى وضوح هذه الحياة الدستورية البرلمانية التى يريدها عزمى لمصر ، على أن تكون مرنة تتشكل بمقدار مالنا من رقى أو انحطاط . فما رأى عزمى فى الدستور الذى ينظم حياتنا الآن ، أملائم هو لهذه الحياة أم مخالف لها ؟ أكثير هو علينا أم قليل ؟ أفى حاجة هو إلى أن ينقص أم فى حاجة إلى أن يزاد ؟

أفهم أن عزمى كاتب سياسى ، وأفهم أن الكتاب السياسيين يحبون المرونة ، ويؤثرون العبارات التى تضطرب بين الوضوح أو الغموض . ولكن عزمى يكتب للمستنيرين ، أى لقوم يحبون أن يفهم بعضهم بعضاً ، وإذاً فليكتب لهم لغة العقليين لا لغة السياسيين . ولقد أريد أن تكون آراء عزمى مبسوطة فى شكل أوضح وأجلى مما بسطت فى المقدمة .

ومهما يكن من شىء فلن يجد عزمى من هؤلاء المستنيرين الذين يكتب

لهم إلا عوناً وتأييداً . وليس معنى هذا أنهم سيشاركونه فى كل رأى ، وإنما هم يؤيدونه ويعينونه حتى حين يخالفونه فى الرأى . وأنا أعلم أن صاحب « الجديد » سيكون جديداً من هذه الناحية ، فلا يغضبه نقد ، ولا يسوءه خلاف . وعلى هذه القاعدة أتقبل مجلته ، وأعده بأن أكون أحد المجددين فيها متى أذنت لى الظروف .

* * *

لدىّ كتب تختلف طولا وقصراً من الأدباء : حسن بهجت ، وشديد محمد رضوان ، وصادق راشد ، وكلها حول نقد الأستاذ الرافعى . فأنا أشكر لهم هذه الكتب ، وأعتذر إليهم لأنى أريد أن أغلق هذا الباب .

أما كتاب العقاد فسأنشره فى الأسبوع الآتى ، إرضاء للأديب صادق راشد والعقاد نفسه ، إذا كان هذا يرضيهما .

في الشعر

الملاح التائه – لعلي محمود طه

أعود الآن إلى هذا الحديث بعد أن صرفتني عنه الحياة وخطوبها أعواماً إن لم تبلغ العشرة فليست تنقص عنها إلا قليلا . وأريد أن أمضي في هذا الحديث كما كنت أمضي فيه من قبل ، حرًّا طليقاً ، لا أقيد نفسي بزمان ، ولا بمكان ، ولا بلون من ألوان الأدب ، ولا بفن من فنون البحث ، إلا أن يكون هذا الشيء الذي ألتزمته فيما مضى ، وأحب أن التزمه فيما يقبل من هذا الحديث ، وهو ألا أتجاوز به الأدب العربي إلى غيره من الآداب .

ولكن الأدب العربي واسع ، بعيد الأطراف مختلف الفنون متباين الأزمنة والأمكنة ، فلا عليّ أن أتنقل بهذا الحديث من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن فن إلى فن ، لا أتبع في ذلك إلا ظروف القراءة وأهواءها ، وظروف القراءة غير المنظمة ، ولا المضطردة ، ولست أكره ذلك ولا أشفق منه ، ولعلي أن أجد فيه شيئاً من الخير لهذا الحديث ، فإن في الاختلاف والتنوع لذة غير مجهولة ، وقد يكون النظام والاضطراد والمحافظة الدقيقة ، على ائتلاف الموضوعات وتشابه فنون الحديث ، ومن الأمور التي إن أعجبت في الكتب فهي ثقيلة مملولة في الصحف ، وحسب الصحف أنها تصدر في نظام واضطراد ، فلا أقل من أن يختلف ما تشتمل عليه ويتنوع ويلهي بعضه عن بعض ، ويريح بعضه من بعض .

وليس من اليسير عليّ أن أستأنف هذا الحديث ، وأن أمضي فيه كما كنت أمضي فيه من قبل بعد أن طال العهد وبعد الأمد ، ودفعت إلى أعمال مختلفة أنستني مذهبه وأسلوبه إلى حد بعيد ، فقد احتاج إلى شيء من التجربة والمران لتستقيم لي طريقه على ما أحب ، أو على قريب مما أحب ، وعلى ما يرضى القارئ أو على ما لا يسخطه ويسلمه إلى السأم أو يضطره إلى النوم . وما أعرف أني شعرت بالحاجة إلى أن أستانف هذا الحديث كما أشعر بها الآن ، لا لأني

فرغت لتحرير هذه الصحيفة وإصدارها فى حياتنا والحمد لله على الخير والشر ما نستطيع أن نتحدث عنه فى الصحف ، وأصدقائى وأصحابى والذين يتصلون بى ويختلفون إلى يعلمون أنى شديد الميل إلى استئناف هذا الحديث منذ زمن بعيد ، ومنهم من كان يدفعنى إلى ذلك دفعاً ، ومنهم من كان يردنى عن ذلك رداً ، بل لأن حياتنا الأدبية فى هذه الأعوام قد تعقدت بعض التعقد ، واختلطت أمورها بعض الاختلاط ، وظهرت فيها فنون من الإنتاج لم تكن موجودة أو لم تكن ظاهرة الوجود قبل عشرة أعوام . وصرفت أنا عن هذه الحياة إلى أعمال التعليم والإدارة فى الجامعة حيناً ، ثم إلى أمور السياسة والجدال فى مشكلاتها حيناً آخر . حتى لقد كان يمر بى العام وأكثر من العام لا أقرأ شيئاً من أدبنا الحديث ، أو لا أكاد أقرأ منه شيئاً . إنما هو الانصراف المطلق إلى الأدب القديم حين كنت أدرسه فى الجامعة ، والانصراف المطلق إلى السياسة حين أعمل فى السياسة ، والإلمام اليسير بالآداب الأجنبية ألتمس فيها من حين إلى حين من الغذاء العقلى والفنى ما لا بد منه للرجل المثقف الذى يريد أن يعيش عقله وقلبه من جهة ، وأن يلقى الناس فيتحدث إليهم ويفهم عنهم من جهة أخرى حتى انقطعت الصلة أو كادت تنقطع بينى وبين حياتنا الأدبية المعاصرة . وكنت شديد الضيق بذلك ، كثير التبرم به والشكوى منه ، ولكن كتابنا وشعراءنا كانوا أشد منى بذلك ضيقاً وتبرماً وأكثر منى سخطاً على ذلك وإنكاراً له ، وكانوا يظلموننى ، فيسرفون فى الظلم ، ويقضون على فيشتطون فى القضاء . يزعمون أنى أتعمد الإعراض عنهم والغض منهم وأكره إنصافهم والتحدث عن آثارهم ، وشهد الله ما أعرضت ، ولا هممت بالإعراض ولا غضضت من أحد ولا هممت بالغض منه ولا كرهت إنصاف آخر ، ولا رغبت عن أن أؤدى إليه حقه . إنما هى حياة ثقيلة كريهة فرضتها على الظروف فرضاً واحتملتها لأنى لم أكن أستطيع شيئاً آخر . وكان كتابنا وشعراؤنا يتأولون هذا الصمت عن آثارهم ، فيسرفون فى التأول ويتجاوزون الحق . ومنهم من كان يتجاوز الخلق الكريم فى التفسير كأنما هم يظنون أن الحياة لعب ، نصرفها كما نشاء وندبرها كما نحب ، وإن الكتاب إذا انتهى إليك لم تكد تأخذه حتى تنظر فيه ولم تكد تبدؤه حتى تتمه ، ولم تكد تفرغ منه حتى تناله بالنقد أو التقريظ ، ثم ترسل ذلك إلى صحيفة من الصحف ، فإذا هو منشور وإذا

صاحب الكتاب راض عنك ، أو ساخط عليك ، ولكنه ظافر بحقه منك على كل حال ، لأنك لم تهمله ، ولم تسلمه إلى الإغضاء ، أو الإهمال ، أو إلى التجاهل والنسيان .

ومثل هذا الظن إنما يخطر للذين فرغ بالهم وخلت حياتهم مما لا تخلو منه حياة بعض الناس . ولكن ماذا ؟ أرانى دفعت إلى شىء من القول لم أكن أريد أن أدخل فيه وأكبر الظن أنها العدوى قد أصابتنى من صديقى المازنى ، فلأعد إلى نفسى ولآخذ فيما أردت أن أتحدث فيه .

ولأعلن مسرعاً إلى كتابنا وشعرائنا أنى سأبذل ما أستطيع من الجهد ، لأفرغ لهم بعض الوقت منذ اليوم .

فأقرأ ما كتبوا وما يكتبون ، وأتحدث إليهم وإلى قرائهم وقرائى بما أرى فى آثارهم وأنا أعلم حق العلم أن هؤلاء الكتاب والشعراء أو أن كثيراً من هؤلاء الكتاب والشعراء الذين كانوا يكرهون منى الصمت ، وينكرون علىّ السكوت ، ويتهموننى بالإعراض والإغضاء ، ويسرف بعضهم فيتهمنى بالحسد ، وبما هو شر من الحسد ، سيتمنون لو أنى مضيت فى الصمت وأغرقت فى السكوت وسيقولون فى أنفسهم وسيقول بعضهم لبعض ليتنا ما أثرناه ولا دعوناه ، إذن لاسترحنا منه ، كما كنا مستريحين ، ولأرحناه من أنفسنا ، كما كنا نريحه ولمضى كل منا لشأنه . . . ! ولكن ماذا يريدون وقد كرهوا الصمت ، فسأمنحهم الكلام ، فأما إن كرهوا الكلام فلن أمنحهم الصمت ، ولكن سأمضى إن شاء الله فيما قصدت إليه ولهم علىّ العهد — وما عرفتنى مخلفاً للعهد قط — ألا أحملهم شططاً وألا أتعمد الإساءة إلى أحد منهم ، أو أتجاوز الإنصاف مهما تكن الظروف ، وأنا أعلم أن بين قوم منهم وبينى إحناً وصروفاً ، ولكن أقسم لأعرضن عن هذه الإحن والصروف ، ولأمتنعن عن أن أخلى بينها وبين ما يجب من الإنصاف والقسط ، حين يكتب الكاتب وينظم الشاعر ، ثم يأتى الناقد فيعرض لما نظم هذا أو كتب ذاك . ولكن ماذا ؟ ! يظهر أن سلطان المازنى عظيم ، وأن التخلص من عدواه ليس بالشىء اليسير ؛ فقد بدأت هذا الحديث بعنوان ولم أصل بعد إلى هذا العنوان ، وإنما أنا أدور حول الموضوع — أستغفر الله — بل أنا أدور بعيداً عن الموضوع دون أن أدنو منه فضلا عن أن أصل إليه . ولو أنى جاريت نفسى ومضيت أملى ما يمر بها من الخواطر

لقلّدت المازنى تقليداً تامًّا ، ولأتممت هذا الفصل قبل أن أبلغ الملاح التائه ، ولاضطررت أن أعد القارئ والشاعر بنقد هذا الديوان البديع فى فصل آخر يذاع بعد أسبوع . ولكنى لا أريد أن أقلد المازنى ولا أريد أن أدور حول النقد ، فصلا كاملا دون أن أبلغه ؛ ولهذا خادعت نفسى عن نفسها ، وبدأت النقد على غير شعور منها ولا التفات . فهأنذا قد وصفت الملاح التائه بأنه ديوان بديع ، وإذاً فقد سجلت على نفسى رأياً من الآراء وحكماً من الأحكام . ولا بد لى من أن أحتمل تبعة هذ الرأى وأبين أسباب هذا الحكم ، ومن أن أحتمل تلك التبعة وأبين هذه الأسباب فى هذا الفصل نفسه ، لا أنتظر ولا أضطر القارئ إلى الانتظار . فإلى اللقاء يا صديقى المازنى ؛ فقد أتأثر بأسلوبك ، وقد أدور كما تدور فى الأسبوع المقبل ، إن شاء الله ، حول كتاب من النثر أو ديوان من الشعر . أما الآن فإنى أهدى إليك التحية الصادقة ، وأودعك لألقى « الملاح التائه » .

* * *

وأنا مشوق جدًّا إلى لقاء الملاح التائه ، فلم أكن أعرفه قبل أمس ، ولست أدرى ألقيته أم لم ألقه ، فما أكثر من ألقى من الناس ، ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، ثم نفترق فكأنى لم أعرفه . لم أكن أعرف الملاح التائه لا من قرب ولا من بعد ؛ فقد كنت أسمع اسمه ، وكان يقال لى إنه مهندس ، يقرض الشعر ، وكنت أحب ذلك وأرضى عنه ؛ لأنى أحب أن يعنى العلماء بالأدب والفن ، وأن يفرغوا لهما من حين إلى حين ، ويستريحوا إليهما من عناء الحياة وجهد العلم . وكنت إذا سمعت الناس يُعْجَبُون بهذا المهندس الشاعر ، وسمعتهم يعجبون بشاعر آخر طبيب ألقاه من حين إلى حين ، أبتسم فى نفسى وأحس شيئاً من الرضا ؛ لأنى أرى العلماء مقبلون على الأدب ، فيسبقون فيه الأدباء الخالصين إلى حد بعيد ، ويجمعون لأنفسهم تفوقاً فى الأدب ، وتفوقاً فيما يعالجون من علم أو فن ، على حين لا يستطيع الأدباء أن ينهضوا بأدبهم إلا متعثرين . ولكنى على ذلك كله أعترف ، وياله من اعتراف مؤلم بأنى لم أقرأ لهذا المهندس الشاعر قبل أن يصل إلىّ ديوانه قليلا ولا كثيراً . فكنت إذاً أجهله جهلا تامًّا ، أجهل شخصه ، وما زلت أجهله إلى الآن ، وأجهل فنه ، ولكنى بدأت أعرفه منذ أمس ، وأنا سعيد بهذه المعرفة كل السعادة ، مغتبط بها أحسن الاغتباط ؛

لأنها أرضت نواحى من نفسى كانت فى حاجة إلى أن ترضى ، ولأنها أسخطت نواحى من نفسى كانت فى حاجة إلى أن تسخط . وأنا أريد أن أكون صريحاً ، فقد سبق العهد منى بذلك . فلو أنى قلت لمهندسنا الشاعر أو لشاعرنا المهندس إن معرفته أرضتنى من كل وجه لكذبت عليه ، ولو أنى قلت له إن معرفته أسخطتنى من كل وجه لكذبت عليه أيضاً . ولكنى عرفته فرضيت ، وسخطت ، وأنا سعيد بهذه المعرفة التى أتاحت لى هذا المزاج الذى أحبه من الرضا والسخط .

فأما أن معرفتى لشاعرنا المهندس قد أرضتنى فلأن شخصيته الفنية محببة إلىّ حقًّا ، فيها عناصر تعجبنى كل الإعجاب وتكاد تفتننى وتستهوينى ، فيها خفة الروح ، وعذوبة النفس ، وفيها هذه الحيرة العميقة ، الطويلة العريضة ، التى لاحد لها ، كأنها محيط لم يوجد على الأرض . هذه الحيرة التى تصور الشاعر ملاحاً تائهاً حقًّا ، والتى تقذفه من شك إلى شك ، ومن وهم إلى وهم ، ومن خيال إلى خيال ، والتى لا تستقر به على حقيقة حتى تزعجه عنها إزعاجاً وتدفعه عنها دفعاً ، وتقذف به إلى حقيقة أخرى لا يكاد يدنو منها ويتبينها بعض الشىء حتى يراها أشد هولا وأعظم نكراً ، وإذا هو يهرب منها ويجد فى الهرب ، وإذا هو يلتمس جبلا يعصمه من الماء فى هذا البحر الطاغى فلا يجده ، أو قل لأنه لا يكاد يجده ويستقر عليه مستريحاً بعض الشىء مما احتمل من عناء وتكلف من جهد ، حتى يبلغ الماء قمته ، ويوشك أن يغمره كله ، وإذا صاحبنا مفلت هارب يلتمس جبلا آخر . ولولا أن له جناحين قويين يطير بهما فيبعد فى الطيران ، ويرتفع بهما فيمعن فى الارتفاع ، لغمره البحر واحتواه الماء ، ولانتهى إلى قرار من الظلمة والهلكة لم يصل إليه الشعراء بعد .

لقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة سماها « الله والشاعر » فأحسست كل هذا الذى صورته لك آنفاً ، ورأيت رجلا لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك ، ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين ، ولا هو بالمنكر المستريح إلى الإنكار ، وإنما هو رجل مضطرب حقًّا ، مضطرب أشد الاضطراب ، يؤمن بالقضاء والقدر ، ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها ، يشكو ثم يستسلم ، ويستسلم ثم يشكو . رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر . وأكبر ظنى أنه لو استقر لكان أشقى الناس ؛ فهو سعيد بحيرته ، مغتبط بهيامه

مبتهج بهذا التيه الذى دفعته إليه نفس طموح جداً لأنها نفس شاعر ، عاجزة جداً لأنها نفس إنسان .

لست أنسى أنى ذهبت فى بعض أيام الصيف مع جماعة من الأصدقاء نستريح فى مدينة « فونتنبلو » وكان بين هؤلاء الأصدقاء رجل أحب شىء إليه أن يخرج للنزهة ، فيمضى فى غير طريق ويسعى على غير هدى ، وكان إذا خرجنا معه إلى الغابة لم نلبث أن نسمع منه هذه الجملة : « هلمّ نضل فى الغابة ساعات » . وكان سعيداً كل السعادة حين يضل . ولكن غابة فونتنبلو على سعتها واختلاطها محدودة لا يلبث الضال فيها أن يهتدى . أما الغابة التى يألفها شاعرنا المهندس فليست محدودة لأنها ليست فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هى فى الكون ، أو هى الكون الذى هو أكبر من الأرض والسماء . فإذا ضل فيها شاعرنا فليس إلى أن يهتدى من سبيل . والواقع أن لم يهتد ، وأنه إن مضى على حاله هذه فلن يهتدى أبداً . وأكبر الظن أنه يحسن الإحسان كله إذا وضع فى هذه الصحراء التى يهيم فيها ، أو فى هذه الغابة التى يضل فيها ، أعلاماً يهتدى بها فى الظلمات . وأكبر الظن أنه يجد هذه الأعلام لو تعمق فى قراءة الفلسفة وفى قراءة طائفة من الفلاسفة بنوع خاص . وليس عيباً على الشاعر أن يقرأ ولا أن يكثر القراءة ، وإنما يعيب الشاعر ألا يقرأ أو ألا يقرأ إلا قليلا .

ولعل شاعرنا المهندس إذا قرأ وأكثر القراءة حمى شعره من بعض ما قد يعاب به . فشاعرنا يلتقى فى بعض الطريق مع جماعة من الشعراء والفلاسفة . وأكبر الظن أنه يلقاهم مصادفة ، ولعله أن يكون قد قرأ لبعضهم شيئاً . ولكن المحقق أنه لا يسعى إليهم ، ولا يعتدى عليهم . فلو أنه قرأ وأكثر القراءة ونظمها ، وقيد ما يستخلصه منها ، لظهر فى شعره ما يدل على أنه قد سعى أو لم يسع إلى هذا الفيلسوف أو ذاك . ولما استطاع أحد أن يظن به السعى أو الاعتداء .

ومن الكتاب من يقول إن شاعرنا تأثر بأبى العلاء ثم يضيق بهذا التأثر . ولست أدرى أتأثر شاعرنا بأبى العلاء حقاً أم تأثر ببيرون أم تأثر بهما جميعاً وبقوم آخرين غيرهما أم لم يتأثر بأحد ، وإنما لقى من لقى من الشعراء والفلاسفة مصادفة وعلى غير قصد ولا عمد . وأحس أنا فى قصيدة أخرى سماها « غرفة الشاعر » روحاً « لموسيه » ، ولكنى لا أدرى أهو روح الذى قرأ فتأثر أم هو

روح الذى أحس فتألم ، فشكا ، فلقى موسييه فى هذا كله أو فى بعضه .
ولست أتردد فى الرضا عن هذه القصيدة والحب لها والإعجاب بها . ولست أكره أن تشاركنى فى هذا الرضا وأن تشاطرنى هذا الحب والإعجاب، فاقرأ معى هذه القصيدة وقف معى عند بعض أبياتها وقفات قصاراً :

أيها الشاعر الكئيب مضى اللي	ل وما زلت غارقاً فى شجونك
مسلماً رأسك الحزين إلى الفك	ر وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخـــرى	فى ارتعاش تمر فـــوق جبينك
وفم ناضب به حـــر أنفـــا	سك يطغى على ضعيف أنينك

* * *

لست تصغى لقاصف الرعد فى اللي	ل ولا يزدهيـــك فى الإبراق
قـــد تمشى خلال غرفتك الصم	ت ودب السكون فى الأعماق
غير هذا السراج فى ضوئه الشا	حب يهفو عليك من إشفاق
وبقايا النيران فى الموقد الذا	بل تبكى الحيـــاة فى الأرماق

* * *

أنت أذبلت بالأسى قلبك الغض	وحطمت من رقيـــق كيانك
آه يا شاعرى لقـــد نصل اللي	ل وما زلت سادراً فى مكانك
ليس يحنو الدجى عليك ولا يأ	سى لتلك الدموع فى أجفانك
ما وراء السهاد فى ليلك الدا	جى وهلاّ فرغت من أحزانك

* * *

فقم الآن من مكانك واغـــنم	فى الـــكرى غطة الخلىّ الطروب
والتمس فى الفراش دفئاً ينسيـ	ـك نهـــار الأسى وليل الخطوب
لست تجزى من الحياة بما حمـ	ـلتَ فيهـــا من الضنى والشحوب
إنهـــا للمجون والختـــل والزيـ	ـف وليست للشاعر الموهوب

هذه الصور المتتابعة المختلفة حسان كلها ، ولكنها بعيدة إلى حد ما عن المألوف من حياة شعرائنا الشرقيين ، إلا أن يكونوا مترفين قد ألفوا حياة الغرب وكلفوا بالسهاد فى غرفة يضطرب فيها نور ضئيل شاحب ، وتفنى فيها بقايا الجذوة فى الموقد ؛ وكل هذا يألفه الغربيون ، وهو يذكر بموسييه تذكيراً قوياً . وبعض الناس يعيب شاعرنا

« بتغريب » الشعر . أما أنا فأحمد له هذا النوع وأراه تشريفاً للشعر العربى ورياضة للذوق الشرقى واللغة العربية على أن يسيغا ما لم يتعودا أن يسغياه من قبل . وإذا كان لى أن آخذ الشاعر بشىء فهو ما قدمته من أن الأمر يختلط فى شعره على القارئ فلا يدرى ألتى زملاءه الغربيين والشرقيين مصادفة أم عن تعمد وسعى .

وواضح جداً أنى لا أريد ولا أستطيع أن أقول لشاعرنا كل ما يعجبنى أو كل ما يغضبنى من شعره ؛ فذلك أطول مما تسعه هذه الصحيفة ، ولكنى قلت له بعض ما يعجبنى ، وقليلا مما يسوءنى . وأريد أن أضيف إلى ما يعجبنى فى شعره ، أنه حلو الأسلوب جزل اللفظ ، جيد اختيار الكلام ، وأن لألفاظه ومعانيه رونقاً أخاذاً تألفه النفس وتكلف به وتستزيد منه ، وأن فى شعره موسيقى ، قلما نظفر بها فى شعر كثير من شعرائنا المحدثين ، وأنه قد استطاع أن يلائم ، إلى حد بعيد ، لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب ، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة فى جمالها ورونقها وبهجتها وجزالتها . كل ذلك ظاهر فى أكثر ديوانه لا أكاد أستثنى منه إلا هذه القصائد التى قيلت فى المناسبات العامة ولم يوحها الشعور الطبيعى لنفس الشاعر . فشاعرنا ترجمان الطبيعة ، وترجمان الإنسان إذا اتصل بالطبيعة وضل فى فيافيها أو فتن بجمالها ، ولكنه ليس شاعر الجماعات ولا ترجمانها ، شاعرنا مغن ، شخصيته أقوى من بيئته ، وليس قصاصاً بيئته أقوى من شخصيته . وأظنه يسمح لى الآن أن أغاضبه بعض الشىء وأن أغاضبه فى غير رفق ولا لين ؛ فهو حريص على الموسيقى ، وهذا واجب عليه وأداؤه مشكور له ، ولكنه يحرص على الموسيقى فى الوزن أكثر مما يحرص عليها فى القافية ، وأظنه يسىء فى القافية كثيراً . وليس يعنينى أن يجد له عذراً عند أصحاب القوافى ، أو لا يجد ، ولكن الذى يعنينى أن القوافى يجب أن تلائم السمع ، وما أظن أن هاتين القافيتين تأتلفان لمكان الواو الساكنة من إحداهما ، والياء الساكنة من الأخرى وانظر إلى هذين البيتين :

روحك فى روحى تبث الحيـــاه نزلت دنيـــاى على نورها
فإن جفاهـــا ذات يوم سناه لاذت بليل المـــوت فى قبرها

وأخرى ألوم عليها الشاعر لوماً غير رفيق ، وهى تقصيره فى ذات النحو أحياناً وفى ذات اللغة أحياناً أخرى . ولن يعدم الشاعر من يعتذر له بمذهب من مذاهب

النحو أو بشاهد من الشواهد الشاذة ، ولكنى أكره للشعراء المجيدين أن يحتاجوا إلى مثل هذا الاعتذار . وانظر إلى قوله :

إن كنت فى شكواى بالمذنب فنك يا رب أخــذت الأمان

فالباء فى خبر « كان » التى لم يسبقها نفى غريبة نابية ثقيلة على الأذن . ولأسأل الشاعر بين قوسين : متى وكيف وأين أخذ الأمان من ربه ؟

وانظر إلى قوله : * يعرق حد السيف من لحمـــه *

فالذى أعرفه أن العظم هو الذى يعرق إذا ما أخذ ما عليه من اللحم ؛ فأما اللحم فإنما يشق أو يقطع أو يمزق ، أو ما شئت من هذه الأفعال التى تلائمك . ومثل هذا التقصير فى موسيقى القافية وفى النحو واللغة كثير ، لا أحب أن أقف عنده فأطيل الوقوف ؛ لأنى لا أريد أن أكون شريراً ، وإنما أكتفى بلفت الشاعر إليه ليصلحه فى الطبعة الثانية ، وليتقى مثله فيما يستأنف من الشعر .

وأحب بعد هذا كله أن أخاصم الشاعر فى بعض مذهبه فى الشعر ، فهو يغلو فى الخيال أحياناً حتى يجاوز المألوف ، ويتورط تورطاً فاحشاً فيما عاب النقاد به أبا تمام .

فهو يجسم ما لا سبيل إلى تجسيمه ؛ وليس بذلك بأس إذا لم يسرف فيه الشعراء وإنما ألموا به إلماماً . أما شاعرنا فيغلو فيه غلواً فاحشاً . وما رأيك فيمن جسم الليل حتى جعل له أوصالا وعروقاً وأجرى فى هذه العروق دماً . وليت شعرى كيف يكون دم الليل : أجامد هو أم سائل ، أناصع هو أم قاتم ، أخفيف هو أم ثقيل! وليت شعرى كيف تكون حال الليل إن سفك سافك دمه : أيموت أم يتجدد له الدم فتتجدد له الحياة . وليت شعرى كيف تكون أوصال الليل . ومن المحقق أن هذه الأوصال والعروق تستتبع لحماً وعظماً وجلداً وما يتصل بهذا كله . أليس يوافقنى الشاعر على أن هذا كثير ، وعلى أن هذه القطعة التى جسم فيها الليل قد شوهت هذه القصيدة الجميلة التى سماها « ميلاد شاعر »؟ بلى ! وأحسبه سيلغيها فى الطبعة الثانية . وأنا أحب أن يمضى فيما أتقن من الوصف والتصوير ، ولكن كما تعود أن يصف ويصور ، وفى رشاقة وخفة لا فى تثاقل وإلحاح .

وأريد بعد هذه الملاحظات السريعة أن أثنى على الشاعر أجمل الثناء ، وأن

أقول له رأيي فى صراحة لا سبيل فيها للغموض والالتواء . فهو شاعر مجيد حقًّا . ولكنه ما زال مبتدئاً، وهو شاعر مجيد حقًّا ولكنه فى حاجة إلى العناية باللغة وأصولها وتعرف أسرارها ودقائقها ، فلا ينبغى للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم أن يكون علمهم باللغة يسيراً محدوداً . وأنا واثق بأن شاعرنا إن عنى بلغته ونحوه وقافيته وتوخى ما آلف من خفة التصوير ورشاقته ودقته ، فسيكون له شأن فى تاريخ الشعر العربى الحديث .

فى الشعر

وراء الغمام – للدكتور إبراهيم ناجى

كان موضوع الحديث يوم الأربعاء الماضى مهندساً ، وموضوع الحديث اليوم طبيب . فما زلنا إذاً بين العلماء الذين لم يصرفهم العلم عن الأدب – أستغفر الله – بل الذين أغراهم العلم بالأدب فأقبلوا عليه وزاحموا فيه أصحابه الذين أنفقوا فيه حياتهم ، ووقفوا عليه جهودهم . زاحموهم مزاحمة الموفق المنتصر الذى لم يظفر من النجح بحظ قليل .

ويظهر أنا لن نفرغ من العلماء الذين أحبوا الأدب وكلفوا بالشعر إذا فرغنا من الحديث عن ديوان شاعرنا الطبيب ؛ فغيره وغير صاحبه المهندس من غذى عقله بالعلم ، وقلبه بالشعر وقدّم إلى الناس من نتائج علمه ما ينفعهم ، ومن نتائج شعره ما يرضيهم من الغناء . وكم أتمنى أن أرى بين الأدباء من لا يزهدهم الأدب فى العلم أو من يغريهم الأدب بالعلم ؛ فإنى أستطيع أن أتصور عالماً يستغنى بالعلم ولا يحفل بأن يشارك فى الأدب أو يكون بين المنتجين من الكتاب والشعراء ، ولكنى لا أستطيع أن أتصور أديباً يستغنى عن العلم ويستقل بالشعر أو النثر استقلالا تامّاً – كما يقول أصحاب السياسة – دون أن يحتاج إلى معونة العلم ، ومعونته الدقيقة التى تدفعه إليها الضرورة الملجئة كلما هم أن يكتب أو ينظم الشعر . بل أنا أزعم أن هؤلاء الأدباء الذين يغرّهم الأدب ويزدهيهم ويغنيهم بنفسه عن العلم ، يدفعون إلى الإنتاج الردىء دفعاً ؛ لأنهم يجهلون العلم فيجهلون الحياة التى يجب أن تكون موضوعاً لأدبهم منظوماً كان أو منثوراً . ولكن لندع الاستطراد ولنعد إلى شاعرنا الطبيب لنهدى إليه أجمل التحية وأحسن الثناء ، ولنعرف له هذا البلاء الحسن الذى أبلاه فى خدمة آلهة الشعر فى وقت قل فيه الخدام المخلصون لهؤلاء الآلهة ، كما كان يقول اليونان ، أو لهؤلاء الشياطين ، كما كان يقول العرب . على أننا إن أثنينا على شاعرنا الطبيب لحسن بلائه وصدق نيته فى العناية بآلهة الشعر أو شياطينه ، ووقفنا عند ذلك ، نظلمه أشنع الظلم ، ونجور عليه أقبح الجور . فليس الدكتور إبراهيم

ناجى رجلا حسن البلاء صادق النية فى حب الشعر فحسب ، وإنما هو فوق هذا كله موفق إلى حد بعيد فيما حاول من إرضاء الشعر وأصحابه ، موفق فيما قصد إليه من المعانى ، موفق فيما اصطنع من الألفاظ وموفق فيما اتخذ من الأساليب . معانيه جيدة تصل أحياناً إلى الروعة ، وإن كانت تنتهى إلى الابتذال . وألفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة ، وقد تكره أذن السامع على الالتفات والإعجاب والشعور بهذه اللذة الموسيقية التى يشعر بها الناس أحياناً بآذانهم ، وإن لم تصل إلى عقولهم . وأساليبه جيدة أيضاً عظيمة الحظ من الصفاء ، لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء فى كثير من الأحيان ، وإن كنا سنقف مع الشاعر وقفات عند ألفاظ لا تخلو من خطأ ، وأساليب لا تبرأ من عوج ، ومعان لعلها تبعد عن الصواب . ولكن الذى يطالب الشاعر بالإجادة المطلقة فى الألفاظ والمعانى والأساليب يكلفه شيئاً عسيراً لا يتاح إلا لجماعة معدودين من الشعراء ، الذين ميزهم النبوغ وسما بهم إلى حيث لا يكاد يرقى إليهم النقد إلا فى مشقة وجهد وعسر شديد .

ونحن نكذب شاعرنا الطبيب إن زعمنا له أنه نابغة ، بل نحن نكذبه إن زعمنا له أنه عظيم الحظ من الامتياز ، وإنما هو شاعر مجيد تألفه النفس ، ويصبو إليه القلب ، ويأنس إليه قارئه أحياناً ، ويطرب له سامعه دائماً . فإذا نظرنا إليه نظرة الناقد المحلل الذى يريد أن يقسم الشعر أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً ، كما يقول الفرنسيون ، لم يكد يثبت لنا أو يصبر على نقدنا ، وإنما يدركه الإعياء قبل أن يدركنا ، ويفر عنه الجمال الفنى قبل أن يفرّ عنا الصبر على الدرس والنقد والتحليل .

هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن يُقرَءوا فى رفق ، لأنهم قد فطروا على رقة لا تحتمل العنف وشدة الضغط . هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن نستمتع بما فى شعرهم من الجمال الفنى ، كما نستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة ، دون أن نشط عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين ، لين ، رقيق ، حلو الصوت عذب النفس ، خفيف الروح ، قوى الجناح ، ولكن إلى حد . لا يستطيع أن يتجاوز الرياض المألوفة ، ولا أن يرتفع فى الجو ارتفاعاً بعيد المدى ، وإنما قصاراه أن يتنقل فى هذه الرياض التى تنبت فى المدينة أو من حولها ، والتى لا تكاد تبعد عنها كثيراً . وهو إذا ألمّ بحديقة من الحدائق أو جنة من الجنات لا يحب أن يقع على أشجارها الضخمة الشامخة فى السماء ، وإنما يحب أن يقع على أشجارها المعتدلة

الهينة ، ويتخير من هذه الأشجار أغصانها الرطبة اللدنة التى تثير فى النفس حناناً إليها ، لا إكباراً لها ولا إشفاقاً منها . هو شاعر حب رقيق ، ولكنه ليس مسرفاً فى العمق ، ولا مسرفاً فى السعة ، ولا مسرفاً فى الحب الذى يحرق القلوب تحريقاً ويمزق النفوس تمزيقاً . شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب ، وتهيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء .

شعره كهذه الموسيقى التى يفسدها الفضاء الطلق وتضيع فى الميادين الواسعة ، وتجود كل الجودة وتحسن كل الحسن حين تغلق الأبواب ، وترخى الأستار ، ويخلو النجى إلى النجىّ ، ويفرغ الصفى للصفىّ ، ويتمتع الحبيب بقرب الحبيب .

وهذا فيما أظن هو أعظم ما بينه وبين شاعرنا المهندس من الفروق ؛ فالأستاذ على محمود طه مهيأ لأن يكون جباراً إن عُنى بفنه وفرغ له وجدّ فى طلب الإجادة والإتقان . أما الدكتور إبراهيم ناجى فمهيأ لأن يكون هذا الشاعر الوديع الذى لا يتعبنا ويعنينا ، ولا يكلفنا فوق ما نطيق من المشقة والجهد ، وإنما يريحنا إن تعبنا ويرفه عنا إن شقينا ، ويثير فى نفوسنا هذه الأغانى الهادئة الوادعة التى تهيئنا لأحلام جميلة عذاب. صوته يرنّ فى آذاننا ونفوسنا رنيناً حلواً على حين يدوى صوت صاحبه فى آذاننا ونفوسنا دوياً يخرجنا عن أطوارنا .

ثم فى شعر الدكتور ناجى بعد ذلك هنات أحب أن يلتفت إليها ، ويعنى بإصلاحها عناية شديدة متصلة . فلست أعرف شعراً أشد حاجة إلى أن يبرأ من العيب من هذا الشعر الوادع الذى يمتاز بالرقة والرفق ، والذى يتحدث إلى النفوس المحزونة ، والقلوب المكلومة ، والضمائر التى تريد أن تستريح .

وأول هذه العيوب شىء من التكلف والحرص الظاهر على إقامة الوزن ، أو على إقرار القافية ، أو على مجاراة جماعة من الشعراء والمفكرين . وسأعرض بعد قليل للتكلف الذى يتصل بالوزن أو الذى يتصل بالقافية ، ولكنى أريد قبل ذلك أن أقف وقفة قصيرة جداً عند هذا التكلف الذى يتصل بمجاراة الشعراء والمفكرين ، والذى يجعلنا نحس فى بعض القصائد أن الشاعر لم ينظمها إلا ليقال إنه نظمها فى هذا الموضوع أو ذاك ، أو يجعلنا نحس أن الشاعر قد نظمها وهو غريب عن موضوعها أو غريب عن هذا النحو من النظم ، لم يهيأ له وما ينبغى أن يشق به أو يدفع نفسه إليه . وانظر إلى هذه القصيدة التى سماها الشاعر « قلب راقصة »

فقد تُعجب كثيراً من الناس وتروقهم ، ولعلها تُعجب الشاعر نفسه وتروقه ، ولكنى أؤكد للشاعر والذين يُعجبون بهذه القصيدة من شعره أنها على ما قد يكون فيها من جمال اللفظ وحسن الانسجام أحياناً ليست شيئاً ، فليس فيها جديد ما ، وإنما هى كلام مألوف قد شبع الناس منه حتى كاد يدركهم الملل . كان جديداً فى أواسط القرن التاسع عشر حين أخذ بعض الكتاب والشعراء يحسن شيئاً من الإشفاق على الراقصات ، وعلى بنات اللهو ، وحين جعل « ألكسندر دوماس » العطف على هؤلاء النساء والرثاء لحالهن بدعا من البدع وفنًّا من فلسفة الأدباء ، ثم كثر هذا الكلام وشاع وملأ الأفواه والأسماع حتى زهد الناس فيه وانصرفوا عنه .

وفى القصيدة وصف للحانة لا جديد فيه ولا طريف . ولعل الشاعر يحس ذلك ، وهو على كل حال يضطرنا إلى أن نحسه فى بعض شعره . فانظر إليه كيف يبتدئ القصيدة :

أمسيت أشكو الضيق والأينا   مستغرقاً فى الفكر والسأم
فمضيت لا أدرى إلى أين   ومشيت حيث تجرنى قدمى
فرأيت فيما أبصرت عينى   ملهى أعد ليبهج الناسا
يجلون فيه قرائح الحسن   ويباع فيه اللهو أجناسا
بغرائب الألوان مزدهر   وتراه بالأضواء مغمورا
فقصدته عجلا ولى بصر   شبه الفراشة يعشق النورا

أترى فى هذا الكلام معنى جديداً ؟ بل أترى فى هذا الكلام معنى مألوفاً صور للناس فى هذه الصورة الطريفة الرائعة التى ينتظرها الناس من الشعراء حين يتحدثون إليهم بالمعانى المألوفة ؟ كلا ! إنما أحس الشاعر ضيقاً وسأماً ، فخرج يمشى ليسرى عن نفسه الهم . فأبصر مكاناً مضيئاً من أمكنة اللهو فدعاه الضوء ، فدخل إلى هذا الملهى .

هذه هى المعانى التى اشتملت عليها هذه الأبيات الستة ، لا جديد فيها كما ترى ولا غرابة ، ولا جديد فى الألفاظ والصور التى أدى بها هذه المعانى ، بل دفع فيها الشاعر إلى شىء من التكلف أو من الخطأ أو إلى شىء لا أدرى ما هو ، ولكنه لا يحسن من الشعراء . فانظر إليه وقد أمسى يشكو الضيق والأين وهو مستغرق فى الفكر والسأم . فأما الضيق والسأم فقد نفهمهما من الشاعر ، وقد نفهم أن يشكو التعب ولا سيما إذا كان طبيباً قد أنفق ساعات طوالا يلقى المرضى ويفحصهم ، ويصف لهم الدواء ، ويسمع منهم ما لا يحب الشعراء أن يسمعوه . ولكن الذى

لا يستقيم للشاعر المجيد هو الاستغراق فى الفكر والسأم معاً . فالمفكر لا يسأم ، والسئم لا يفكر ؛ لأن التفكير يشغل صاحبه حتّى عن الضيق ، والتعب ، والسأم . ولأن السأم لا يمكن صاحبه من التفكير ، ولا يخلى بينه وبينه . وعلى كل حال فقد أمسى الشاعر ضيقًا متعبًا مغرقًا فى السأم والتفكير ، فخرج لا يدرى إلى أين ، ومضى حيث تجره قدمه . فانظر إلى هذه الصورة التى لا تلائم شعراً ولا تلائم لغة . فالقدم لا تجر صاحبها ، وإنما تحمله ، وتحمله متثاقلة مكدودة إن لم يتح لها النشاط ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه إذا خرج فاتراً مكدوداً لا يقوى على المشى . ولكن الشاعر أراد قافية تلائم السأم ، فجعل قدمه تجره ، على حين كان ينبغى أن يجرها هو . فإذا لاحظت أن « السأم » نفسها قلقة فى موضعها لا يستقيم مع التفكير ، ولاسيما بعد أن ذكر الضيق والأين ، عرفت إلى أين ينتهى تكلف النظم بالشعراء المجيدين أحياناً !

ثم انظر إلى قوله :

فرأيت فيما أبصرت عينى ملهى أعد ليبهج الناسا

فالشطر الثانى كله لا معنى له ، ولا امتياز فيه . و « فيما أبصرت عينى » غريبة لأنها تشعر أن هذا الملهى كان شيئاً ضئيلا ضائعاً بين ما رأى من الأشياء . وأكبر الظن أن هذه الأنوار المتألقة التى تعلن عن الملاهى خليقة ألا تجعله ضئيلا يستخفى بين الأشياء التى ترى ، بل عظيما يصرف عما حوله من الأشياء . ولكنه أراد أن يقيم الوزن ، فأكره على هذه الجملة إكراهاً . وأراد أن يقيم الوزن والقافية فأكره على قوله : «أعد ليبهج الناسا». فالملهى لا يُعَدّ لشىء آخر ، ولكن « الناس » كلمة تلائم « الأجناس » ، وتعقد معها شيئاً من النظام ، فاحتال الشاعر لهذه الكلمة حتى جعلها قافية ! !

وانظر إلى كلمة «الحسن» فى البيت الذى يأتى بعد هذا وإلى ما بينها وبين « عينى » من هذه الملاءمة الغريبة التى يتورط فيها شعراؤنا المعاصرون كثيراً . ثم انظر إلى قوله :

* بغرائب الألوان مزدهر *

فسترى أنه رفع « مزدهر » هذه ، وكان الخير فى نصبها لأن الملهى منصوب ، فكان يحسن أن تقع منه موقع النعت ، ولكنه قطع الكلام واستأنفه لا لشىء إلا ليلائم بين « مزدهر » هذه وبين قوله فى البيت الذى يليه : « ولى بصر » .

أترى إلى كل هذه الألوان من التكلف كيف دفع الشاعر إليها فى غير حاجة لولا أنه يريد أن يقول الشعر فيما لا يستقيم له أن يقول الشعر فيه .

وامض فى قراءة القصيدة ، فستنتقل من كلام مألوف إلى كلام مألوف ، وستمر بضعف لتتجاوزه إلى ضعف آخر ، حتى تصل إلى هذين البيتين الغريبين حقًّا :

يا للقلـــوب لملتقى اثنـــين   لا يعلمان لأيما سبب
جمعتهما الدنيـــا غريبين   فتآلفا فى خـــلوة عجب

فالملاءمة بين « اثنين » و « غريبين » ثقيلة فى نغمتهما . ولكن ما رأيك فى الشاعر الذى يلقى صاحبته ويلح فى لقائها ، حتى إذا ظفر به أراد أن تضرب له موعداً وألح فى ذلك حتى فعلت ، ثم التقيا بعد انتظار وخوف يشبه اليأس ، ثم هو بعد ذلك لا يدرى لم يلقاها كما أنها لا تدرى لم تلقاه ؟ .

هذا كثير ، لا مصدر له إلا أن الشاعر تكلف ما لا يحسن ، ودفع نفسه إلى موطن لم يتعود الاضطراب فيه .

وانظر بعد ذلك إلى هذين البيتين :

عجباً لقلب كان مطمعه   طرباً فجاء الأمر بالعكس
وأشد ما فى الكون أجمعـــه   بين القلوب أواصر البؤس

فقوله « جاء الأمر بالعكس » كلمة خرجت من الأزهر الشريف ، ولست أدرى كيف اهتدت إلى شاعرنا الطبيب . وهى على كل حال من أشد الكلام نبوًّا فى الشعر ومنافاة للجمال الفنى . ولكن انظر إلى قوله « وأشد ما فى الكون أجمعه » فكيف تقرأ « أجمعه » أتضم العين أم تكسرها ، فأنت إن ضممت أرضيت القافية وأغضبت النحو . وأنت إن كسرت أغضبت سيبويه وأرضيت الخليل !

ومثل هذا الخطأ ومثل هذا التكلف كثير جدًّا فى الديوان ، وكان الشاعر يستطيع أن يتقيه وأن يبرأ منه لو أنه لم يخرج نفسه عن طورها ، ولم يعرض لما لا ينبغى له أن يعالجه من الموضوعات ، ولو أنه عنى باللغة والنحو . وهذه النواحى التى يهملها المحدثون حين يكتبون أو ينظمون ، يحسبون أنهم يجددون ، وأن التجديد يبيح لهم أن يعذبوا اللغة وأن يمسخوها ، ويجهلون أو يتجاهلون أن أجمل المعانى وأروعها

يفسد أقبح الفساد إذا لم يُؤَدَّ فى لفظ مستقيم جميل . وما أشدّ ما كنت أحب للشاعر أن يعرض عن هذه الفكرة الغريبة التى لا تستقيم للعقل ، وهى أن الحنان قد يعظم حتى يتجسم ويصبح شخصاً . فى هذا المعنى الغريب نظم الشاعر قصيدة لا أريد أن أعرض لها لأنى أرى هذا المعنى نفسه يفسدها إفساداً . فالحنان يعظم حتى يملأ القلب ويغمر النفس ، ويؤثر فى حياة الإنسان ، فأما أنه يتجسم فيصبح شخصاً ، فهذا كلام قد يفهمه الشعراء ، ولكن فهمه عسير على النقاد .

وهناك أبيات يهمل الشاعر فيها المعانى إهمالا قبيحاً يضطره إلى التناقض فى اللفظ ، ويلقى فى أنفسنا أن الشاعر لا يحفل بمعانى الكلمات . فانظر إلى قوله : « تخطر والأنظار تحدو الركاب » . فكيف تخطر على حين أنها راكبة ! ولنلاحظ أن كل شىء بعد هذا صريح فى أنها كانت ماشية ، إنما أراد الشاعر أن يقول إنها تخطر والأنظار تتبعها ، فجاء بكلمة « الركاب » هذه ليقيم بها الوزن والقافية ، حتى إذا بلغ مأربه منها نسيها نسياناً تامًّا ومشى مع صاحبته الماشية . وهو فى قصيدة أخرى يقول « ورسا رحلى على أرض الوطن » . والرحل لا يرسو ، وإنما يحط ، وقد حطه الشاعر نفسه فى مكان آخر ، إنما ترسو السفن . وأظن أن الملاح التائه ، يعرف ذلك ، وإن كانت سفينته لم ترس بعد .

وانظر إلى قوله :

مرت الساعـــة والليـــل دنا   والهوى الصامت يغدو ويروح

فنحن فى الليل ، أو نحن فى المساء غير بعيد من الليل ، ولكن الهوى الصامت يغدو ويروح ، والغدوّ لا يكون إلا فى الغداة ، لا فى الليل ولا قريباً من أول الليل ، وإنما أراد الشاعر : يذهب ويجىء ، فظن أن الغدو والرواح يؤديان معنى الذهاب والمجىء . وكان يستطيع أن يقول ، يمضى ويجىء . ولكنه محتاج إلى « يروح » لمكان القافية فى البيت الذى يأتى بعد ذلك ، وهو قوله :

وتلاشت واختفت أجســادنا   واعتنقنـــا فى الدجى روحاً بروح

ولنلاحظ أن كلمة « تلاشت » ، هذه ليست من كلمات الشعر ، وأنها على كل حال أقوى من « اختفت » ، فكان ينبغى أن تأتى بعدها ، لا قبلها ، وأن للشاعر وحبيبه جسدين اثنين ، لا أجساداً ، ولكن البيت يجب أن يقام على كل حال . . !

أما بعد ، فقد كنت أحب أن أعرف للشاعر إجادة رائعة فى وصف القبر ، كهذه الإجادة الرائعة التى وفق لها صاحبه المهندس . ولكن الدكتور إبراهيم ناجى ، كما قلت ، شاعر هادئ ، قوى الجناح إلى حد بعيد ، ولكنه لا يروع .

أما بعد مرة أخرى ، فإنى آسف أشد الأسف لهذا الإلحاح ، ولكنى مضطر إليه ، فشاعرنا فى حاجة إلى أن يُعنى بلغته . ولو أنى ذهبت أحصى ما لاحظته من الضعف أو الخطأ ، لتجاوزت الحد الذى يطيقه هذا الحديث . وأنا بعد هذا كله أتمنى للشاعر توفيقاً ونجاحاً فى ديوانه الذى سيهديه إلينا بعد هذا الديوان أكثر مما ظفر به فى هذا الديوان الأول . وأحب فى آخر هذا الحديث أن أسأل عن شيئين : أولهما عنوان الديوان لم أفهمه إلى الآن ! وأخشى أن يكون العنوان متكلفاً ، كما أن كثيراً من المعانى والألفاظ ومن الأوزان والقوافى متكلف أيضاً .

أما الشىء الثانى الذى أسأل عنه فإنى أسوقه إلى صديقنا الصاوى الذى قدّم الديوان إلى القراء ؛ فإن فى مقدمته جملة قد اختلط أمر النحو فيها اختلاطاً غريباً . ولعل لصديقنا الأديب مذهباً جديداً فى تغلب المؤنث على المذكر إذا اجتمعا ، فالذوق الحديث يقتضى هذا فيما يقال ، ولكن صديقنا لم يراع هذا أيضًا ، وإنما ترك الأمر فوضى بين المذكر والمؤنث فى هذه الجملة التى أرويها لك :

« وكأنى بإلاهة الحب "الزهرة" وإله الشعر "أبولو" سارا جنباً إلى جنب يقطعان الأفلاك والأجيال باحثين عن رجل يعيش بالحب والشعر ويعيش لهما ومن أجلهما ، فهو دائماً المحب الشاعر حتى تجلىلهما من وراء الغمام ، وعندئذ تنازعتا عليه .

فإلاهة الحب تدّعيه لنفسها خالصاً وإله الشعر ينسبه إلى ملكوته خالصاً ، وكيف لى أن أنسب ناجى إلى هذه دون تلك » .

أرأيت إلى أن صديقنا الصاوى قد جرى مع طبعه أول الأمر ومع طبيعة اللغة فغلب المذكر على المؤنث ، ثم لم يلبث أن غلبه الذوق الأوربى الحديث فغلب المؤنث على المذكر ، ثم لم يكفه هذا فجعل أبولو مؤنثاً وأشار إليه بتلك . . ! أليس من حق اللغة على الشاعر ، ومقدم ديوانه أن يعتذرا إليها من بعض ما تورطا فيه من التقصير ! وهل يأذن لى صديقى الصاوى فى أن أذكره بأن « أبولو » لم يكن يحب الزهرة ، وإنما كان يحب غيرها من أخواته الإلاهات القديمات !

أخلاق الأدباء

أما اليوم فأريد أن أدع الأدب شعره ونثره ، لأتحدث قليلا عن الأدباء ، وعن أخلاقهم خاصة . وواضح أنى لن أعرض ، وما ينبغى لى فى هذا الفصل أن أعرض لهذه الأخلاق الخاصة التى تقوم عليها حياة الأدباء إذا خلوا إلى أنفسهم أو اتصلوا بأصحاب مودتهم وحبهم ؛ فهذا شىء قد أعرض له حين يحتاج نقد بعض الآثار الأدبية إلى ذلك . إنما أريد أن أعرض لأخلاق الأدباء من حيث هم أدباء ، أو لأخلاقهم الأدبية إن صح هذا التعبير ، أو لهذه الأخلاق التى تقوم عليها الصلة بينهم وبين قرائهم من ناحية ، وبينهم وبين نقادهم من ناحية أخرى ، وبينهم وبين أنصارهم ومنافسيهم من ناحية ثالثة . فقد يظهر أن هذا اللون من ألوان الأخلاق الأدبية عندنا ، لا يخلو من طرافة تحتاج إلى أن تسجل ، وإلى أن تفهم ، وإلى أن يحفظها التاريخ الأدبى للذين سيدرسون حياتنا الأدبية بعد أعوام .

وأخص ما نلاحظه فى أخلاق الأدباء هذه طائفة من الخصال لا تسرّ ولا ترضى . وما نظن الذين سيكتبون عن حياتنا الأدبية سيعرضون لها إلا مع شىء من الابتسام الذى يصور الإشفاق والرحمة ، وشىء غير قليل من الازدراء . فأدباؤنا المحدثون ضعاف ، ولا أريد ضعفهم فى الأدب ، ولا ضعفهم فى اللغة ، ولا ضعفهم فى الشعور ، ولا قصورهم عن التصوير ، إنما أريد ضعفهم عن احتمال النقد ، وعجزهم عن الثبات للنقاد . لا تكاد تمس أحدهم مسًّا رفيقاً حتى تأخذه رعدة كهربائية تضطرب لها أعصابه كلها ، ويفسد لها مزاجه فساداً قبيحاً ، ثم تظهر آثار هذا الفساد وذلك الاضطراب فيما يصدر عنه من الأحاديث حين يتحدث إلى أصدقائه فى ناد من الأندية ، وفيما يصدر عنه من الفصول التى يكتبها ويذيعها فى الناس ، وفيما يصدر عنه من هذا الوحى الخبيث الذى يلقيه فى رُوع جماعة من المنتصرين له والمحيطين به ، يدفعهم إلى أن يذيعوا ما استطاعوا الإذاعة ، ويكتبوا ما أطاقوا الكتابة ، ويقولوا ما وسعهم القول . كل هذا لأن ناقداً من النقاد قد مسهم مسًّا رفيقاً ، فأخذهم بقصور فى الشعور أو قصور فى التعبير والتصوير ، كأنهم قد أخذوا على أنفسهم وعلى الحياة وعلى النقاد عهداً بأنهم أكبر من الخطأ وأرقى من الزلل وأعلى من النقد ،

وأرفع من أن يرقى إليهم ناقد مهما يكن . ومن يضع نفسه هذا الموضع ويرى فى نفسه هذا الرأى خليق ألا يتصل بالحياة العامة من قريب أو من بعيد ؛ فهذا العهد لا يمكن أن يؤخذ على الحياة ، ولا على الناس ولا على النقاد . ومهما يكن الكاتب والشاعر مجيداً متقناً أو نابغة فذًّا ، فهو إنسان ، وهو معرض للنقص ، وهو بعيد عن الكمال . وهبه قد بلغ الكمال أو داناه ، فالناس لن يؤمنوا له بذلك ، لا لأنهم أشرار يحسدونه أو ينفسون عليه ، بل لأن الطبائع مختلفة ، واختلاف الطبائع يستتبع من أجل هذا كله اختلاف الأحكام على الناس وما يصدر عنهم من الآثار والأعمال . فمن السخف أن يزعم الأديب لنفسه أنه خليق أن يظفر برضا الناس جميعاً ، أو بحمدهم وثنائهم جميعاً ، أو يبرأ من سخط الساخطين ونقد الناقدين ولوم اللائمين . وأظن أن من أوليات الحياة العامة ، إن صح هذا التعبير ، أن يوطن الرجل نفسه فيها على أن يكون حظه من سخط الناس أعظم جدًّا من حظه من رضا الناس ، وعلى أن يكون قسطه من النقد أعظم جدًّا من قسطه من التقريظ . ولكن انظر إلى أدبائنا حين يعرض لهم ناقد بما لا يحبون ، وأكثرهم لا يحب إلا الثناء ، انظر إليهم كيف يستقبلون هذا النقد ضيقين به ثائرين بصاحبه ، ثم كيف تفسد له حياتهم فساداً ، وتضطرب له أمورهم اضطراباً ، فإذا هم يشغلون عن الإنتاج ، وعن تقويم المعوج من آثارهم بالدفاع عن أنفسهم ، كأنهم هوجموا مهاجمة تعرضهم للخطر الذى ليس بعده خطر وللموت الذى ليس بعده نشور . ومع ذلك فالأمر أيسر جدًّا مما يظنون ، وإنما آثار الكاتب والشاعر ملك للجمهور إذا ألقيت إليه ، يرى فيها ما يحب من رأى ، يرضى عنها إن أثارت فى نفسه الرضا ، ويسخط عليها إن أثارت فى نفسه السخط ، يحبها فيقبل عليها ، ويبغضها فينصرف عنها . ما ينبغى لأحد أن يجادله فى ذلك أو ينكره عليه . والكاتب حر فى أن يُكبر الجمهور أو لا يكبره ، وفى أن يرضى عن إقبال الجمهور عليه أو يزدرى هذا الإقبال ، وفى أن يضيق بانصراف الجمهور عنه أو لا يحفل بهذا الانصراف . ولكن الشىء الذى لا ينبغى أن يطمع فيه الكاتب أو أن تسمو إليه نفسه ، لأن الطمع فيه إثم ، والسمو إليه اعتداء على الحرية المقدسة ، هو إكراه الناس على أن يقبلوا عليك ويرضوا عنك ، وعقاب الناس إن هم سخطوا عليك أو انصرفوا عما تقدم إليهم من الآثار . والغريب أن الكتاب والشعراء لا يهدون كتبهم ودواوينهم إلى الناس إهداء ، إنما هم يبيعون هذه الكتب بيعاً ، ثم هم بعد ذلك يأبون إلا أن يدفع الناس لهم

الثمن نقداً وحمداً ، ولا يتحرجون من أن يأخذوا الثمن مرتين : ثمناً يدفعه المشترى عن رضا وهو المال ، وثمناً آخر يجب أن يدفعه عن كره وهو الحمد والثناء . وأغرب من هذا أن الكتاب والشعراء يهدون كتبهم ودواوينهم إلى النقاد أو لا يهدونها إليهم ، ثم يضيقون بالنقاد أشد الضيق إن سكتوا عنهم ، ويسخطون على النقاد أقبح السخط إن قالوا فى كتبهم ودواوينهم ما لا يحبون . وهنا يتعقد خلق الأدباء بعض الشىء، فلا يصبح ضعفاً فحسب ، وإنما يصبح ضعفاً واعتداء معاً ، هو ضعف لأنهم لا يستطيعون أن يصبروا على الحق أو على ما يراه غيرهم حقًّا . وهو اعتداء وطغيان لأنهم يزعمون لأنفسهم على النقاد سلطاناً لم يمنحوه ولا يمكن أن يمنحوه فالناقد كالكاتب والشاعر حر فيما يقول ، لا ينبغى لأحد أن ينتقص من حريته ، أو يفرض عليه ما لا يريد .

وخُلُقٌ آخر من أخلاق الأدباء فى هذه الأيام لا ندرى كيف نسميه ، ولكن أخص ما يمكن أن يوصف به أن أصحابه يحتاجون إلى شىء من الحياء ، فهم يهدون إليك الكتاب حتى إذا استيقنوا أن الهدية قد وصلت إليك واستقرت فى يدك لم يريحوا ولم يستريحوا حتى تعلن إليهم — أستغفر الله — بل إلى الناس رأيك فى هذا الكتاب ، فإن لم تفعل نالوك بما استطاعوا من القدح والذم ، وأخذوك بما فى وسعهم من اللوم والتشهير . وإن أعلنت رأيك فلم يعجبهم ، أو لم يوافق أهواءهم، فويل لك منهم وويل لهم من أنفسهم . ويل لك منهم لأنهم ساخطون عليك يحرقونك بنار سخطهم تحريقاً . وويل لهم من أنفسهم لأنهم مشغولون بك وبالنيل منك والنعى عليك عن أنفسهم ، وعن أدبهم . وهم كذلك لا يهدون إليك الكتاب وإنما يبيعونه منك بيعاً . وهم لا يبيعونك الكتاب بثمنه الذى يباع به للناس ، إنما يبيعونك الكتاب بثمن مستحيل ، يبيعونه بحريتك وبإخلاصك ، وبأخلاقك . يهدون إليك الكتاب ، فيحسبون أنهم قد اشتروك بهذه الهدية . يهدون إليك الكتاب ، فيحسبون أنهم قد اشتروا رأيك ، وخلقك ، وصراحتك وفرضوا عليك أن تصبح لهم مادحاً ، وعليهم مثنياً . ألست ترى أن هذا الخلق خطر على الحياة الأدبية حقًّا ؟ وأين يكون الحياء إذا لم يكن عند الأدباء! وأين يكون الظرف إذا لم يكن عند الكتاب والشعراء ! وأين يكون اعتدال المزاج واستقامة الخلق الاجتماعى وهذه الدقة فى المعاملة التى ترفع صاحبها عن أن يكون مشعوذاً أو عن أن يكون سئولا ملحًّا ، أو عن أن يكون طالب صدقة ، أو عن أن يكون صاحب

عدوان وجور ، أين يكون هذا كله إذا لم يكن عند الأدباء !

أكتب هذا كله وقد وصلت إلى الأنباء بأن جماعات أدبائنا المحدثين ثائرة فائرة ، وهائجة مائجة ، وقاعدة قائمة ، فى هذه الأسابيع منذ أخذ بعضهم ينقد بعضاً ، ومنذ أخذت آراء بعض فى الشعر والنثر تبدو لبعض . ولعلك تقرأ هذا الفصل الطريف الذى أرسله إلىَّ صديقنا حسن محمود فترى فيه كيف يفسد ما بين الأصدقاء،وكيف يستحيل الحب إلى بغض،والود إلى عداء ، والإخلاص إلى كيد ، لا لشىء إلا أن فلاناً أظهر كتاباً أو ديواناً ، فلم يحسن فيه رأى فلان ، أو ظهر فيه رأى فلان ، ولكنه لم يكن مرضياً للكاتب أو الشاعر لأنه لم يكن ثناء كله ولا رضاء كله . أأخلاق أدباء هذه أم أخلاق صبيان يحتاجون إلى التربية والتنشىء ! إنى أكره لأدبائنا أن يطغى الغرور على نفوسهم فيفقدها ما يقوم النفس الكريمة من اعتدال المزاج وصفاء الطبع ، واستقامة الخلق ، والتواضع الذى لاسبيل إلى الكمال من دونه .

وأكثر من هذا كله أن يعظم التنافس بينهم ، وأن ينكر بعضهم بعضاً ، ويزدرى بعضهم بعضاً ، ويبلغ بهم هذا أن تنقد اثنين منهم فى فصل واحد ، فإذا أحدهما ساخط عليك ضيق بك ، يقطع ما بينك وبينه من صلة ، لا لأنك ظلمته ، ولا لأنك أسأت إليه فى كتابه ، ولا لأنك استكشفت عن عيوبه ما لم يكن يعلم ، بل لأنك قرنته إلى صاحبه ، وما ينبغى أن يكون له قرين ، وذكرته مع غيره وما ينبغى أن يكون له شريك ، وإنما حقه عليك إذا كتبت عنه أن تفرده بالكتابة وتختصه بالنقد وأن ترقى إليه فى سمائه التى يسكنها أو نجمه الذى يستقر فيه ، حتى إذا قدمت إليه القربان وحرقت بين يديه البخور ، هويت من السماء أو هبطت من النجم ونظرت بعد ذلك إلى غيره من الكتاب . هذه أخلاق لا ينبغى أن تكون للشبان فضلا عن أن تكون للشبان الأدباء الذين يرون أنهم نابهون وأنهم قادة الرأى وزعماء الأدب غداً أو بعد غد . أمر الأدب أهون من هذا كله أيها السادة إن كنتم أدباء حقًّا . فأنتم إنما تنتجون لأنكم مكرهون على الإذاعة ، وآثاركم حينما تنتجونها وتذيعونها تخرج عن ملككم إلى ملك غيركم من القراء والنقاد ، ليس لكم عليها سبيل ، ولقرائكم ونقادكم عليها كل سبيل . إن كنتم متواضعين فقوموا ما يظهر لكم من عوج ، وأصلحوا ما يظهر لكم من فساد . فإن كنتم مغرورين فاستمتعوا بغروركم وانظروا إلى أنفسكم فى المرآة ثم امتلئوا

بها عجباً وتيهاً ، ولكن لا تعدوا هذا ولا تتجاوزوه إلى أخذ الناس بما تحبون أنتم ولا يحبون هم ؛ فذلك ليس لكم ، ولن يقركم أحد على أن تتطلبوه وتطمعوا فيه .

ويسألنى صديقنا حسن محمود عن علاج هذه العلة ، ودواءهذا الداء . وغريب أن يلقى الصديق مثل هذا السؤال ، وغريب أن يحتاج مثل هذا السؤال إلى جواب . فليس لهذه العلة علاج إلا مقاومتها ، وهى لا تقاوم إلا بالمضى فى النقد الحر الصريح الذى لا أثر فيه للميل ولا الهوى بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يبرأ من الميل والهوى ، والذى لا أثر فيه للخوف ولا الإشفاق ؛ فليس رجلا من يكتم رأيه لخوف أو إشفاق . فكيف إذا كان مصدر هذا الخوف والإشفاق أديباً لا يستطيع أن يبسط فيك لسانه أو أن يبسط عليك يده ، إن كان من « الفتوات » . هذا سخف لا ينبغى لصاحب الجد من الأدب والنقد أن يقف عنده أو يفكر فيه إلا بمقدار ما يقوم معوجه ويصلح فاسده ويحاول أن يبرئ منه أدباءنا . فقد أحب أن يكون برؤهم من هذه العلل ممكناً يسيراً .

الضاحك الباكى

للأستاذ فكرى أباظة

منذ أكثر من عام تفضل الأستاذ فكرى أباظه فزارنى فى الكوكب وأهدى إلىّ كتابه « الضاحك الباكى » ، فتلقيت زيارته شاكراً ، وتلقفت هديته شاكراً أيضاً ، ووعدت متطوعاً بقراءة الكتاب ، وإعلان الرأى فيه ؛ لأن الأستاذ لم يطلب إلىّ قراءة ولا إعلاناً ، وإنما كان أديباً يجامل أديباً ، وصديقاً يعرف الحق لصديق .

ثم أخذت أقرأ فى الكتاب منذ اليوم الأول الذى أهدى إلى فيه ، ولكنى لم أمض فى هذه القراءة حتى صرفتنى عنها هذه الصوارف الكثيرة الملحة البغيضة ، التى تصرف الناس فى كل يوم عما يحبون وتدفعهم إلى غير ما يريدون . وما أكثر هذه الكتب التى تُهْدَى إلىّ أو التى أشتريها ، ثم آخذ فى قراءتها ، فلا أكاد أتقدم فى هذه القراءة حتى أرَدّ عنها ردًّا وأصد عنها صدًّا ، وأصرف عنها إلى شىء من هذا السخف اليومى الكثير الذى يملأ حياة أمثالى من الناس .

ومضى عام ولم أقرأ كتاب الأستاذ ، ولكنى سمعت أحاديث الناس عنه ، فكان منهم المعجب الراضى ، وكان منهم المعرض المغضى . ويجب أن أعترف بأن الذين أعرضوا وأغضوا كانوا بين أصحابى أكثر من الذين رضوا وأعجبوا . ولم يكونوا يعللون إعراضهم ولا إغضاءهم ، وإنما كانوا يمسون الكتاب بجملة أو جملتين ، يعلنون فيهما أنهم كانوا ينتظرون من الأستاذ كتاباً خيراً من هذا الكتاب. وكنت أجد من إعراضهم وإغضائهم عزاء لى عن هذا الكتاب الذى لم أقرأه ، بل كنت أحمد الله على أنى لم أقرأه لأنى أمنت بذلك أن أكتب عنه ، فأقول للأستاذ ما لا أحب أن أقوله له . على أننا التقينا والتقينا غير مرة ، فأشهد ما لقيت الأستاذ ولا سمعت صوته إلا استحييت منه ، وأحسست أن له علىّ ديناً ثقيلا ، وأنى قد أبطأت فى أداء هذا الدين ، وأوشك أن ألتوى به على صاحبه . وما أبغض المدين حين يلتوى بالدين !

ثم تتاح لى الفرصة لأتحدث عن الأدب المصرى الحديث فأذكر الشعراء وأعرض لبعض الكتاب . وأشهد ما ذكرت شاعراً ، ولا عرضت لكاتب إلا كان الأستاذ فكرى أباظة بينه وبينى يسألنى بصوته العذب ولهجته الظريفة : « والضاحك الباكى ماذا تصنع به ؟ وماذا ترى فيه ! » .

فاليوم أريد أن أتحدث إلى الأستاذ وإلى غيره من القراء بما صنعت بالضاحك الباكى ، وبما أرى فيه .

قرأته قبل كل شىء ، وقرأته كله هذه المرة ، واستعدت بعض صفحاته ، ووقفت عند بعضها الآخر وقفات غير قصار ، وأطلت التفكير فى بعض فصوله ، حين خلوت إلى نفسى وأويت إلى مضجعى فى غير ليلة من ليالى هذا الصيف الثقيل . ثم حمدت للأستاذ فضله علىّ ، ويده عندى ، لا لأنه أهدى إلىّ كتاباً ، فالكتب تهدى من الأديب إلى الأديب ، وإن كنت أرانى مقصراً تقصيراً شنيعاً فى هذا النحو من أدب المجاملة ، ولا لأنه سعى إلىّ بكتابه ، فالأديب يسعى إلى الأديب ، والصديق يسعى إلى الصديق ، وإن كنت مقصراً فى هذا النحو أيضاً من أنحاء أدب المجاملة . بل لأنه أتاح لى شيئاً طالما تمنيته ولم أظفر به ، وهو أن أسمع للأستاذ فكرى أباظة ، وأتحدث إليه وقتاً طويلا . فأنا من قرائه الأوفياء الذين لا يكاد يخطئهم فصل من فصوله فى الأهرام أو فى المصور أو فى غير الأهرام والمصور . وأنا من الذين يحبونه حباً عميقاً ويكلفون بما يكتب كلفاً شديداً ، يسر النفس لحظة من لحظات الحياة ، وإن كان لا ينتهى بها إلى هذا الإعجاب الذى يملك عليها كل شىء ويشغلها عن كل شىء . وأنا كلما قرأت فصلا من فصول الأستاذ فكرى أباظة ، وددت لو طال بينه وبينى الحديث ، واتصلت بينه وبينى الأسباب ، فعرفته أكثر مما أعرفه وألفته أكثر مما آلفه إلى الآن . فقد عرفته الآن وألفته ، وبلغت من عشرته ما كنت أريد بعد أن قرأت كتابه الممتع الجميل . وليس هذا بالشىء القليل ، بل هو شىء كثير ، وكثير جداً ، إن كان هذا التعبير ما يزال يضحك القراء .

ويجب أن أعترف أيضاً بأن رأيى فى الكتاب كان يختلف اختلافاً شديداً كلما تقدمت فى قراءته . فأما أوله فلم يفتنّى ، ولم يثر فى نفسى إعجاباً ولا شيئاً يقرب من الإعجاب ، بل كنت أحدث نفسى بأن هؤلاء الأصدقاء الذين أعرضوا عن الكتاب فى العام الماضى كانوا منصفين . ولكنى تقدمت فى الكتاب ،

فإذا أنا مأخوذ حقاً مفتون حقاً ، يذهب بى الإعجاب كل مذهب ، ويمضى بى الإكبار إلى غير حد ، وإذا أنا أنكر الظلم والظالمين ، وإذا أنا أزعم لنفسى أن أولئك الأصدقاء المعرضين لم يقرءوا الكتاب ، ولو قد قرءوه لأعجبوا به ، وإذاً فما كان ينبغى لهم أن يقضوا عليه وهم لم يقرءوه . وكنت أزعم لنفسى أحياناً أن حياة المصريين قد تطورت حقاً ، وأن شعورهم الوطنى قد أخذه شىء من الفتور ، وأن شعورهم بالحياة اليومية وما فيها من المنافع العاجلة الملحة ، قد ملك عليهم ذوقهم وحكمهم . ولولا هذا لفُتنوا بكتاب الأستاذ أشد فتنة ، ولكان له فى نفوسهم أبلغ الأثر وأعمقه . وكنت أتحدث إلى بعضهم فألومه وأسرف فى لومه وأزعم له أنى لا أعرف كتاباً عربياً صور ما بين المصريين والإنجليز من سوء الصلة وبعد الشقة وفساد الأمر كهذا الكتاب ، فكان يستمع لى ويقرنى على ما أقول ، ولكنه يبتسم ويقول : ولكن أتمم قراءة الكتاب ثم حدثنى بعد ذلك عن رأيك فيه . وما زلت أنتقل فى الكتاب من قصة إلى قصة ومن حديث إلى حديث حتى أتممته منذ ساعة أو منذ أقل من ساعة ، وإذا أنا ما زلت راضياً عن الكتاب ولكن إلى حد ، وما زلت معجباً بالكتاب ولكن فى اعتدال واقتصاد ، ذلك أن الكتاب مختلف حقاً ، متفاوت أشد التفاوت . فيه ما يروع حتى يملأ النفوس روعة وإعجاباً ، وفيه ما يبعث فى النفس فتوراً يكاد ينتهى بها إلى النوم . ثم فيه ما يثير فى النفس شكوكاً وأوهاماً ، ويبعثها على أن تسأل هذا السؤال : ماذا أراد الأستاذ بهذا الكلام ؟ وأول ما يعجبك من الكتاب حقاً هو هذه الصفحة الرائعة البارعة الذى وصف الأستاذ فيها حوادث الثورة فى أسيوط . فلست أعرف ، كما قلت ، كاتباً مصرياً صور ما بين المصريين والإنجليز من الشر كما صوره الأستاذ فكرى أباظة . ولست أظن أن قارئاً مصرياً مهما يكن ، يستطيع أن يقرأ هذه الصفحات دون أن يثور قلبه ونفسه ودون أن يغلى دمه غلياناً ودون أن يحتاج إلى جهد عنيف ليكظم غيظه أن ينفجر ، وليمسك نفسه أن يندفع إلى ما لا يحسن الاندفاع إليه . ثم تعجبك فى الكتاب ملاحظات دقيقة منتشرة تمس حياتنا الاجتماعية الخاصة فى الأندية والدور . ثم يعجبك فى الكتاب هذا الأسلوب الظريف الذى انفرد به الأستاذ فكرى أباظة والذى وفق فيه للملائمة البريئة بين حلاوة الفكاهة ومرارة الجد ، وبين اللغة الفصحى ولغة الشعب ، واستطاع به أن يظفر بما لم يظفر به غيره من الكتاب ، فظفر برضا الخاصة والعامة جميعاً ، وظفر بحب القراء على اختلاف ما لهم من الأهواء والنزعات

والميول . فإذا أحصيت هذه الخصال التى تعجب فى الكتاب فقد يكون من الحق أن نحصى خصالا أخرى لا ينبغى أن نمر بها معرضين . وما أشد ما كنا نحب أن نلقاها ولا نحصيها ولا نأخذ بها كاتبنا الأديب . وأول ما نلاحظ من ذلك هو هذا الاختلاف الذى أشرنا إليه . فلولا أن الكتاب يدور كله حول شخص واحد هو الأستاذ شكرى لما استطعنا أن نجد فيه مظهراً من مظاهر الوحدة أو دليلا من أدلة الانسجام . فالكتاب يوشك أن يمس كل شىء ويعرض لكل شىء . فهو يمس القلب والشعور ، وهو يمس الحياة العملية اليومية ، وهو يمس الثورة وهو يمس الحياة السياسية بعد الثورة ، وهو يمس الحياة الاجتماعية العامة والخاصة . وفى الكتاب قصص ، وفى الكتاب تاريخ ، وفى الكتاب فلسفة ، وفى الكتاب نقد ، وفى الكتاب ما شئت وما لم تشأ مما يعرض له كتاب الصحف عرضاً سريعاً مسرفاً فى السرعة لا تثبت فيه ولا تدقيق . وكل هذا قد ألقى فى الكتاب إلقاء ، وجمع فيه جمعاً لا ينظمه إلا الزمن ، وشخص الكاتب . فأما هذا النظام الفنى الذى يصل بين أجزاء الكتاب والذى يجمع السبب إلى الأثر والعلة إلى المعلول ، كما يقول أصحاب المنطق ، فلا تكاد تظفر به فى الكتاب . والواقع أنى لا أدرى ماذا أراد الأستاذ فكرى أباظة حين وضع كتابه هذا : أأراد أن يصور لنا شطراً من حياته فى هذا النوع الذى يسميه الناس بالمذكرات ؟ وإذاً فما هذا القصص الغرامى الكثير الذى اشتدت فيه المبالغة وعظم حظه من الإسراف وامتلأ بهذه المآسى التى لا تكاد تقف عند حد ! أم أراد أن يكتب قصصاً خيالياً من هذا النوع الذى يسميه الناس رواية ؟ وإذاً فما هذا التاريخ الكثير الذى ينثره الأستاذ بكلتا يديه ويفعم الكتاب به إفعاماً وأكثره أو كله معروف للناس جميعاً ! أم أراد أن يكون قاصاً فانقلب مؤرخاً ثم انقلب ناقداً خلقياً لا لشىء إلا ليضخم حجم الكتاب ؟

كل هذه أسئلة تثور فى نفس القارىء إذا فرغ من قراءة الكتاب ؛ فهو يشعر بالقاص الذى يلائم بين القصص والتاريخ ملاءمة مقبولة حين يقرأ حديث الأستاذ عن صاحبتيه ثروت ومريم ، بل هو يشعر بالقاص الذى يلائم ملاءمة مقبولة بين القصص والفلسفة حين يرى الأستاذ شكرى فى هذا المأزق الحرج مضطرباً بين الوفاء لمن ماتت ، والافتتان بهذه الفتاة ذات الشباب الغض والوجه الحلو ، والقلب النبيل . ولكن القارئ يضيع حين يرى شكرى مضطرباً بين هؤلاء الأوانس اللاتى خطبهن ، وحين يراه مضطرباً بين هؤلاء السيدات اللاتى كن يختلفن إليه

فى « الجارسونير » . ولعل الأستاذ يعذرنى إذا قلت له إنى أستكثر هذا العدد الضخم من الجنس اللطيف فى كتاب لا يكاد يزيد على المائتين من الصفحات إلا قليلا . فأنت تستطيع أن تحصى ثروت ، ومريم ، وعدداً لا بأس به من الأوانس خطبهن شكرى ، ثم تحصى بعد ذلك زينب وسعاد ولولو ، وإحسان ، وسميحة ، ومن يدرى ! لعلى نسيت بعض هؤلاء الأوانس وبعض هؤلاء السيدات . وهناك شىء آخر تلاحظه حين تتقدم فى قراءة الكتاب وهو هذه المبالغات التى أسرف فيها الكاتب إسرافاً على نفسه وعلى القراء أيضاً .

فكاتبنا الأديب دقيق الحس ، رقيق الشعور ، حاد المزاج ، يسرع إليه الإغماء فى كل مكان وفى كل فرصة ، كما يسرع إليه الصياح ، وكما تسرع إليه وإلى صاحباته الحركات العصبية العنيفة التى تبلغ الصرع أو تبلغ الجنون . وكاتبنا الأديب لا يرفق بنفسه ولا بقرائه حين يصور لهم منظراً مروعاً . فانظر إلى صاحبته مريم ، وقد اعتدى على عرضها الضابط الإنجليزى ، فهى تريد أن تقتل نفسها ، وأبوها يريد أن يقتل الضابط ثم يريد أن يقتلها هى ، وصاحب الأسرة ينقذها من نفسها ، وينقذها من أبيها ، ثم يطلق الرصاص على نفسه ، ولكنه ماكر ماهر محتال ، تمر الرصاصة إلى جانب رأسه ولا تصيبه .

كل هذا فى وقت قصير جداً ، وفى صفحات قليلة جداً ، وفى كلام ملتهب سريع يؤذى القارئ ولا يترك فى نفسه أثراً للروعة أو الجمال .

وهل يأذن الأستاذ بملاحظة أخرى على كل هذا القسم السياسى من كتابه ؟ فهو أولا معروف . وهو ثانياً لا جديد فيه من الناحية الفنية . وهو ثالثاً مسىء إلى الكتاب يوشك أن يصرف عنه كثيراً من قرائه الذين لا يرون رأى الأستاذ فى الحزب الوطنى وسياسته واضطرابه بين الأحزاب على اختلاف ظروف الحياة المصرية وألوانها . وما كان أكثر ما يحسن الأستاذ إلى نفسه وإلى كتابه وإلى قرائه لو أنه ارتفع بهذا الكتاب عن الشهوات السياسية وأهواء الحياة اليومية ، وقصد به إلى الفن ، وإلى الفن وحده .

والأستاذ فكرى أباظة ضاحك باك ، ولكنه إذا بكى أسرف فى البكاء حتى يسبغ على الحياة لوناً مظلماً شديد الإظلام يبغضها إلى الناس ويقبحها فى نفوسهم تقبيحاً : فإذا أضحك فهو شيطان مارد ، لا يحفل بشىء ، ولا يأبه لشىء ، ولا يرجو لشىء ولا لأحد وقاراً . وهو على هذا النحو مضطرب المزاج أشد الاضطراب

لا يصور الرجل المعتدل ولا يعطى للناس مثلا صالحاً يمكن احتذاؤه وتأثره . ومع أنى معجب بالأستاذ محب له ، فأنا أتمنى ألا يكون الشباب كلهم أو أكثرهم مثله ؛ فذلك لا ينفع مصر ؛ لأن الشذوذ قد يستحسن فى بعض الأفراد ويقبل منهم ، فإذا عم أصبح خطراً مستطيراً .

أنكرت عليه الإطالة فى حديث « الجارسونير » ومن كان يختلف إليها من النساء ؛ فقد أكون محافظاً مسرفاً فى المحافظة ، ولكننى على كل حال لا أرى لهذه الإطالة نفعاً ولا أجد فيها شيئاً جديداً ، وإنما هو حديث معاد ، كثيراً ما يتحدث به الناس فى الأندية ، وما أكثر ما يكتبونه فى الصحف والمجلات !

ثم ينتهى الأستاذ فكرى أباظة من كتابه إلى نتيجتين : فهو ينصح الشباب أن يتزوجوا قبل أن يبلغوا الخامسة والعشرين . وهو ينصح للشباب ألا يشتغلوا بالسياسة قبل أن يبلغوا الخامسة والثلاثين . وكلتا النصيحتين فى حاجة إلى البحث ، بل كلتا النصيحتين لا ينبغى أن تقدم إلى الشباب . فكيف يستطيع الشاب أن يتزوج قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين ، وأنت تعرف من ظروف الحياة المصرية الحديثة ما تعرف ، والخامسة والعشرون هى السن التى يفرغ فيها الشاب من درسه ، أو يكاد يفرغ منه ؟ أفترى إلى الشاب طالباً ، وزوجاً وأباً ، فى وقت واحد ؟ أم ترى إلى الشاب زوجاً وأباً ، وهو قد خرج من المدرسة ، وظفر بالإجازة ، وأخذ ينتظر العمل الذى يمكنه من كسب العيش !

وشرٌّ من هذا أن تنصح للشاب ألا يشتغل بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين . كيف استحال الأستاذ فكرى أباظة رجعيًّا إلى هذا الحد ؟ إن الخامسة والثلاثين سن يصل فيها كثير من الناس إلى أرق ما يستطيعون أن يبلغوه من حياتهم ، وهى السن التى يكاد ينتهى عندها نشاط الشباب ، وتبدأ معها رزانة الشيوخ . أفيريد الأستاذ فكرى أباظة أن يحرم مصر نشاط الشباب المصريين ، وأن يجعلها كلها رزانة وأناة وتقديراً للعواقب وإشفاقاً من الحوادث وحساباً للغد ؟ هذا كثير ، كنت أظن أنه مقصور على الذين وضعوا نظام الجمعية التشريعية قبل الحرب ، وعلى صدقى باشا وأمثاله فى هذه الأيام . وما زلت أشك فى أنه رأى يراه الأستاذ فكرى أباظة وهو المتطرف الذى لا يحب السياسة رزانة ولا أناة ولا هدوءاً .

واللغة ، أيجوز لى أن ألفت الأستاذ إلى أنه يسرف عليها أحياناً ؟ أنا أعلم حق العلم أنه يتعمد ذلك تعمداً فى كثير من الأحيان ؛ لأن أسلوبه يريد ذلك ،

ولأن فكاهته تقتضيه . ولكن فى كتابه أغلاطاً ما أحسب أنه قصد إليها ، وما أظن أن الفكاهة قد اقتضتها ، وإنما هو هذا الخطأ الشائع الذى يحسن بالأدباء أن يتجنبوه .

ومن هذه الأغلاط أيضاً لفظ « العواطفى » نسبة إلى العواطف صفحة ١٨ والجمع لا ينسب إليه على هذا النحو وإن كان الشبان لا يحفلون بذلك فى هذه الأيام . ومن هذه الأغلاط قوله « وخلع ملابسه حيث كانت الساعة العاشرة » صفحة ١٤ « فحيث » ظرف من ظروف المكان و « الساعة » زمان . ولست أدرى كيف يمكن أن يحتوى المكان الزمان ، أو أن يحتوى الزمان المكان . وهذا خطأ شائع قد كثر التنبيه إليه ، ولكن الكتاب لا ينتبهون .

أما بعد فإنى أجدد للأستاذ شكرى وعذرى وإعجابى ونقدى ، وأرجو أن يكون كتابه المقبل خيراً من كتابه هذا ، لا يثير فى النفوس إلا ما ينبغى لصاحبه من الإعجاب الخالص .

عود إلى أخلاق الأدباء

لنبتسم ، ففى أخلاق أدبائنا ما يدعو إلى الابتسام ، ولنغتبط ، ففى أخلاقهم ما يدعو إلى الاغتباط ، ولنرض على كل حال ؛ فالنظر فى أخلاقهم على علاتها يملأ القلوب رضاً واطمئناناً . فهم ليسوا جميعاً مسرفين فى الاعتداد بأنفسهم ، وهم ليسوا جميعاً مسرفين فى الارتفاع على النقد والتعالى على النقاد . وهم ليسوا جميعاً ضيق الصدر ، ولا سيئى الخلق ، ولا طوال الألسنة يبسطونها فى الناس بالشر حين ينبغى أن يبسطوها بالشكر والحمد والثناء . نعم ! لنبتسم ، ولنغتبط ، ولنرض ؛ ففى أخلاق أدبائنا عوج ، ولكن فى أخلاقهم استقامة ، وفى حياة أدبائنا شر ، ولكن فى حياتهم خيراً كثيراً . وأكبر الظن أن الذين يثيرون الحزن فى النفوس ويدفعون إلى الرحمة والرثاء ، وقد يدفعون أحياناً إلى السخط والضيق ، ليسوا إلا قلة ، لا ينبغى أن يحفل بها ، ولا أن يفكر فيها عندما يراد تأريخ الأدب وتصوير حياة الأدباء فى هذا العصر الذى فسد فيه كل شىء إلا أخلاق جماعة من الأدباء والمثقفين أراد حسن الحظ أن تستعصى على الفساد .

قوم مسهم النقد الرفيق ، فثاروا ، وحاولوا أن يثيروا غيرهم من الناس . وفسدت أعصابهم واضطرب مزاجهم ، فحاولوا أن يفسدوا الأعصاب كلها ، ويشيعوا الاضطراب فى الأمزجة كلها ، ولكنهم لم يبلغوا مما كانوا يريدون شيئاً ، ولم يظفروا مما كانوا يحاولون إلا بكلام قليل ضئيل لا يقدم ولا يؤخر .

وأكبر الظن أن تبعة ما يضطرب فيه هؤلاء الناس من ضعف الأعصاب واضطراب الأمزجة وسوء الخلق ، إنما تقع على الأدباء الذين يسمونهم شيوخاً ، وإن كان الأمد بينهم وبين الشيخوخة ما يزال بعيداً . وهذه التبعة تقع على هؤلاء الأدباء لأنهم أعرضوا عن النقد وأهملوه أعواماً غير قصار، فنشأ جيل من الكتاب والشعراء ينشئون وينظمون ويذيعون ما ينشئون وما ينظمون ، فتنشره الصحف ، ويقرؤه الناس أو لا يقرءونه ولا يعرض النقاد له بخير ولا بشر . ومضت على ذلك الأيام ، وطال على ذلك العهد ، حتى خيل إلى هؤلاء الكتاب والشعراء أنهم كتاب وشعراء حقاً ، وأن النقد إن

كان لم يصبهم ، ولم يمسسهم مسًّا رفيقاً أو عنيفاً ، فذلك لأنهم فوق النقد ، أو لأن النقد لم يجد إليهم سبيلا ، أو لأنهم بلغوا من الإجادة والإتقان ما ينبغى أن يجعلهم بمأمن من أن تصل إليهم أقلام الناقدين . وكذلك سيطر عليهم الغرور فملأ قلوبهم وعقولهم ، وصرفهم عن العناية بالفن والحرص على الإجادة والرغبة فى الإتقان ، وخيل إليهم أنهم قد بلغوا الكمال أو تجاوزوا إلى ما هو فوق الكمال . هناك آمنوا بأنفسهم ، واستيقن كل واحد منهم أنه نابغة ، وأنه آية بين أترابه ، وأنه مظلوم فى هذا العصر الذى يعيش فيه،ويُعْجَبُ الناس به ولكنهم لا يوفونه حقه من الإعجاب ، ويؤمن الناس له ولكنهم لا يوفونه نصيبه من الإيمان . ثم أخذوا يبحثون عما يحول بينهم وبين ما يرون أنهم أهل له من الإكبار والإعجاب ، فلم يتهموا أنفسهم بضعف ، ولم يظنوا بأنفسهم قصوراً أو تقصيراً ، لأنهم فوق الضعف وفوق القصور والتقصير عند أنفسهم على أقل تقدير . ولم يشكّوا فى أن الناس يقرءونهم . وكيف يستطيع الناس ألا يقرءونهم وهم ينزلون عليهم الآيات إذا أصبحوا وإذا أمسوا . ولم يشكوا فى أن الناس يرضون عنهم ، وهل وصل الناس من الجحود والغفلة إلى حيث لا يرضون عن هذا البيان المعجز ، والسحر الذى ليس إلى تقليده من سبيل ! إنما العقبات التى تحول بينهم وبين حقهم من الشهرة هم هؤلاء الأدباء الذين سبقوهم فى الزمان ، وظهروا قبلهم فى ميدان الحياة الأدبية ، فاستأثروا بالشهرة وبعد الصيت ، واحتكروا ما يملكه الناس من الإعجاب والحب ، ثم ضنوا بما ظفروا به فلم يقبلوا فيه شركة ، ولم ينزلوا منه للشباب الناهض عن جزء يسير . وكان حق هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشيوخ على هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشباب أن يشكروا لهم صمتهم عنهم وإعراضهم عما يكتبون ، وانصرافهم إلى الإنتاج عن النقد . فهذا الصمت والإعراض والانصراف هى الخصال التى هيأت لهم أن يظهروا ، وأتاحت لهم أن يعرفوا ، ومكنت لهم بين من يقرؤهم ويرضى عنهم من الناس ، ولكن هؤلاء الأدباء الذين يسمون بالشيوخ لم يلقوا من هؤلاء الشباب إلا جحوداً وعقوقاً ، وإلا بغضاً ونفوراً . فقد ظن الشباب أن سكوت الأدباء عنهم حسد لهم ، وبخل عليهم بما هم أهل له من الشهرة وحسن الحديث . وما جزاء البخلاء إلا أن يلاموا على البخل ، وما جزاء الحساد إلا أن يعابوا على الحسد ، وما جزاء المنافسين إلا أن يصلوا منافسيهم حرباً شعواء تقصمهم قصماً ، وتهدمهم هدماً ، وتجعلهم أحاديث . وكذلك ظنت الزرازير أنها صارت شواهين ،

كما يقول الشاعر القديم . وكذلك أرادت الضفدع أن تكون ثوراً ، فأخذت تنتفخ وتنتفخ ، حتى انفجرت ، كما تقول الأساطير . وكذلك اندفع هؤلاء المحنقون فى كلام كثير وهذيان لا حد له ، فكلفوا أنفسهم عناء سخيفاً ، وكلفوا الناس عناء سخيفاً ، وكادوا يفسدون الحياة على أنفسهم وعلى الناس . . .

أما أنا فألوم الأدباء الذين يسمون بالشيوخ ، وألوم نفسى قبل أن ألوم أحداً غيرى ، على إهمال النقد والإعراض عن هؤلاء الشباب . فلو أننا مضينا فيما كنا فيه نقوِّم المعوج ونذل المفسدين على وجوه الإصلاح ، لاستقامت لهؤلاء الشباب ، أو لهؤلاء الذين يسمون أنفسهم شباباً ، حياة أدبية صالحة لا يشوبها الغرور ، ولا يفسدها الادّعاء العريض ، ولكان لهم إنتاج أدبى أقوم من هذا الذى يملئون به الأسواق ، ويفسدون به الأذواق ، ويسيئون به إلى القراء . فالتبعة التى نحتملها ثقيلة حقاً ، وما أظن أننا نستطيع أن نخلص منها إلا بالرجوع عن هذا الخطأ الذى تورطنا فيه ، والإثم الذى دفعنا إليه ، واستئناف النقد كما بدأناه ، حين كانت الحياة الأدبية غضة نضرة ، وحين كان النشاط الأدبى خصباً منتجاً ، وحين كانت الإجادة الأدبية هى التى يقصد إليها الأدباء والشعراء دون الشهرة الفارغة والصيت الذى لا ينفع ولا يفيد . على أنى أعود فأغتبط بأن هؤلاء الشباب الذين ساء ظنهم بأنفسهم وساء ظنهم بالناس ليسوا إلا قلة لا يحفل بها ولا يؤبه لها ، وأن كثرة الذين يكتبون من الشباب أو ممن يسمون أنفسهم شباباً لا يزالون يحبون التواضع ، ويكرهون الغرور ، وينتفعون بالنقد ، ويشكرون للنقاد عنايتهم بهم ، ولا يفرضون عليهم لوناً من النقد دون لون ، ولا يغضبون منهم أن لم يقدموا لهم من الثناء ما يتحرقون ظمأ إليه .

ولا بد من أن أذكر بعض الأسماء ، ومن أن أذكرها فى الخير لا فى الشر ؛ فقد يكون من الرفق بالمفسدين ألا نسجل عليهم ميلهم إلى الفساد وإمعانهم فيه ، وقد يكون من الرفق بهم أيضاً أن نعرض عليهم من المثل ما ينتفعون بالنظر إليه والتفكير فيه . ومن هؤلاء الذين نذكرهم بالثناء « ملاحنا التائه » فقد تناولنا ديوانه بالنقد ، ولم نصطنع فى هذا النقد رفقاً ولا إيثاراً ، ولم نتردد فى أن نقول لصاحبه ما رأينا أنه الحق . وكان بعض الذين يعرفون ما لم نكن نعرف من أخلاق أدبائنا الذين يسمون أنفسهم شباباً يقدرون أن « الملاح التائه » سيغضب أشد الغضب ، وسيسخط أقبح السخط ، وسينكر علينا أن نقول فيه كلمة الحق . ولكن الرجل لم يكد يقرأ النقد حتى انتهت إلينا عنه أحاديث الرضا ، ثم أقبل بنفسه يتحدث إلينا بهذه

الأحاديث ويقبل من نقدنا ما أقنعه ، ويناقشنا فيما لم يقنعه ، وانصرف عنا كخير ما ينصرف الأديب عن الناقد، ليس فى صدره غل ولا حقد ، وليس فى نفسه لوم ولا موجدة ، وإنما هى المودة التى يجب أن تكون بين الرجال حين يعرض بعضهم لآثار بعض بالنقد الخالص الذى لا ميل فيه مع الهوى ، ولا انحياز فيه إلى الشهوات .

أما الأستاذ فكرى أباظة فلست أدرى أشابٌ هو أم شيخ ، أو قل لست أدرى أيرى نفسه شابًّا أم شيخاً . أما أنا فأعترف له ولقرائه جميعاً وللذين يعجبون به أنى أراه شابًّا ، وأراه شابًّا قوى الشباب موفور النشاط ، وأراه شابًّا مبتدئ الشباب لم يقطع فى طريقه إلا خطوات قصاراً ، فأمد الحياة الحلوة الرخية المملوءة بالآمال واللذات ما يزال أمامه بعيداً كما يشتهى بل أبعد مما يشتهى . وإذاً فهو من خير المثل التى يجب أن تقدم للشباب من الأدباء ، وأن تقدم لهم من بين أنفسهم لا من بين الشيوخ . فالقراء قد رأوا ما كتبته فى الأسبوع الماضى عن كتاب « الضاحك الباكى» للأستاذ فكرى أباظة ، وهم قد رأوا أنى لم أكن فيه رفيقاً ولا ليناً ، وهم قد رأوا أنى قد أخذت الأستاذ بطائفة من العيوب لم أتردد فى إظهارها ، ولم أصطنع المجاملة فى تصويرها ، وتمنيت آخر الأمر أن تبرأ منها كتبه المقبلة . فلست أدرى كيف أشكر للأستاذ فكرى أباظة كتابه العذب الرقيق الذى أرسله إلىّ ، يشكر لى ما كتبت فى « حديث الأربعاء الماضى » ويشكر لى بنوع خاص ما أظهرت من العيوب التى رأيت إظهارها فى كتابه ، ويقر منها ما يرى إقراره ، وينكر منها ما يرى إنكاره . أستغفر الله ! فكلمة الإنكار أقوى مما أراد الأستاذ أن يسطر فى كتابه حين نبهنى إلى أنه لم يسرف ولم يبالغ ، وإلى أن الحقائق أقوى وأشد مما صور فى كتابه ، وإلى أنه إن كان قد أسرف أو بالغ فإسرافه ومبالغته لا يتجاوزان الصورة والشكل ، فأما جوهر الوقائع وحقيقتها ، فليس عليها بأس من مبالغة أو إسراف .

هذا المثل الذى يقدمه الأستاذ فكرى أباظة لشباب الأدباء خليق أن يعرض عليهم وخليق أن يظفر بما هو أهل له من تفكيرهم وتقديرهم . فكثير منهم فى حاجة إلى أن يتعلموا منه التواضع وحسن الذوق ، وإلى أن يعلموا أن النقاد ليسوا مدينين لهم بشىء ، وأنهم هم مدينون للنقاد بكل شىء ، وأن الذين لا يؤمنون بهذه الحقيقة خليقون ألا يعرضوا للحياة الأدبية ولا يخوضوا غمارها . فليست الحياة الأدبية لعباً ولا لهواً ، وإنما هى جد كل الجد، والجد مر فى أكثر الأحيان ، وإذا حلا فإنما حلاوته شىء عارض ، لا ينبغى أن يطمع فيه الأديب ، ولا أن يتخذه لسيرته الأدبية أصلا

ومقياساً . ولولا أنى أكبر تواضع الأستاذ فكرى أباظة وأشفق على الأستاذ منه لنشرت كتابه لهؤلاء الشباب الذين تفتنهم أنفسهم ويصرفهم الغرور عن أن يروا فنّهم كما هو، إذاً لعرفوا كيف يقرأ النقد ، وكيف يعرف للنقاد بلاؤهم عند الأدباء .

وأديب آخر لا بد من ذكره وإن كنت لم أعرض له بعد، ولكنى أذكره على كل حال ، وهو الدكتور أبوشادى . فقد بلغه أنى أريد أن أعرض لشعره فى بعض حديث الأربعاء ، فتفضل وأرسل إلىّ بعض دواوينه وكتب إلىّ يسبق النقد بالشكر مسجلا على نفسه أنه شاكر لهذا النقد مهما يتكشف عنه من الآراء ، ومهما يكن هذا النقد مرضياً له أو غير مرض ، هذا حسن ، هذا خليق أن ينتفع به الشبان أيضاً ، هذا عهد يجب أن يكون بين المنتجين والنقاد : على المنتجين أن ينتجوا مخلصين ، وعلى النقاد أن ينقدوا مخلصين ، لا ينظم الصلة بينهم فى هذا إلا الصدق والإخلاص ، وابتغاء الحق من حيث هو حق لا من حيث إنه يسرُّ أو لا يسر هؤلاء .

وقد نشرت « مجلة الأسبوع » ، فصلا لكاتب أديب زعم أنه يريد أن يستكشف أسرار هذه الحركة الأدبية العنيفة التى أثيرت فى هذه الأيام ، وأن هذه الأسرار لاترضى ولا تشرف الأدباء ، وأنها ليست خالصة للنقد أو للأدب ، وإنما هى أشياء قوامها ما يكون بين الأدباء الشيوخ أو الذين يسمون بالشيوخ ، من تنافس وحسد ومن ضغينة وحقد ، إلى آخر هذه الأوهام التى ذهب فيها الكاتب الأديب كل مذهب . ولست أدرى أوفق الكاتب للحق حين تحدث عن الأستاذين العقاد والمازنى ، أم أخطأه ، وأكبر الظن أنه أخطأه . ولكن الذى لا شك فيه ولا أحب للكاتب الأديب أن يشك فيه هو أنه لم يوفق للصواب حين ظن بى أنى أتأثر فيما أكتب بمنافسة أو ضغينة أو حقد ؛ فالله يشهد أنى أبعد الناس عن هذه المؤثرات، وأنأهم عن هذه الخصال ، وأنى لا أستطيع أن أعرض لكتاب من الكتب أو ديوان من الدواوين قبل أن أستوثق بمقدار ما يستطيع الإنسان أن يستوثق من أنى قد طرحت وراء ظهرى كل ما يمكن أن يكون بينى وبين صاحب الكتاب أو الديوان من صلات الخير والشر ، وقصدت إلى الكتاب أو إلى الديوان لا أبتغى غيرهما ، ولا أفكر فى غيرهما . ولست أزعم أنى أوفق من هذا لما أريد ،ولكن الذى أحققه هو أنى أحاول هذا ما وجدت إلى محاولته سبيلا . والكاتب الأديب يخطئ كل الخطأ ، ويتبرع بالإساءة إلىّ حين يظن أنى خبيث على رغم ما أظهر من الطيبة . فلست أدرى أطيب أنا أم خبيث ، ولكن الذى أعرفه ولا أحب للكاتب أن ينكره علىّ هو أنى

لا أحب الخبث ولا أتخذه سبيلا فيما أكتب من هذه الفصول التى أنقد فيها آثار الأدباء . فليحسن الكاتب الأديب ظنه حتى تقوم له ولأصحابه البينة على أنى قدأردت بهم سوءاً ، واتخذت الخبث سبيلا إلى نقدهم . أما قبل أن تقوم هذه البينة فهم متجنون . وقد يحسن التجنى من بعض الناس ، ولكنه لا يحسن من الأدباء .

* * *

وفصل آخر من أخلاق الأدباء أريد أن أعرض له فى آخر هذا الحديث الذى آسف أشد الأسف لأنى صرفته عما بين يدى من الكتب والدواوين إلى هذه الأشياء التى ما كان ينبغى أن تحتاج إلى أن نجعلها موضوعاً للحديث . وهذا الفصل الآخر من أخلاق الأدباء هو هذا الذى ظهر منذ أسبوع بين الرسالة وبينى من خلاف ما أظن أن كثيراً من الناس قد فطنوا له أو وقفوا عنده . وأنا مع ذلك أعرضه عليهم عرضاً ليعلموا أن أخلاق الأدباء فى حاجة إلى شىء غير قليل من التقويم . والخلاف الآن لا يقع بين الشيوخ والشباب ، وإنما هو يقع بين الشيوخ ، أو بين من يسمونهم شيوخاً . فالقراء يعرفون ما كان من قصة الأستاذ توفيق الحكيم ، وهم يذكرون أن هذه القصة نشرت فى « الوادى » ذات يوم ، ثم لم يمض يومان حتى رد عليها الأستاذ توفيق الحكيم بما أصلح الأمر ، وأقر الأشياء فى نصابها ورد الصلات بينه وبينى إلى خير ما كانت عليه . ولست أنكر أن هذه الخصومة بين صديقين تقوم صداقتهما على الأدب خليقة بعناية الأدباء ، خليقة بأن تصورها الرسالة لقرائها كما تحب لا تتجاوز فى ذلك قصداً ولا حقاً . ولكن الذى لا أشك فيه أيضاً هو أن للصديقين اللذين وقعت بينهما هذه الخصومة على «الرسالة» بعض الحق ؛ فهما من كتاب الرسالة فى وقت من الأوقات ، وأحدهما من المؤسسين للرسالة الذين أقاموها على أعناقهم ، وأعانوها على مقاومة الخطوب وعلى أن تشق طريقها بين الصحف الأدبية كما يقولون . وأيسر ما لهذين الصديقين على الرسالة من حق هو أن تعرض الرسالة لهذه الخصومة بينهما من طريق لا تفسد صالحاً ولا تكدر صافياً ، ولا ترد الأمر بينهما إلى الخلاف بعد أن كان قد انتهى إلى الوفاق . وأيسر ما لهما على الرسالة من حق أن تنشر هذه الخصومة بعد أن تتحدث إليهما أو إلى أحدهما فى هذا النشر . ولكن الرسالة لم تتحدث إليهما ولا إلى أحدهما ، وإنما نقلت الفصل الذى كتبته ولم تشر إلى أنها نقلته ، بل أعلنت فى الصحف قبل صدورها أنها تنشر فصلا ممتعاً للدكتور طه حسين ، لم تبين عنوانه للقراء مع أنها تعودت أن تبين عنوان ما يكتب فيها هو

أو غيره من الكتاب . ولست أخفى على الرسالة وقرائها أنى لما رأيت هذا الإعلان عجبت أشد العجب ، ودهشت أعظم الدهش ولبثت ساعات أرقب الرسالة لأعرف هذا الفصل الممتع الذى كتبته ؛ فقد كنت أعلم أنى لم أكتب للرسالة شيئاً فى ذلك الأسبوع . فلما وصلت إلىّ الرسالة التمست هذا الفصل الممتع الذى كتبته عن غير علم ، فإذا هو قصة الخصومة بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينى ، تنشره غير مشيرة إلى مصدره ، كأنى قد كتبته لها ، أو كأنى أرسلته إليها .

دع تقصير الرسالة فيما ينبغى من المجاملة بين الصحف مهما يكن بينها من سبيل ، وقف عند تقصير الرسالة فيما ينبغى من المجاملة بين الأصدقاء وفيما ينبغى من الجد فى الإصلاح بين المختصمين لا فى الإفساد بين الذين صلحت بينهم الأمور . والواقع الذى لا شك فيه هو أن قوماً يقرءون الرسالة ولا يقرءون الوادى قد قرءوا هذه القصة فاستيقنوا أن الأمر بين الأستاذ توفيق الحكيم وبينى قد فسد ، وكلمنى فى ذلك منهم من كلمنى ، وكتب إلى فى ذلك منهم من كتب إلىّ ، وكان أيسر آداب المودة والسعى بين الناس بالخير يقضى على الرسالة أن تنشر القصة كاملة إذا لم يكن من نشرها بد ، ليعلم الناس أننا اختصمنا ولكن الصلح قد استقر بيننا ، وأننا اختلفنا ولكننا عدنا إلى الوفاق . بل أكثر من هذا أن الأستاذ توفيق الحكيم نفسه ظن أن رده لم يقنعنى وأنى نشرت هذا الرد لأسجله عليه ثم عمدت إلى مقالى فأعدت نشره فى الرسالة . وهذا شىء تعلم الرسالة حق العلم أنه لا يلائم أخلاقى ولا يلائم سيرتى ، ولا ينبغى لها أن تدفعنى إليه أو تدفع الناس أن يظنوه بى . رأيت مسلك الرسالة هذا فكتبت فى الوادى كلمة عتاب يظهر أنها أغضبت صديقى « الزيات » فهو يرد على فى العدد الأخير من الرسالة بكلمة قصيرة جداً ولكنها ثقيلة جداً أظن أنه لا يستطيع حملها وإن كان قوياً شديد البأس ، وأظن أنه لو فكر فيها وتدبر معانيها لأشفق فى كتابتها ؛ ولكنه أديب فتنه السجع ، وخلبه الإيجاز ، فخطا ولم يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، واندفع ولم يتدبر عاقبة الاندفاع . فالزيات يتهمنى بأنى أستغل حياء الحيى ووفاء الوفى وتسامح الأصدقاء ، أستغفر الله العظيم ، وأستغفر حياء الزيات ووفاءه وتسامحه من هذا الاستغلال الذى لم أحس أنى أقدمت عليه فى يوم من الأيام ، وأنى أقدمت عليه بالقياس إلى الزيات خاصة . وإذا لم يكن بد من الاستغلال والمستغلين فإنى أرجو ألا يكون الزيات حيياً وفياً متسامحاً فحسب ، بل أن يكون مخلصاً صادقاً أميناً أيضاً . وإذاً فأنا أسأله أين يكون الاستغلال ، وأين يكون المستغلون ؟ وأنا أسأله وألح عليه فى

السؤال أن يبين لى فى صراحة لا تحتمل الشك ولا اللبس ولا الغموض : متى استغللت حياءه ووفاءه وتسامحه؟ أحين كنت أكلف نفسى ما أطيق وما لا أطيق ، وأحمل نفسى من الجهد ما أحتمل وما لا أحتمل لأرضيه ولأرضى الناس عن الرسالة ، أم حين كنت أجدُّ النهار كله فى عملى الخاص ، حتى إذا كان الليل وطمعت فى شىء من الراحة لم أظفر بها ولم أفكر فيها ، وإنما فرغت للرسالة أكتب لها الفصول أو أترجم لها الكتب لأنها فى حاجة إلى ما يُكْتَبَ أو يترجم ، ولأن الزيات يريدنى على أن أكتب أو أترجم ، ولأن الأصدقاء لا يريدون أن تظهر الرسالة وليس لى فيها أثر مترجم أو مكتوب ؟ أم حين كنت أفرغ من عملى الخاص ، وأعود بعد الظهر لأتغدى وأستريح ، ولكن الزيات ينتظر منى فصلا للرسالة يجب أن يصل إليه آخر الساعة الخامسة أو آخر الساعة السادسة ، فلا أفرغ من الغداء إلا لأمضى فى الكتابة حتى ترضى الرسالة ويرضى الزيات ؟ أكنت فى هذا كله أستغل حياء الزيات الحيى أو وفاء الزيات الوفى ، وتسامح الزيات الصديق ، أم كان الذى يستغل حياء الحيى ووفاء الوفى وتسامح الصديق شخصاً آخر لا يحمل اسمى ولا يتصف بما أتصف به من الخصال ؟ عفا الله عن الأدباء ! فما أشد ما تحتاج إليه أخلاقهم من التقويم ، وما أشد ما تحتاج إليه أقلامهم من الكبح ، فهى تجمح أحياناً فتسرف فى الجموح !

أما بعد فإن هذه الخصومة الأخيرة التى يثيرها الزيات وهو صديق الصبا وأخو الشباب خليقة أن تدعو إلى التفكير فى هذا العهد الذى فسدت فيه الصلة بين الناس حتى ما يرعون لمودة حرمة ، ولا يعرفون لصديق حقًّا ، ولا يرجون لإخلاص وقاراً ، ولا يرفعون أنفسهم عن أن تقول غير الحق ، وتتورط فى غير الصواب ، وتتهم الناس بما ليس فيهم من عيب ، لا لشىء إلا لأن السجع يستقيم ، والإيجاز يحسن وقعه فى السمع ومجراه على اللسان . إن مودة الأصدقاء يجب أن تكون أغلى من سجعة ، وأنفس من إيجاز . وإن احترام الرجل لنفسه ، وحرصه على ألا يقول غير الحق ورغبته فى ألا يُرَدّ الشر إليه حين يصدر عنه ، كل ذلك خليق أن يدعو الزيات إلى أن يفكر فيما كتب ، وإلى أن يعتذر مما قال . وهو على كل حال خليق أن يقطع ما بين الرسالة وبينى من صلة ، حتى يعرف أصدقاؤنا الذين نهضوا معنا بتأسيس الرسالة أن لصديقهم عليهم حقًّا يجب أن يؤدوه إليه .

على بساط الريح

للشاعر اللبنانى فوزى المعلوف

قضى شاباً لم يتجاوز الثلاثين ، ولو قد عمر لكان له فى حياة الشعر العربى الحديث شأن أى شأن ، ولكان له بين الشعراء المحدثين مكان أى مكان . وكثير من الشعراء يمرون بالأرض سراعاً ولكنهم يتركون فيها آثاراً باقية طويلة البقاء ، ومنهم من يطبع جيله بطابعه الخاص ، ومنهم من ينشئ مذهباً فى الشعر يبقى ما بقى الشعر ، ولا يتأثر باختلاف الظروف وتباعد العهد وتتابع الأيام . وكان « أبو تمام » من هؤلاء الشعراء ، مر بالأرض مرًّا سريعاً ، كما يمر السحاب ، ولكنه غرس فى الأرض حدائق لن يجد الذواء والذبول إليها سبيلا . وكان « أندريه شينيه » من هؤلاء الشعراء ، مر بالأرض مرًّا سريعاً كما يمر السحاب ، واختطفته الثورة الفرنسية اختطافاً ولما يبلّغ رسالته كاملة . ولكن الشعر الفرنسى لم ينس غناءه بعد ، ويظهر أنه لن ينساه ، ما دام فى الشعر الفرنسى غناء .

وفوزى المعلوف بعيد كل البعد عن أن يشبه بأبى تمام أو يقاس إلى أندريه شينيه ، ولكنه قريب كل القرب من أن يذكر معهما ، ويفكر فيه إذا فكر فيهما ، ويتحدث عنه المتحدثون إذا تحدثوا عنهما . مر بالأرض مرًّا سريعاً ، كما تمر النسمة الهادئة ، الحلوة الوديعة ، التى تحمل على هدوئها وحلاوتها وعلى دعتها وعذوبتها خصباً كثيراً ، فيه حياة للنفوس ، وفيه شفاء للقلوب ، وفيه مادة لتفكير العقول ، فتأتى ما تحمل ، ثم تمضى فى طريقها هادئة وادعة ، إلى هذا العالم الذى لا يرجع من يذهب إليه . أو قل إنه مر بالأرض مسرعاً كما تمر نغمة الغناء ، أو كما يمر لحن الموسيقى ، فمضى إلى حيث لا يعلم أحد ، ولكنه ترك فى النفوس صدى يتردد فيها حلواً لاذعاً محرقاً معاً . لا أعرف أنى تأثرت بشاعر كما تأثرت بهذا الشاعر الشاب ، حين قرأت قصيدته على « بساط الريح » أمس ، فاهتزت لها نفسى اهتزازاً ، وأشفق لها قلبى إشفاقاً . ثم قرأتها اليوم فوجدت لقراءتها مثل ما وجدت أمس ، أو أكثر مما وجدت أمس . وما أرى إلا أنى سأقرؤها وأقرؤها ، وسأجد فى قراءتها هذه اللذة المرة

التى يحبها الأديب حين يقرأ الشعر الجيد الرائع الجميل . بل أذكر أنى وجدت هذا الأثر مرة حين قرأت منذ أعوام مقطوعات من الشعر الفرنسى نشرتها « الالستراسيون» لشاب أمريكى أحب فرنسا وتطوع للدفاع عنها أثناء الحرب ، وتغنى فى شعره الفرنسى الحلو بجمال تلك الأرض التى كان يدافع عنها ، والتى تنبت خير ما ينبت فى فرنسا من الكَرْم ، وتؤتى خير ما تؤتيه كروم فرنسا من الخمر . وكان ذلك الشاعر الأمريكى الشاب يحس أنه سيموت ، وكان يقدّر أن جسمه سيمتزج بثرى ذلك الإقليم الفرنسى ، إقليم « شمبانيا » ؛ وسيغذو ما سينبته ذلك الثرى من الكَرْم ، وسيشيع فيما ستؤتيه تلك الكروم من الخمر . وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بالفرنسيين ، وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بما سيلقاه الفرنسيون من النشوة والفرح ، ومن البهجة والسرور ، حين يشربون ما سيؤتيه ثرى « شمبانيا » من النبيذ .

وكنت أقرأ هذا الغناء الحزين اللاذع ، فأجد لنغمته لذة حزينة لاذعة ، كهذه اللذة التى وجدتها أمس ووجدتها اليوم حين قرأت قصيدة ذلك الشاعر اللبنانى الشاب . ولست أعرف من أمر هذا الشاعر شيئاً إلا أنى سمعت اسمه من أبيه الحزين حين كان فى مصر أثناء الشتاء ، ثم حدثنى عنه المحدثون فى هذه الأيام ، حين أخذت فى درس الشعر العربى الحديث . ثم حمل إلىّ بعض الأصدقاء قصيدته هذه ، ثم قرأت هذه المقدمة الطويلة الغريبة ، التى قدمها بين يديها بعض المستشرقين ، ثم أعرضت عن هذا كله ، وأخذت أقرأ القصيدة نفسها ، فأى روح عذب ، وأى فن رائع ، وأى موسيقى خليقة بالبقاء !

وقد قرأت فى المقدمة ، وقال لى الناس ، إن لهذا الشاعر مجموعات أخرى من الشعر . وأنا أرجو أن أوفق لقراءتها أو للنظر فيها ؛ فإن من الخير بل من الواجب على الذين يُعْنَوْن بالشعر العربى الحديث أن يدرسوا شاعرية هذا الفتى درساً مفصلا دقيقاً ، ليروا كيف نشأت وكيف تطورت ، وكيف انتهت بصاحبها إلى هذا الخطر العظيم من الإجادة والإتقان . ولا بد من أن أكبح هذه العواطف التى تثير فى نفسى عواطف الحب والحزن ، والرحمة والإشفاق . لا أستطيع أن أتحدث عن هذه القصيدة حديث الناقد الذى لا يتأثر بالعواطف والميول إلا بمقدار ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ القصيدة كلها حزن وكلها إثارة لهذه العواطف . بل كيف السبيل إلى ذلك والشىء القليل الذى انتهى إلىّ من أمر هذا الشاب ، كله حزن ، وكله إثارة للعواطف . فقد نشأ هذا الفتى فى لبنان حيث هذه الطبيعة الرائعة التى نحبها

ونكبرها ونكلف بها ، ونُعْجَبُ بما تفيض على أهلها من دعة وشدة ، وكرم يقوم النفس ، ويصفى الطبع ، ويبعث فى المزاج حدة كلها شعر ، وكلها تأثر بالجمال . ولم يكد هذا الفتى يبلغ الشباب حتى هاجر ، كما يهاجر أبناء وطنه ، إلى طرف بعيد من أطراف الأرض : هناك فى أمريكا الجنوبية حيث الحياة سهلة ولكنها لا تخلو من نشاط ، وحيث الحياة عاملة ولكنها لا تدفع إلى المادية التى تفسد القلب والذوق ، وحيث يعيش المهاجرون عيشة قوامها الأمل والذكرى ، ومزاجها الحنين الذى يؤلف بين الأمل والذكرى . هناك حيث تتفتح أمام اللبنانى والسورى أبواب الأمل الذى لا حد له أيضاً ، ولكن حيث لا يستطيع اللبنانى والسورى أن ينسى فى لحظة من لحظات حياته أنه ابن لبنان ، أو ابن سوريا ، وأن له فى لبنان أمًّا وأباً وإخوة صغاراً ، وقوماً ينتظرون منه الخير ، ويرجون له الخير ، ويبعثون الرسائل تحملها إليه السفن ، ويبعثون نفوسهم وآمالهم تحملها إليه الريح . يذكرونه إذا أشرقت الشمس ويذكرهم إذا أشرقت الشمس ، يذكرونه إذا أقبل الليل ، ويذكرهم إذا أقبل الليل ، يناجونه فى الأحلام ، ويناجيهم هو أيضاً فى الأحلام . فتتكون له حياة عربية خالصة ، ترده إلى بداوته الأولى ، وإن كان فى بيئة كلها حضارة كأحدث ما تكون الحضارة . وهل حياة العربى إذا حللتها ورجعت بها إلى أصولها الأولى إلا حنين يختصره هذا البيت :

عُوجَا على الطلل القديم لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حزام

أو يختصره هذان البيتان :

هوَى ناقتى خلفى وقُدّامى الهوى وإنى وإياها لمختلفان

تحن فتبدى ما بها من صبابة وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى

حياة العربى كلها حنين تفيض به نفسه إن سكت ، ويفيض به كلامه إن تكلم ، ويفيض به شعره إن كان من الشعراء . ودع ما يقوله مؤرخو الآداب فى تحليل الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار وتذكر الأحباب فى أول الشعر ، على اختلاف العصور والمنازل ، فليس لهذا كله علة إلا هذا الحنين الذى امتزج بنفس العربى فقوّمها تقويماً .

عاش هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين ، ومات هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين ، وتغنى هذا الشاب فى قصيدته هذه يأساً مهلكا ، وحزناً محرقاً ، لا مصدر لهما إلا الأمل والذكرى والحنين .

وارحمتا للغريب فى البلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابَه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

والقصيدة التى أريد أن أتحدث عنها قصة يسيرة ولكنها رائعة فى يسرها، قصيرة ولكنها بارعة على قصرها ، تلخيصها سهل ولكنها لا تحتمل التلخيص ، لأن جمالها لا يأتى من جملتها وإنما يأتى من تفصيلها ، وهو لا يأتى من خلاصتها ، وإنما يأتى من هذا الشرح الذى بُسطت به هذه الخلاصة تبسيطاً وعرضت فيه عرضاً جميلا. فالشاعر قد طار فى الجو دقائق ، ثم هبط الأرض . هذا كل شىء ، هذه هى الفكرة التى أوحت القصيدة إليه ، فكرة من أيسر ما يخطر للناس ، ولكن انظر فى الوحى الذى صدر عنها فستراه رائعاً حقًّا . والغريب أن الشاعر لم يطل فى وصف الطيارة التى صعد بها الجو ، ولم يغرب فى هذا الوصف ، ولم يأت فيه بشىء يمكن أن يوصف بأنه جديد . ولعله كان عربيًّا بدويًّا ، حين خيل إليه أن فى صدر الطيارة جنًّا تحث الخيل . ولكن جمال القصيدة لا يأتى من الوصف ، وإنما يأتى من هذا الخيال الفلسفى الساذج الذى يرقى بالإنسان فى فلسفة مألوفة قديمة ليس فيها ابتكار إلى روحيته العليا فى غير تكلف ولا احتمال لجهد فى التصعيد الطويل .

وقد قسمت القصيدة أقساماً ورتبت أناشيد ، وألف بين هذه الأقسام والأناشيد تأليفاً طبيعيًّا منطقيًّا يكون وحدة منسقة بديعة التنسيق ، وبُثَّتْ فى هذه الوحدة حياة قوية جدًّا ، وحركات تلائم ما فى هذه الحياة من القوة ، ثم بثت بين هذه الحياة والحركات نجوى هادئة وديعة مؤثرة تصور روح الشاعر الهادئ الوادع على ما يحطم نفسه من اليأس . بدأ قصيدته بتصوير الشاعر الذى سيقص علينا قصته ، فجعله ملكًا فى الهواء ، ثم وصف روحه الحر ، وجسمه العبد ، فى الأناشيد الثلاث الأولى . فانظر كيف ابتدأ . ونلاحظ قبل كل شىء أنه اختار البحر الخفيف من أوزان الشعر لقصيدته ، لم يغير فيه طول القصيدة ، ولكنه غير القوافى بتغيير الأناشيد ، والتزم فى البيت الأول من كل أنشودة نوعاً من الموسيقى يهب له ظرفاً وجمالا موسيقيًّا خاصًّا ، فيضيف أو قل يقحم بين شطرى هذا البيت مَقْطَعَيْن من مقاطع البحر الخفيف هما « فاعلاتن مستفعلن » ثم يضيف نفس هذين المقطعين بعد هذا الشطر الثانى فيتمان المعنى ويضعان موسيقى الأنشودة أجمل وضع وأروعه .
فانظر كيف بدأ أنشودته الأولى :

في عباب الفضاء فوق غيومه
فوق نسره
ونجمته
حيث بث الهوى بثغر نسيمه
كل عطره
ورقته

موطن الشاعر المحلق — منذ البدء لكن بروحه لا بجسمه
أنزلته فيه عروس قوافيه بعيداً عن الوجود وظلمه
مَلِكٌ قبة السماء له قصر وقلب الأثير مسرح حكمه
ضارب في الفضاء موكبه النور وأتباعه عرائس حلمه

فانظر إلى هذين المقطعين القصيرين اللذين أحاط بهما الشطر الثاني من البيت الأول ، وكيف يتمان معناه ويجملان لفظه وينسقان موسيقاه ، تنسيقاً حلواً ظريفاً .

ثم انظر إلى هذه الموسيقى التي تنبث في الأنشودة كلها مؤلفة من الألفاظ والمعاني ومن هذه الصور الغريبة التي يعرضها عليك في جرأة ، كأنها الأصوات النابية التي يفرضها الموسيقى عليك فرضاً لأمر يريده هو ولا تفطن له أنت وإنما تتذوقه وتحبه وتطمئن إليه . فهذا الشاعر الملك الذي اتخذ قبة السماء قصراً وأديم السحاب عرشاً ودجى الليل طيلساناً ، والثريا صولجاناً ، مَلِك رائع ، لا لأنه ممكن ، ولا لأنه مستحيل ، بل لأنه غريب نتخيله ولا نتصوره ، نلمحه ولا نكاد نتبينه . وهذا الملك غريب في الأرض قد أكره على أن ينشأ فيها ويعيش عليها ، ولكنه يفلت منها بين حين وحين ، فيصعد إلى قصره في قبة السماء ، ويجلس على عرشه من أديم السحاب ، ويتصرف في ملكه بأمر الخيال ، وباسم الخيال ، حتى إذا رُدَّ إلى موطنه السفلي نظر فإذا هو عبد لكل شيء : عبد لقلبه ، وعقله ، وشعوره ، وحسه . عبد للناس وعبد لما يضعون من نظام وقوانين . عبد للطبيعة ، عبد لكل ما يحيط به . لا يخلص من هذا الرق إلا حين يعطف عليه روحه ، فيحمله على جناح خياله ، وينقله إلى ملكه الرفيع .

كل ذلك يؤدَّى في ألفاظ سهلة ومعان قريبة وصور منها المألوف ومنها الغريب ، ولكنها كلها جميلة ، لأنها مألوفة حيناً ولأنها غريبة حيناً آخر . هذا الشاعر الحر العبد ، المقيد ، المطلق ، الملك ، الراعي ، حلم ولكن في اليقظة لا في النوم ، رأى نفسه يصعد في السماء ، على طيارة ، انظر كيف وصفها الشاعر :

هى طير من الجماد كأن السجن فى صدرها تحث خيولا
حمحمت تضرب الرياح بنعليها فشقت إلى السماء سبيلا
ثم مدت إلى النجوم جناحين وجرّت على السحاب ذيولا
غرقت فى الأصيل حيناً وعامت بعد حين تعلو قليلا قليلا
ترتدى من دخانها بُردة الليل وتلقى عن منكبيها الأصيلا
وعليها من الشرار نجوم عقدت حول رأسها إكليلا
حلّقى ، حلقى ، وألقى على الأفلاك رعباً وروعة وفضولا

فلم تكد هذه الطيارة ترقى به فى الجو حتى أحسته الطير ، فارتاعت له ثم ائتمرت به ، ثم هجمت عليه لأنها ظنته مستعمراً يريد أن يملك الجو ، كما تعود أن يغير على الأرض . وهل يستطيع الشاعر العربى الشرقى أن ينسى الاستعمار إن أقام فى وطنه ! أليس طريد الاستعمار إن هاجر عن وطنه ! ولكن الشاعر يؤمّن الطير ويأمن إليها ، ويطلب عندها الراحة من التعب والعناء ؛ فهو شقى فى الأرض ، متعب بما فيها ومن فيها .

ثم انظر إلى أنشودته التى سماها « رمز الألم » كيف صور فيها شقاء الإنسان وتعسه وسوء حظه وحاجته إلى أن يفلت من هذه الحياة من حين إلى حين ، ليرفه على نفسه ، حتى تتاح له الراحة الكبرى ولكن الحلم ما زال متصلا ، والطيارة ما زالت تصعد بصاحبها ، وهو قد بلغ الطير فأخافها ثم صالحها ، ولكنه عاقل يعيش فى القرن المتم العشرين ، ويركب الطيارة ، وهو فى الوقت نفسه شاعر يهيم فى فضاء لا حد له ، فهو يدنو من النجوم ولكنه لا يبلغها ، يدنو منها بقوة الخيال ، ولا يبلغها لأن العلم ما زال قاصراً عن أن يبلغه إياها . وقد أحبته النجوم ، فبعضها يشفق منه ، وبعضها يهزأ به . والطيارة تصعد به دائماً ، والحلم متصل لا ينقطع ، وإذا هو يحس من حوله حياة لم يعرفها وأشباحاً لا يتبينها ، وأصواتاً يتذوقها ولا يكاد يسمعها ، وإذا هى الأرواح تنكره ويأتمر به بعضها . أليس هو حفنة من تراب قد طفت على الجو ، وسمت إلى حيث لا ينبغى أن تسمو ؛ فيجب أن تُرَدّ إلى أصلها ، وأن تمتزج بمعدنها من الأرض . ولكن روح الشاعر يواتيه فيحميه ويعطف عليه كل هذا الكون الذى ينكره ويثور به ، وإذا الشاعر يقضى على بساط الريح مع خير ما فى الكون من المعانى والروح والمثل العليا ، لحظات لا سبيل إلى أن تقدر ولا إلى أن توصف ،

وإنما هى لحظات النعيم الذى يذوقه الشعراء ويبدع فى تصويره الشعر ، ثم يعجز برغم هذا الإبداع عن أن يؤدى صورته كما كان يريد أن تكون صادقة صافية ملائمة لما رأى ولما أحس .

ثم ينقطع الحلم وتهبط الطيارة الأرض ، وينظر الشاعر فإذا هو قد رُدَّ إلى موطن الرق وهَوَى إلى حيث الشقاء والألم والذل ، وما شئت مما يجعل حياة الناس تعساً كلها ، وإذا هو لا يجد معزياً ولا معيناً إلا قلمه . أليس هو الذى يتلقى عنه وحى الشعر ؟ أليس هو الذى يسطر عنه هذا الوحى ؟ أليس هو الذى يحمل شكاته المتصلة الخالدة إلى الأجيال المتصلة الخالدة ؟ نعم ؛ ليس للشعراء صديق يعدل رواتهم حين كانوا لا يكتبون . ولولا الأقلام ماعرفنا — أستغفر الله — ما عرف شعراءنا المحدثين أحد من هؤلاء الذين سيعرفونهم بعد أن تمضى القرون والقرون . فيرثون لهم ، ويعطفون عليهم ، ولعلهم أن يجدوا عندهم ما يسر ويرضى ، كما نجد نحن السرور والرضا عند القدماء .

لو طاوعت نفسى لنقلت لك القصيدة كلها فليس فيها بيت واحد يستحق الإهمال . وأعيد الآن ما قلته من أن القصيدة لا تمتاز بالابتكار ، فليس فيها أو لا يكاد يكون فيها شىء مبتكر ، وإنما تمتاز بهذا الروح الحلو القوى الوادع الذى تكوّن من جمال الشعر والموسيقى وانبثّ فى القصيدة كلها فجعلها كلها خليقة أن تقرأ وتقرأ ، ولا يزهد فيها القارئ ولا يمل من قراءتها مهما يعدها ، بل يرغب القارئ أشد الرغبة فى أن يستريح إلى هذه القصيدة حين يثقل الهم على نفسه ، ويضطرب الحزن فى صدره ، ويضيق بالحياة والأحياء ؛ لأنه يجد فى هذه القصيدة شريكاً له فى الهم ، ومشاطراً له فى الحزن ومعيناً له على الضيق . ثم لأنه لا يكره أن يحلم مع الشاعر وهو يقظان ، وأن يتخفف من جسمه ويدع الأرض وأثقالها ، ويلم بهذا الشاعر الملك فى قبة السماء التى اتخذها له قصراً ، وعلى أديم السحاب الذى اتخذه له عرشاً ، ومن هذا القصر الشاهق ومن هذا العرش العالى ينظر مع الشاعر إلى الأرض ومن عليها وما عليها نظرة بريئة من الكبرياء ولكنها مملوءة بالرحمة والحب والإشفاق . ولست أزعم أن القصيدة تخلو من بعض الألفاظ التى كان الشاعر يحسن لو غيّرها وأعرض عنها ، ولكن أين تكون هذه الألفاظ القليلة النادرة من هذا الجمال الذى لا حد له ولا نهاية !

لقد خسر الشعر العربى بموت هذا الشاعر الذى لم يكد يتجاوز الثلاثين ؛

ولكن الشعر العربى الحديث قد ربح بهذه الحياة القصيرة ما أحسبه يقدره إلى الآن . ولعل مما يعزى أن يكون بعض الشعراء المصريين قد عرف لهذا الشاعر قدره ووصف قبره هذا الوصف المؤثر الرائع الذى تقرؤه فى ديوان « الملاح التائه » والذى يقول فيه الأستاذ على محمود طه قصيدته « قبر شاعر » المنشورة فى غير هذا المكان .

ومن الحق أن نسجل هنا ما سجله الشاعر نفسه من أن هذه القصيدة إنما هى من وحى فوزى المعلوف ؛ فقد قالها الشاعر بعد أن سمع شيئاً من هذه القصيدة التى تحدثت إليك عنها الآن .

فى النظم

أنفاس محترقة — لمحمود أبى الوفا

يراه صديقنا فؤاد صرّوف وجماعة غيره من المثقّفين شعراً ، وأنا آسف أشد الأسف لأنى لا اراه إلا نظماً . وآسف أشد الأسف أيضاً لأنى مضطر إلى أن أقول ذلك وأعلنه إلى قراء هذا الحديث . ولو أرسلت نفسى على سجيتها لآثرت ألا أعرض لهذا الديوان . ولكن ماذا أصنع وللنقد علينا حقوقه وتكاليفه الثقال ، وللقراء علينا أن نصدقهم حين نتحدث إليهم فيما ينشر عليهم من أنواع الكلام ؛ والله يعلم أنى أوثر الرفق على العنف ، واللين على الشدة ، ولكن الله يعلم أيضاً أنى لا أتردد فى الشدة والعنف حين يدعو إليهما الحق ويقتضيهما الإنصاف . وإنى لأشعر بشىء من الحزن العميق حين ألاحظ أنا كنا منذ أعوام نقسو على حافظ وشوقى رحمهما الله ، نجادلهما فيما كانا يقولان أشد الجدال ، وننازعهما فيه أشد النزاع ، لا نكاد نسلم لهما بالإجادة ولا نعترف لهما بالإتقان . ولم نكن فى ذلك مسرفين ولا مخطئين ، وإنما كنا نؤدى للمثل الفنى الأعلى حقه ، ولا نكتفى من شعرائنا بما كانوا يكتفون به ولا نرضى لهم أن يُفسد عليهم أمرهم العُجب ويحملهم الغرور على التقصير أو القصور . كنا كذلك منذ أعوام ، أما الآن فقد أصبح الرضا يسيراً ، وأصبح كل كلام منظوم شعراً ، وكل كلام مرسل نثراً ، وكل شىء مطبوع فى مجلد أو سفر من الأسفار أدباً ، وأصبح الجدال فى ذلك أو الإنكار له إثماً من الآثام ، وذنباً من الذنوب العظام ، يوصف بالحسد حيناً وبالمنافسة حيناً آخر ، وبالقسوة والغلو حين يحسن بك الظن ويصدق فيك الرأى وترتفع عند الأدباء عن مظان الريب والشكوك .

وكنا خليقين أن يكونتشددنا مع الشعراء والكتاب فى هذه الأيام أكثر منه فى الأعوام الماضية ، فالمفروض أننا نتقدم ولا نتأخر ، وأننا نرقى ولا نهبط ، وأن المثل الأعلى فى كل شىء ، يرقى ويعظم ويبعد بمقدار ما يعظم حظ الناس

من الحضارة والرقى . ولا بد من أن نلتمس العلة لهذا الضعف الذى أصاب الذوق الفنى حتى أفسده أو كاد يفسده إفساداً تامًّا . وقد ذكرت فى غير هذا الفصل شيئاً من الأسباب التى دفعتنا إلى هذا الضعف ، وقلت إنا قد أهملنا النقد إهمالا ، وأعرضنا عنه إعراضاً ، فنشأ جيل من الأدباء، يكتبون وينظمون ولا يشعرون بمراقبة النقد ، فيخيل إليهم أنهم يجيدون ، ثم ينتهى الأمر بهم إلى شىء من الغرور البغيض . ولكن هناك علة أخرى لهذا الضعف لم يبق من الممكن أن نهملها ، أو نعرض عنها ، لأنها شديدة الخطر حقًّا على الفن والذوق والخلق جميعاً ، وهى حرص السياسة على استغلال الأدب والأدباء . ومن الأشياء التى لا تقبل الشك ، وإن كنت أكره أشد الكره أن أعرض لها أو أطيل فيها ، أن هذا العهد السياسى الذى نعيش فيه قد أحس أن الأدب المعروف والأدباء المعروفين لا يميلون إليه، ولا يرضون لأدبهم أن يكون له صورة ومرآة . وأراد مع ذلك أن يكون له أدب وأدباء ،وأن يكون له شعر وشعراء ،فجد فى ذلك وأنفق جهداً غير قليل ، وإذا ميول تظهر ، وأهواء تلتقى ، وأنباء تذاع فى الصحف وجماعات تؤلف ، وأندية تنظم ، ومحاضرات تلقى ، وأصوات كثيرة ترتفع وما كانت تسمع من قبل ، وإذا أدب جديد ، أو أدب يوصف بأنه جديد ، قد أخذ يدنو من الناس ويتقرب إليهم ، ويتملقهم بألوان من أسباب الملق ، فيبلغ من بعضهم ما يريد ويعجز عن أن يبلغ من أكثرهم شيئاً . ولولا هذه الظاهرة لظل كثير من الناس الذين يسمون أنفسهم أدباء أو شعراء مشغولين بما كان يشغلهم قبل هذه المحنة السياسية من فنون الجد والهزل ، وألوان الاضطراب فى كسب الحياة . وأنا أعترف بأنى لا أعرف آبا الوفا ، ولست أذكر أرأيته قبل اليوم أم لم أره . ولست أذكر أنى قرأت له شعراً قبل اليوم . ولعلى سمعت من نظمه البيت أو البيتين ، فلم أقف عند ما سمعت ولم أفكر فيه . ثم ثارت منذ حين ثائرة عن شاعر مجدد يسمى أبا الوفا ، له أصدقاء يحبونه ويعطفون عليه ، وله قوم آخرون يكبرونه ويعجبون به ، وأخذت الصحف تنشر من أنباء أولئك وهؤلاء شيئاً كثيراً . كنت أسمع به وأقف عند بعضه حائراً حيناً ومنكراً حيناً آخر . ثم يعظم الأمر ويتسع حتى يصل إلى رياسة مجلس الوزراء ، وإذا صدقى باشا يرقى إلى الأدب أو الأدب يهبط إلى صدقى باشا ، ثم نسمع أن أبا الوفا قد سافر إلى باريس ليلقى الأطباء ، فلا ننكر من ذلك شيئاً ،

ولكنا ننكر هذه الضجة المتكلفة التى ثارت حول هذه الرحلة للاستشفاء فى باريس .

ثم أدع هذا كله فيما كنت أدع من أمور الأدب الحديث والأدباء المحدثين حتى إذا عدت إلى التفكير فى هذا الأدب وفى هؤلاء الأدباء رأيت بين يدىَّ دواوين كثيرة ، منها هذا الديوان الصغير الذى يسمى بالأنفاس المحترقة . . فأنكر العنوان ، ولا أسيغه ، ولا أفهم ما يراد به إليه ؛ فأنفاس الناس كلها محترقة ، وأنفاس الحيوان كذلك ، فلو قد سمى الناظم ديوانه الأنفاس ليس غير ، لكان فى هذا الاسم ما يغنى . ولعله أراد أن يقول الأنفاس المحرقة ، فأخطأ الوصف . على أنى لم أطل الوقوف عند العنوان ، وإنما أخذت أنظر فى الديوان ، فإذا مقدمة لصديقنا فؤاد صروف ، أعجبنى أولها ، وأدهشنى آخرها . أولها كلام فى الشعر مستقيم وإن كان الخلاف فى بعضه كثيراً شديداً متصلا ، وإن كان مذهب الأستاذ صروف فيه محتاجاً إلى كثير من التحقيق والتدقيق . فليس من الحق فيما أظن أن تحكيم العقل فى الشعر يفسده . ولعل جماعة من كبراء الشعراء الفرنسيين وغير الفرنسيين ، لا يقبلون الشعر إلا إذا سيطر عليه العقل وأخضعه لسلطانه المنظم ومنطقه المستقيم . وليس من الحق فيما أظن أن إرسال النفس على سجيتها يصلح أمر الشعر الحديث فى الأمم المتحضرة التى لا ترى الشعر ضرورة من ضرورات الحياة العادية ، وإنما تراه لوناً من ألوان الترف العقلى والشعورى . ولكن الغريب من أمر صديقنا صروف أنه ينتهى من مقدمته إلى هذه النتيجة ، وهى أن صاحب الديوان شاعر من غير شك ، وأن شعره خليق بالإذاعة والبقاء . وأنا آسف أشد الأسف لا لأنى لا أرى رأى الأستاذ ولا أقره عليه ، بل لأنى أعتب على الأستاذ أن يقضى فى أمر الشعر والأدب كما يقضى فى أمر الطبيعة والرياضة والكيمياء . ولست أتردد مهما أكن قاسياً عند كثير من القراء فى أن أعلن أن صاحب الديوان لا يستطيع أن يرقى بديوانه هذا إلى منزلة الشعراء ولا أن يجلس معهم على مائدة « أبلُون » ؛ فالأمد بينه وبين ذلك بعيد إلى أقصى غايات البعد . والأدباء أحرار فى أن يرفعوا صاحب هذا الديوان إلى حيث يريدون من منازل الشعر ، يتأثرون فى ذلك بما يريدون ، فهذا لن يغير من الحقيقة الواقعة شيئاً ، وهو أن هذا الديوان يخلو من الشعر خلوًّا تامًّا . بل أنا أذهب إلى أبعد

من ذلك ، ولا أكره هذه القسوة ، وسيكرهها كثير من القراء ، فأزعم أن هذا الديوان على خلوه من الشعر ، لا يخلو من سوء النظم وفساده واضطرابه الذى لايطاق . ولولا أن الظروف السياسية التى أشرت إليها قد حملت جماعة من الناس على أن يشيدوا بأمر صاحب الديوان ويسرفوا فى ذلك إسرافاً شديداً ، لما استطاع كلام كهذا الكلام أن يوصف بالشعر ، أو أن يرقى إلى مرتبة الكلام الذى يوصف بجودة النظم واستقامة الوزن وحسن الانسجام . فأنت تستطيع أن تقرأ الديوان من أوله إلى آخره دون أن تظفر فيه ببيت واحد ، فضلا عن مقطوعة ، فضلا عن قصيدة ، يثير فى نفسك هذا الرضا الذى يثيره الشعر العالى ، أو يبعث فى نفسك هذه اللذة التى يبعثها الفن الجميل . إنما هى معان بعضها مبتذل أشد الابتذال ، وبعضها مألوف لا جمال فيه ، وبعضها مأخوذ من الشعراء المتقدمين والمعاصرين أخذاً بريئاً من الاحتياط ، وبعضها فيه استهتار وتكلف للمجون الذى لا يلائم الذوق الأدبى الممتاز فى هذا العصر الذى نعيش فيه . يريد الشاعر أن يكون حائراً ، لأن من الشعراء من تملك الحيرة أمره ، فيتكلف فى الحيرة كلاماً لا يغنى ولا يدل على شىء . فانظر إليه كيف يقول فى هذه القصيدة :

والليـــل كم فيــه سر يدمى فؤاد الصريح
كــأنمــا الليــل قس يغرى بســود المســوح
واهــاً وواهــاً لقلبى واهــاً له من جريح
لم يــدرِ سهماً رمــاه أتاه من أى ريح

ولست أدرى أنا كيف يكون تخريج هذا البيت عند النحويين ، كما أنى لست أدرى أين الشعر فى السهم الذى يأتى من أى ريح ؟ !

يا طير من أى دوح أنا وفى أى دوح

ولاحظ الدوح بفتح الدال والدوح بضمها فى بيت واحد لا لشىء إلا لتستقيم القافية

الأرض لم يبــق فيها من موطــن للصريح
من لم يغــنٍّ لموسى غنى لعيسى المسيــح

وهذا المعنى كما يعرف الناس جميعاً علائى ، قد كثرت نسبته إلى صاحبه

أبي العلاء حتى تحدثت به العامة على قلة عنايتها بالأدب والأدباء .

يا روح من أين جئت   من حيثما جئت روحى

وقِـفْ من هذا البيت فسترى فيه فساد النظم صارخاً حقًّا ، فلا بد من أن تمد كسرة التاء فى « جئت» حتى تجعلها ياء ليستقيم وزن الشطر الأول . ثم انظر إلى ابتذال اللفظ وسخفه وانحرافه عن الصواب فى قوله « من حيثما جئت روحى» هذا هو الكلام الفارغ حقًّا .

سر الحياة أليم   يُوحِى به واستريحى

ولكن روحه لم تبح بهذا السر الأليم ليستريح . فإن كان هذا السر هو ما تحدث به الناظم فى قصيدته كلها فهو سر معروف ، قد اؤتمن عليه أكثر من اثنين .

وأراد الناظم أن يتحدث عن الإيمان فلم يقل شيئاً . فانظر إلى هذه القصيدة أو المنظومة التى يعجب بها الأستاذ فؤاد صروف . والظريف أن الناظم أراد أن يكون كالأستاذ العقاد — وما الذى يمنعه من ذلك ؟! — فقدّم بين يدى منظومته تلخيصاً للفكرة التى نظمها يحسبه واضحاً وهو غامض أشد الغموض ؛ فهو لا يرى أن الإيمان نقيض الكفر ، وإنما يرى أن الإيمان مرادف الحياة . فكل حى مؤمن سواء أكان كافراً أم مؤمناً . وعلى ذلك فآدم لم يقترف خطيئة ولا إثماً حين عصى الله ، وأكل من الشجرة ، وإنما رغب فى الحياة الحرة المستقلة. فإذا كنت قد فهمت من هذا شيئاً فأنت رجل عظيم الحظ من الذكاء حقًّا . أما أنا فلا أفهم من هذا الكلام إلا أنه ضرب من اللغو ، يريد صاحبه أن يزعم لنفسه فنًّا من فنون الفلسفة ، فيه خروج على ما ألف الناس من أحكام الدين . وأعوذ بالله من أن أدخل فيما بين الرجل وبين ربه ؛ فأنا لا أبيح ذلك لأحد . وإنما ألاحظ أن حب الامتياز قد يدفع الناس إلى سخف كبير . وانظر إلى المنظومة نفسها ، فهى آية من آيات الفلسفة التى لا تمتاز بشىء كما تمتاز بالفراغ والقدرة على إحراج الصدور :

قوة لم تتح لقلب جبـان   تلك فى المرء ، قوة الإيمان

تتجلى فى جميـع قوى الـكو   ن شيوع الأرواح فى الأبدان

إِـكأنى أرى الحيـاة وإيا   ها سميين ، أو هما توءمان

أول المؤمـــنين بالله حقــًّا هو ، فى الأرض ، كان أول بان
يا ضياء الحياة بوركت فيهــا بل تباركت يا يد العمران

إلى أن يقول :

ليت شعرى ماذا أراد بنا الخا لق إلا سيــادة الأكوان

* * *

رب فيم ابتعثت رسلا ولو شئـــــت لأغنت إرادة الإنسان
أفصح الحسن مستهلا فما حــا جة هذا الجمال للترجمــان
لا أرى آدماً عصى الله لــكن شاء أن يستقل بالسلطــان
يكره الحر أن يعيش على السجـــــن ولو كان سجنه فى الجنان

أرأيت ! أراد آدم أن يكون مستقلا بالسلطان لا يخضع لأمر الله ، ولا يذعن لإرادته ، وهو حين أراد ذلك لم يعص الله ، ولم يخرج عن أمره ، وإنما أراد أن يكون له شريكاً وندًّا ليس غير . وأكبر الظن أن الناظم قد اختلط عليه آدم وإبليس ، أو أنه لم يختلط عليه شىء ، وإنما عقد الأمور على نفسه تعقيداً ، وزج بنفسه فى مشكلات لم يخلق لها ولم تخلق له .

وتستطيع أن تقرأ « ضحية العيد » وأن تقرأ حديث الناظم إلى ڤيكتور هوجو . فليس المهم أن يفهم ڤيكتور هوجو ، أو أن يفهمه هذا الشاعر الفرنسى ، وإنما المهم أن لڤيكتور هوجو كتاباً يقال له البؤساء ، وأن بعض هذا الكتاب قد ترجم إلى العربية ، وعرف صاحبنا أنه ترجم ، وصاحبنا بائس فهو يتحدث إلى صاحب البؤساء ، وهو يتحدث إليه حديثاً لا يستطيع أن يرقى إليه ، لأنه خال من الشعر كل الخلو . والغريب الذى لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أسيغه ولا أن أعوِّد نفسى على أن تطمئن إليه ، أن بين المثقفين قوماً يقرءون هذا الكلام ويذيعونه فى الناس على أنه شعر ، ويشجعون الشباب على أن يذهبوا مذهب صاحبه ، ويتأثروا خطواته فيما ينظمون .

ولست أريد أن أطيل عليك بالتحليل والتعليل ، ولا بالنقد والملاحظة ، فكل الديوان يشبه هذا الكلام أو هو أقل منه حظًّا من الجودة . ولكن لا بد من أن أقف بك عند أشياء لا ينبغى أن تمر دون أن تعرض عليك .

فانظر إلى قصيدته — أستغفر الله — ! إلى منظومته التى سماها « مجمع الأصفياء » ولست أريد أن أفسرها فهى تفسر نفسها ، ولا أن أنقدها فهى

تنقد نفسها ، وإنما أرويها لك لتضحك ليس غير :

هذا هو المجلس لا تذكروا ... شبيهه فى الصفو لا تذكروا
رأيت فيه كيف أضحت لنا ... حقيقة مرثيـة عبقـر
كان زكى باشـا إلى جنبـه ... زعيم سوريا الحر شهبندر
وكان هرّاوى الرقيق الدقيق ... واللغوى صادق عنـبر
ويوسف الآثار عنـوانها ... الألمعى العـالم الأكبر
والعالم الدكتور عيسى الذى ... ينم عنه المعجم المثمـر
والعلم المفرد فى عصره ... خطاط مصر السيد الأشهر

* * *

عباقر الفصحى وأحلامهـا ... والأعين اللاتى بهـا تبصر
انتظم الصفو بهم معشراً ... من خير ما ازدان به معشر
فى مجلس يجـرى به صفوه ... كما جرى فى الجنة الـكوثر
يتابع الضحك به بعضـه ... كالموج ذى تطوى وذى تنشر
فنكتة فى ضحكة تختـفى ... وضحكة فى نكتة تظهـر
يرسلها صاحبهـا لفظـة ... كأنها من فـمه السكر
يا من رأى من قصفنا وصفـه ... فظننا كنـا به نسكـر
لا تأثمـن فى عصبـة عمرها ... لم يستخف حلمهـا مسكر
والله فى ليلتهم ما احتسـوا ... إثماً ولا طاف بهم منـكر
نوع من اللهو البرىء الذى ... يروى عن الأملاك أو يؤثر
يمر ذكر منه فى خاطرى ... فأنثنى فى حلم أخطـر
وينثنى للجو مثل الشذى ... لهذه الذكرى التى أذكر
يا دار « كيلانى » التى أشرقت ... وضوأت من أوجهـا الأقمر
لله هـذا الضوء من مظهـر ... لولاك ما كان له مظهـر

أرأيت إلى هذا النظم البديع ؛ وأيهما أقرب إلى الإجادة : هذا الكلام أم منظومات النحو والفقه والعروض ؟ !

وانظر إلى منظومة أخرى سماها « القبلة » ، ولست أريد أن أرويها لك ، فأنا أرق بهذا الحديث عن رواية هذا الكلام الذى هو مجون الشوارع أدنى منه إلى الأدب الرفيع . وماذا يعنى الناس من أن الناظم يحسن التقبيل ، ومن أنه

يمنح القبل الطوال والقصار والقبل الصامتة وذات الصوت ، وأين الروحية التى يتلمسها الأستاذ فؤاد صروف فى هذا المجون !

أما الأغلاط النحوية والصرفية والأغلاط التى تتصل بالوزن وإقامة النظم فأكثر من أن تحصى . وأنا أعطيك منها أو من بعضها أمثلة تدل على سائرها ؛ لأنى لا أحب أن يضيع وقتك ووقتى فى مثل هذا الإحصاء . فانظر إلى قوله :

هذى جـوانح صب فى حبكم مستهـام
نسجتهـا مروحـة لمـا براها الغرام

وأظنك توافقنى على أن الشطر الأول من البيت الثانى يخالف سائر البيتين فى الوزن . وانظر إلى قوله :

هيِّئى لى جوًّا إذا ما طلعـتُ لم أجد فى سمائه إلاك

ودع هذا الذوق الذى يبيح له أن يطلب إلى صاحبته أن تهيئ له جوّ الحب ، وقف عند هذه الضمة التى يجب أن تمتد حتى تصير واواً ليستقيم الشطر الأول من هذا البيت .

وانظر إلى قوله :

أنا منك وأنت منى روحـاً فإلىّ إلىّ روحى فداك

فلا بد من أن تمتد كسرة الكاف فى « منك » حتى تصبح ياء ليستقيم وزن الشطر الأول . ولابد من أن تمتد فتحة الياء من « إلىّ » الأولى ليستقيم وزن الشطر الثانى .

والغريب أن الناظم قد تعلم النحو والعروض فى الأزهر .

أما الأغلاط النحوية . فانظر إلى منظومته التى يشكر بها إخوانه ، وإلى هذه الأبيات الثلاثة التى تبتدئ بهذه الجملة « كى أرى الناس » يريد كى أرى الناس بفتحة على الياء ، لأن الفعل ينصب بعد « كى » فيما أظن .

وللناظم ذوق فنى لا نظير له بين الأذواق ، يكفى أن تجده وتعجب به فى هذا البيت :

إذا تحدث سال الظرف من فمه وإن يحدِّث تراه مطرق الرأس

ومن الناس من يتحدثون فيسيل الظرف من أفواههم ، ومنهم من يتحدثون فيسيل اللعاب من أفواههم ، وقوم آخرون يتحدثون فيسيل الشهد من أفواههم ، وكل هذا شعر فى هذه الأيام ! ! .

وانظر إلى هذا البيت الظريف .

لغة البلابل أين تـــذ هب بين هدهدة الهداهد

فإذا لم تعجبك هذه الهاءات والدالات فالتمس لنفسك ذوقاً حيث شئت .

أرانى قد أطلت وأسرفت فى الإطالة . ولكنى لا آسف على ذلك ؛ فقد يجب أن يعنى الأدباء بأدبهم أكثر من هذه العناية التى أظهروها إلى الآن . وقد يجب أن يغلق الأدباء أبواب الشعر ويقطعوا أسبابه على الذين لا ينبغى لهم أن يلجوا من هذه الأبواب ويتصلوا بهذه الأسباب . فقد يقال إن مصر تدعى لنفسها زعامة الأدب العربى فى الشرق . وهذا الادعاء يفرض على مصر واجبات ، أولها أن تكون حذرة دقيقة متحرجة ، ترتفع بالأدب وبالشعر خاصة عن الإسفاف والابتذال ، وإلا فهى ضحكة الشرق العربى كله .

وبعد ، فللناظم ديوان آخر تفضل بإهدائه إلى وهو الأعشاب ، ولم أقرأ هذا الديوان بعد ، وسأقرؤه إن شاء الله . ولكنى لن أتحدث عنه إلا إذا وجدت فيه ما يستحق الثناء .

فى الشعر

الجداول

للشاعر اللبنانى إيليا أبى ماضى

لست أدرى أيرضى أصدقاؤنا اللبنانيون أم يغضبون إن رأيت أن أثر جبالهم الجميلة فى الشاعر الذى أتحدث عنه اليوم ضعيف جدًّا . فالذين كتبوا عنه ينبئوننا بأنه لبنانى المولد ، ولكنه لم يبلغ الحادية عشرة حتى هبط مصر ، فأقام فيها يدرس إلى التاسعة عشرة ، ثم ارتحل إلى أمريكا فأقام فيها إلى الآن . وهؤلاء الذين كتبوا عنه يلاحظون أنه أصفى الشعراء والكتاب اللبنانيين والسوريين المهاجرين إلى أمريكا لغة ، ويخيل إليهم أن إقامته فى مصر هى مصدر هذا الصفاء . أما أنا فآسف أشد الأسف لأنى مضطر إلى أن ألاحظ أن صفاء لغته هذا الذى أعجب « كمغمير » وزميله الأستاذ طه الحميرى لا يخلو من شىء كثير يفسده ويباعد بينه وبين ما ألفناه من صفاء اللغة ونقائها عند الكتاب والشعراء الذين ينشئون ويعيشون فى مصر ولبنان وغيرهما من بلاد الشرق العربى . ولست أزعم أن لغة الشاعر رديئة أو منكرة ، ولكنها تقارب الرداءة أحياناً حتى توشك أن توغل فيها إيغالا . وليكن مصدر ذلك ما يكون ، ولكنه شىء واقع لا نستطيع إلا أن نلاحظه ونسجله آسفين . ذلك أن الشاعر مجيد حقًّا خصب الذهن نافذ البصيرة ذكى القلب متقن الفهم لما يريد أن يقول ، موفق إلى إجادة التصوير لما يحب أن يصور ، فكان خليقاً أن تواتيه مع هذه الخلال نغمة صافية عذبة تعينه على إظهار ما فى شعره من قوة وروعة وجمال ليس إلى الشك فيها من سبيل . ولعل الشاعر نفسه آنس الضعف فى لغته . ولعله حاول أن يصلحه فلم يستطع . ولعله لما استيأس من هذا الإصلاح لم يجد بدًّا من أن يتخذ هذا الضعف مذهباً ، ومن أن يدافع عنه دفاعاً ويذود عنه ذياداً ،

فقال فى فاتحة الديوان الذى أريد أن ألم به فى هذا الحديث :

لست منى إن حسبـ ـت الشعر ألفاظاً ووزنا
خالفت دربك دربى وانقضى ما كان منا
فانطلق عنى لئلا تقتنى همّاً وحزنا
واتخذ غيرى رفيقاً وسوى دنياى مغنى

فمن المحقق أن الشاعر لا يقول شيئاً فى هذا الكلام ، لأن الشعر لا يستقيم ولا يوجد ولا يمكن تصوره بغير الألفاظ والوزن. وآية ذلك أن الشاعر نفسه قدم لنا فى ديوانه هذا ألفاظاً موزونة ولم يقدم لنا كلاماً منثوراً فى غير وزن ، ولم يقدم لنا معانى فى غير ألفاظ . وآية ذلك أيضاً أن الشاعر فى هذه الفاتحة نفسها يطلب إلى قارئه أن يقرأ ديوانه ، وأن يكرر القراءة ولا يزهد فيها ولا يشفق من تكرارها ، ويزعم له أن الصوت لا يدل على شىء إذا لم تسمعه الأذن . وإذاً فاللفظ ليس من الضعة وضآلة الشأن بحيث يريد الشاعر أن يقول فى هذه الأبيات التى رويناها لك . وهناك بدعة يلح فيها كثير من الناس ؛ وهى أن الجمال الفنى فى الكلام نثراً وشعراً يأتى من المعنى وحده دون أن يكون للفظ أثر فيه . وهذا كلام إن استقام لأصحاب المنطق والفلسفة فهو لا يستقيم لأصحاب الأدب والفن ، لأن صناعتهم بطبيعتها تريدهم على أن يتخذوا اللفظ نفسه مظهراً لهذا الجمال الذى يفتنون به ويحرصون عليه . ومهما يكن حظ الشاعر من إجادة المعنى وتصحيحه وتحقيقه والبعد به عن الخطأ والارتفاع به عن الإحالة ، فهو لن يظفر من إعجاب الناس بحظ قليل أو كثير إلا إذا استطاع أن يجلو لهم هذا المعنى فى لفظ إلا يكن رائعاً خلاباً فلا أقل من أن يكون صحيحاً مستقيما بريئاً من الفساد . ولست أذهب مذهب الذين يرون الجمال الشعرى فى اللفظ وحده ولا يحفلون بالمعنى ، لأنهم يلتمسون هذا الجمال فى الموسيقى ، ولأنهم يجدون الجمال فى غناء الطير وحفيف الورق وهفيف النسيم وفى خرير الجدول وهدير البحر ، ولا يجدون لهذه الأصوات كلها معنى . لا أذهب هذا المذهب فقد يكون فيه كثير من الحق ، ولكن فيه كثيراً من الغلو أيضاً . ولعل الخير أن نذهب فى ذلك مذهب أوساط الناس ، فنقول كما يقولون : إن الكلام يجب أن يدل على شىء وإلا كان لغواً ، ويجب أن يكون صحيحاً مستقيما وإلا كان ثقيلا على الأذن نابياً عن المزاج . وعلى هذا النحو نخالف الشاعر فيما ذهب إليه من ازدراء اللفظ والوزن ، ونخالف

الكاتب الأديب الذى قدّم هذا الديوان إلى القراء فيما ذهب إليه من الإعراض عما قد يكون فى هذا الديوان من خطأ فى اللغة أو اضطراب فى الوزن ، ويحتفظ بالمقاييس التى احتفظنا بها دائماً فى نقد ما ينتج الكتاب والشعراء : صحة المعنى واستقامته وطرافته ، وجودة اللفظ ونقاؤه وارتفاعه عن الركاكة والإسفاف على أقل تقدير .

وقد يكون من العسير أن نتعلق بكثير من الخطأ على الشاعر إيليا أبى ماضى فى معانيه التى قصد إليها فى هذا الديوان ؛ فهو مصحح للمعانى كما قلنا ، لا يحيل أو لا يكاد يحيل ، ولا يتورط أو لا يكاد يتورط فى هذه المعانى الفاسدة التى تلتوى على العقل ، وإن كنا قد نجد من ذلك شيئاً فى الديوان بل فى الفاتحة نفسها ، فقوله :

كلما أفرغت كأسى زدت فى كأسى دنا

معنى فاسد لا يستقيم ، ذلك أنه يريد أن يقول إن خمره لا تنقص بالشرب أو بالاستهلاك ، كما يقول أصحاب الاقتصاد ، إنما تزداد وتربو . فانظر إلى هذه الصورة المستحيلة التى صور فيها هذا المعنى المستقيم :

كلما أفرغت كأسى زدت فى كأسى دنا

فالكأس جزء ضئيل من الدن ، أو قل إن الكأس تحتوى جزءاً ضئيلا مما يحتويه الدن ، فكيف يمكن أن يزاد الدن فى الكأس ؟ !

وللشاعر مثل هذا الخطأ فى تأدية المعانى الصحيحة فى نفسها . فانظر إلى هذا البيت :

ثم انتبهت فلم أجد فى مخدعى إلا ضلالى والفراش ومخدعى

يريد أن يقول : إنه انتبه فلم يجد إلا مخدعه وفراشه وضلاله ، ولكن وزن البيت لم يستقم له ، فأضاف إليه كلمة أقامته ولكنها أفسدته إفساداً وهى قوله « فى مخدعى » فهو إن وجد ضلاله وفراشه فى مخدعه لم يستطع أن يجد مخدعه فى مخدعه ! ! وتستطيع أن تعود إلى فاتحة الديوان فسترى فيها معنى مستقيما لو أحسن الشاعر أداءه ، ولكنه عجز عن هذا الأداء ، فأغلق معناه إغلاقاً وجعله لغزاً من الألغاز . وذلك حين يقول :

كل نور غير نو رٍ مرّ بالأعين وسنى

يريد أن يقول إن النور ظلمة إذا لم تره العيون . فانظر إليه كيف التوى به اللفظ والتوى عليه ، فعقد معناه تعقيداً ، وأغلقه إغلاقاً ، وجعل من العسير جداً على قارئه أن يصغى إليه مهما يتكلف من الجهد فى إجابته إلى هذا الإصغاء . ولكن الشاعر على هذا كله مصحح لمعانيه محقق لها ، لا يكاد يفسدها أو يخطئ فيها . وابتكاره

فى المعانى التى اشتمل عليها هذا الديوان قليل جداً لا يكاد يحس ، ولكن شخصيته قوية ، فهو يتناول المعانى والأغراض التى سبقه إليها الشعراء المتشائمون والمسرفون فى الشك من القدماء والمحدثين ، فينفخ فيها من روحه القوى ، ويكاد يفرض شخصيته فرضاً . فشاعرنا متشائم مسرف فى التشاؤم ، يزدرى الناس وأخلاقهم ونظمهم وآراءهم فى أنفسهم ، وغرورهم بما تخدعهم به الحياة ؛ فهو يذهب فى تصوير هذا كله مذهب أبى العلاء والخيام وشوبنهور وغيرهم من المتشائمين ، لا يكاد يأتى بمعنى لم يسبقوه إليه ، ولكنك مع ذلك تقرؤه فلا تحس فيه أخذاً ولا سرقة ، ولا تتأذى فيه بالتقليد، وشاعرنا أثِرٌ مسرف فى الأثرة أحياناً ، بعيد كل البعد من أبى العلاء حين يقول :

فلا هطلتْ علىَّ ولا بأرضى　　　سحائب ليس تنتظم البلادا

شاعرنا بعيد كل البعد عن هذا الإيثار ، تستطيع أن تقرأ قصيدته « بردى يا سحب » فسترى أنه لا يحفل بالنجم الذى لا يهديه ، ولا بالنهر الذى لا يُرويه ، ولا بشىء من الأشياء إلا أن ينتفع به ويفيد منه لنفسه خيراً . وشاعرنا على أثرته هذه متعجل للذاته . تستطيع أن تقرأ قصيدته « تعالى » فسترى أنه لا يحفل مَن الحياة إلا بما تستطيع أن تمنحه من لذة ، وأنه لا يقنع بالوصف ولا بالأحاديث ، وإنما يريد أن تسقيه الخمر أولا ، ثم تصفها له بعد ذلك ؛ فأما أن تصف له الخمر ولا تسقيه إياها فهذا كلام لا يعنيه . وشاعرنا مع هذا كله صاحب حكمة وزهد وحرص شديد جداً على المساواة ، يكاد يبلغ به الاشتراكية أو ما هو أبلغ من الاشتراكية فى إلغاء الفروق بين الناس . تستطيع أن تقرأ قصيدته « الطين » فسترى أنه بلغ من ذلك ما لم يبلغه كثير من الشعراء المحدثين فى الشرق العربى . ثم هو فوق هذا كله وقبل هذا كله صاحب شك لا يؤمن بشىء ولا يطمئن إلى شىء . بقيةٌ هو من هؤلاء القدماء الذين كانوا يجيبون عن كل سؤال بهذا الجواب المتواضع البديع : لا أدرى . . وقصيدته « الطلاسم » آية فى هذا الشك ، وفى الضيق والإشفاق منه والاضطرار إليه مع ذلك ، ولست أغلو إن قلت إنها خير ما فى هذا الديوان .

فأما إذا قصدنا إلى نقد هذا الديوان من جهة ألفاظه وأوزانه فنحن بعيدون كل البعد عن مثل هذا الرضا ، ونحن مضطرون إلى كثير من التحفظ ، وإلى كثير من السخط ، وإلى كثير من الضحك أحياناً . . .

فالشاعر لا يحفل بالموسيقى ، لا فى وزنه ، ولا فى قوافيه ، ولا فى ألفاظه . ولعل

أوزان الشعر تختلط عليه أحياناً فيلائم بينها ملاءمة لا تستقيم . فقصيدة « الطين » التي كنا نثنى منذ حين على معانيها وحسن تصويرها للمساواة ، من أردأ الشعر العربى قافية وأنباه عن السمع والذوق ، ولعل عنوانها كان يحتاج إلى شيء من الذوق . ولكن انظر إلى مطلع القصيدة :

نسى الطين ساعة أنه طيـ ... نٌ حقير فصال تيهاً وعربد

فهو كما ترى قد اختار الدال الساكنة قافية لهذه القصيدة ، وسكون الدال ثقيل ينقطع عنده النفس ، فإذا طال وتكرر فى قصيدة غير قصيرة ضاق به السامع ضيقاً شديداً . ولكن الشاعر يضيف إلى هذا الثقل الطبيعى أثقالا أخرى . فانظر إليه كيف يضيف سكوناً إلى سكون وانقطاع نفس إلى انقطاع نفس ، فى هذا البيت :

لك فى عالم النهار أمانٍ ... ورؤًى والظلام فوقك ممتد

فهذه الدال المدغمة لا تطاق ؛ وأنت إن قبلتها على إدغامها كلفت نفسك جهداً ثقيلا ، وأنت إن خففت الإدغام أفسدت اللغة إفساداً بغيضاً . وانظر إلى هذا البيت أيضاً :

أنت مثلى من الثرى وإليه ... فلماذا يا صاحبى التيه والصد

فالصد هنا « كممتد » هناك ، ولكن قصر الكلمة هنا يزيدها ثقلا إلى ثقلها . وانظر إلى هذا البيت :

وأرى للنمال ملكاً كبيراً ... قد بنته بالكدح فيه وبالكد

ألست ترى أن قافية هذا البيت توشك أن تكون رطانة أعجمية ! أحب أن يتدبر الشبان من الشعراء هذا المعنى ! فالدال من الحروف التى تكسب القافية متانة ورصانة وجمالا إذا تحركت بإحدى الحركات الثلاث ، فإذا سكنت منحت القافية ثقلا ثقيلا لا يقبله السمع ولا يطمئن إليه الذوق . فانظر إلى قصيدة الحطيئة مطلعها :

* ألا طرقتنا بعد ما هجعوا هند *

واقرأ القصيدة إلى آخرها فسترى أن قافيتها من أمتن القوافى وأرصنها . ومثل ذلك يقال فى مطولة طرفة * لخولة أطلالٌ ببرقة ثهمد *

وفى مرثية دريد بن الصمة لأخيه :

* أرثّ جديد الحبل من أم معبد *

وفى قصيدة البحترى التى يمدح فيها المتوكل :

* لجّ هذا الحبيب فى الهجر جداّ *

ومن المظاهر المؤلمة لضعف الذوق الموسيقى عند الشاعر قصيدته « الأشباح الثلاثة » فهى من جيد الشعر إذا نظرت إلى معناها وأغراضها وفلسفتها . أراد الشاعر أن يصور فيها أطوار الحياة من الطفولة والشباب والشيخوخة ، فتراءى لنفسه طفلا وشاباً وشيخاً ، وتحدث إلى نفسه فى هذه الأطوار حديثاً كله حكمة وعظة ، ولكنه اختار لها وزناً قلما يقصد إليه الشعراء وهو البحر المتدارك . فاقرأ معى هذه الأبيات ، فستلاحظ ما فيها من الضعف الموسيقى الذى يدعو إلى الضحك حين يجب الاعتبار ، وستلاحظ فى الوقت نفسه شيئاً من فساد النحو عند الشاعر يغنينا عن أن نضرب لك الأمثال مما فى الديوان من خطأ لا يحتمل من شاعر مجيد :

ما بالك منكمشاً كمدا	قم نلعب فى فىء الشجر
ونهز الأغصن والعمدا	ونذود الطير عن الثمر
أو نصنع خيلا من قصب	أو طيارات من ورق
ومدى وسيوفاً من خشب	ونجول ونركض فى الطرق

فكل هذه الأفعال قد وقعت فى جواب الأمر ، ومن حقها أن تجزم . ولكن الشاعر لا يحفل بهذا الحق ، وليته أعرض عنه إعراضاً تاماً فرفعها كلها والتمس لنفسه علة عند أصحاب العلل من النحويين ، ولكنه جزم حين استقام الوزن على الجزم ، ورفع حين استقام الوزن على الرفع ، فأخضع النحو للعروض ، أو قل لم يحفل بالنحو ولا بالعروض . . . !

فإذا أردت العبث الذى لا حد له بالموسيقى الشعرية فاقرأ قصيدة « المجنون » فسترى أنها جنون كلها . أراد الشاعر أن يتخذ لها الرجز وزناً ، وأن يلعب فى قوافيها بعض اللعب ، وأن يفرق بين كل جماعة من أبيات الرجز ببيتين من الهزج . وظاهر بعد ما بين هذين البحرين طولا وقصراً وهدوءاً واضطراباً . ولكن الشاعر قد يكون عمد إلى ذلك عمداً ليحكى جنون المجانين ! على أنك لا تستطيع أن تمضى فى القصيدة حتى ترى الشاعر قد اختلط عليه الأمر بين الهزج ومجزوء الكامل ، فأحدث هذا فى القصيدة اضطراباً لا حد له . ومصدر هذا كله أن الشاعر لا يحسن علم الألفاظ والأوزان ، ولا يريد أن يحفل بالألفاظ والأوزان ، وهو يريد مع ذلك أن يقول الشعر . ولست أدرى كيف يستقيم هذا للعقل ؟ ولكنى حائر حقاً فى أمر هذا النحو من الشعر وهذا الفريق من الشعراء . قوم منحوا طبيعة خصبة ، وملكات

قوية ، وخيالا بعيد الآماد ، وهم مهيئون ليكونوا شعراء مجوِّدين ، ولكنهم لم يستكملوا أدوات الشعر ، فجهلوا اللغة أو تجاهلوها ، ثم اتخذوا هذا الجهل مذهباً . فأصبحنا من أمرهم فى شك مريب ، لا نستبيح لأنفسنا أن نغرى الناس بقراءتهم لأنا إن فعلنا أغريناهم بالخطأ ورغّبناهم فيه ودفعناهم إلى ما هم مدفوعون إليه بطبعهم من الكسل والقصور والتقصير .

على أن هذا النحو من الضعف لم يكن شائعاً مألوفاً فى مصر ، بل لم يكن شائعاً مألوفاً فى بلاد الشرق العربى ، ولكنه أقبل علينا من مهاجر السوريين فى أمريكا ، فتأثر به الشباب بعض الشىء فى غير مصر ، ثم أخذوا يتأثرون به فى مصر نفسها . وما الذى يمنعهم أن يتأثروا به وهو مريح لا يكلف تعباً ولا عناء ؛ وهو فى الوقت نفسه يخيل إلى الشبان أنهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون فى الأوزان والقوافى ويخرجون على التقاليد فيعنون بالمعانى دون الألفاظ !

ما أشد حاجة الأدب العربى إلى جماعة من النقاد أشداء فى الحق حراص على سلامة هذه اللغة وحمايتها من الفساد الأجنبى ! وما أثقل الحق الذى يجب أن ينهض به هؤلاء النقاد إن وجدوا ! وما أشد ما يمضّنى من الحزن حين أرى هذا الفساد الأجنبى يسعى فى أدبنا المصرى الحديث الذى كان إلى أعوام قليلة بمأمن من هذا الفساد !

ملاحظات

وحياتنا الأدبية فى هذه الأيام هى موضوع هذه الملاحظات . فقد يكون من الخير أن يقف النقاد عند هذا الأثر الأدبى أو ذاك ، لنقده وتحليله ، وبيان ما فيه من إجادة وإتقان ، أو من ضعف وتخاذل وإسفاف . ولكن من الخير أيضاً أن يقف النقاد عند الحياة الأدبية العامة من حين إلى حين ، يبينون ما فيها من هذه المظاهر المشتركة التى تدل على الضعف أو على الفساد أو على سوء الاتجاه ، لعل وقوفهم عندها وتبينهم إياها ، أن ينبه الأدباء إلى ما فيها من شر ، ويحملهم على الجد فى تجنبها والتخلص من أوزارها الثقال . وربما كانت هذه الأيام موافقة لمثل هذا النحو من الملاحظات . فالناس يخرجون فيها من الصيف الذى يدعو عادة إلى الراحة والهدوء ، ويسعون فيها إلى الخريف والشتاء اللذين يدعوان عادة إلى العمل والنشاط والجد والإنتاج .

فإذا أظهر النقاد قراءهم على مواطن الضعف فى الحياة الأدبية قبل أن يقدموا على الإنتاج أو على التحصيل أو قبل أن يستأنفوا نشاطهم الأدبى الجديد ، فقد يكون فى هذا خير لهم ولهذه الحياة الأدبية نفسها . وقد لاحظت فى الأحاديث الأخيرة الماضية أن الثقافة فى مصر ضعيفة أشد الضعف ، فاترة أشد الفتور ، وأن هذا الضعف نفسه يحول بين الأدباء وبين الإنتاج القيم والجد الأدبى الخصب .

ولكن الثقافة شيء مشترك بين المنتجين والمستهلكين فى الأدب ، كما يقول أصحاب الاقتصاد . فالأديب لا يستطيع أن ينتج إنتاجاً حسناً إلا إذا كان مستكملا أدوات هذا الإنتاج ، والثقافة الواسعة العميقة المنوعة هى أهم هذه الأدوات . والمستهلك لا يستطيع أن يقرأ ، ولا أن يفهم ولا أن يذوق ، إلا إذا كان على حظ من ثقافة تؤهله للقراءة والفهم والذوق .

ومن المحقق أن ثقافة القراء فى مصر ضعيفة ضيقة ، بعيدة كل البعد عن أن تكون عميقة أو منوعة ، وأن الأدباء يلقون من ذلك شرًّا عظيما ، فهم يعلمون أن قراءهم قليلون ، وأن ثقافة هؤلاء القراء أضعف وأضيق من أن تعينهم على قراءة الآثار الأدبية الراقية حقًّا . وهم من أجل ذلك يعرضون عن الإنتاج حيناً ويقبلون عليه

أحياناً ، ولكن بعد أن ييسروه ويسرفوا فى تيسيره ليلائم ثقافة القراء ، وقد يهبطون به إلى أدنى درجات اليسر ليلائم عقول القراء الذين لا حظ لهم من ثقافة ، أو الذين لهم حظ من الثقافة قليل . ويختلف ذلك باختلاف طبيعة هؤلاء الأدباء ؛ فمن أكبر منهم الأدب وأبى أن يبتذله ابتغاء المال ، يسره تيسيراً معتدلا ليفهمه المستنيرون ، ومن اتخذ منهم الأدب وسيلة إلى الكسب وإلى الكسب الذى لا يحدّ إلا بالحدود الممكنة ، ابتذل أدبه ابتذالا ، وهبط به إلى حيث يسيغه أكبر عدد ممكن من الناس . كل هذا حق ، ولكن هناك حقًّا آخر من الإثم إهماله والإعراض عن ذكره ، وهو أن القراء ليسوا وحدهم مقصرين فى ذات الثقافة ، وليسوا وحدهم ضعاف الحظ من العلم بما ينبغى أن يتعلمه المتحضرون فى هذا العصر ، وإنما الأدباء المنتجون أنفسهم يشاركون القراء فى كثير من هذا الضعف وذلك التقصير . فكثير جدًّا من أدبائنا يكتفون بثقافة محدودة ، بل بثقافة ضيقة أشد الضيق ، تواتيهم طبيعة خلقت لتكون خصبة منتجة فيكتفون بما تعطيهم ، ويحسبون أن فطرة هذه الطبيعة وحدها فيها الغناء وأنها دليل على أنهم نابهون ، وأن غيرهم هو الذى يحتاج إلى أن يتعهد طبيعته تعهداً ، ويكتسب الأدب اكتساباً . فأما هم فقوم موهوبون ، كما يقال ، ليسوا فى حاجة إلى قراءة ، ولا إلى تعلم ، ولا إلى درس ، وإنما يكفى أن يصرفوا نفوسهم نحو معنى من المعانى ، أو غرض من الأغراض ، وأن يهيئوا أقلامهم لتسطير ما ستمليه عليهم هذه النفوس ثم إذاعته فى الناس . وما دام الناس يقرءون ما يذاع فيهم وما دامت ثقافتهم ضيقة تحول بينهم وبين المراقبة الدقيقة لما يذاع ، فالأدباء يستطيعون أن يكتبوا ، ويستطيعون أن يذيعوا فى غير تحرج ولا حساب .

هذا أزهرىٌّ قد تعلم أوليات النحو والفقه ، وأطرافاً من هذه العلوم التى تلقى فى الأزهر ، ثم قرأ الصحف والمجلات ، فخيل له أنه يستطيع أن يحاكى ما فيها من النثر أو يقلد ما فيها من النظم ، ثم جرّب نفسه فانتهى إلى شىء من النثر والنظم ، ثم قرأ ما انتهى إليه على جماعة مثله ليسوا أكثر منه ثقافة ، فأعجبوا به ورضوا عنه ، ثم أرسله إلى صحيفة أدبية أو سياسية فنشرته لتملأ به فراغاً أو لأنها لا ترى به بأساً ، ونظر صاحبنا فإذا له كلام منشور مطبوع يباع فى السوق ، فلم يشك فى أنه أديب ، وفى أنه قادر على الإنتاج ، وفى أن نفسه خصبة ، فمن الإثم أن يهملها ، ثم يندفع فى الإنتاج ، وينصرف عن التحصيل . وما دامت طبيعته تواتيه والناس يسمعون له والصحف تذيع ما ينتج ، فمن الحمق أن يكلف نفسه جهد القراءة والتعليم والدرس .

وهذا قد خرج من المدرسة الثانوية أو لم يكد يخرج منها أو ارتقى إلى فصل من فصول الجامعة وهو شاب يقرأ ما يذاع في الصحف . وأى شاب لا يتأثر بما يقرأ ؛ وأى شاب لا تخطر له الخواطر الحادة الحاضرة ! وأى شاب لا يحاول تسجيل ما يخطر له من الخواطر فى كلام منظوم أو منثور ! لكن صاحبنا لم يكد يحاول هذا التسجيل حتى أحس من طبيعته مواتاة لينة هينة ، فإذا هو يرضى ، ثم يشتد رضاه ، ثم لا يكاد يجد تشجيعاً من أترابه أو من صحيفة من الصحف حتى ينتهى الرضا إلى الغرور ، وإذا هو كاتب أو شاعر ، يغرق الصحف والمجلات بآثاره المنظومة أو المنثورة ، ثم لا يلبث أن يجمع هذا فى كتاب ، وإذا هو مؤلف أيضاً . والناس يقرءون لأن حظهم من الثقافة لا يمكنهم من التفريق بين ما يستحق القراءة وما لا يستحق . وعلى هذا النحو يكثر عدد الأدباء ، وتكثر أسماؤهم فى الصحف ، وتضاف إلى هذه الأسماء ألقاب ، فهذا أستاذ ، وهذا أديب كبير ، وهذا شاعر نابه ، وهذا كاتب فذ . والكاتب نفسه أو الشاعر هو أسبق الناس إلى تصديق هذا كله ، والانخداع بهذا كله ، فكيف بغيره من القراء الذين لا يعرفونه ولا يرونه ، وإنما يسمعون أنه أستاذ ، وأنه نابغ ، وأنه نابه ، وأنه ما شئت من الصفات والألقاب ! فإذا أخذت ما يكتب أو ما ينظم ، وحققت النظر فيه انتهيت إلى سخف لا حد له ، وإلى كلام فارغ ما كان ينبغى أن يقدم إلى المطبعة ولا أن يذاع بين الناس .

وشر من هذا كله أن جماعة من الأدباء أو من الذين يرون أنهم أدباء ، قد تأثروا فيما يظهر بالحياة السياسية ، وظنوا أن أمور الأدب تستقيم على ما تستقيم عليه أمور السياسة فى البلاد الديمقراطية أو التى تريد أن تحيا حياة ديمقراطية . رأوا أصحاب السياسة يسعون فى نشر آرائهم ومذاهبهم ، ويستكثرون من الأتباع والأنصار . ثم رأوا شيئاً قد نشر فى مصر السياسية يسمى زعامة ، ورأوا جماعة من الساسة يوصفون بأنهم زعماء ، فما الذى يمنع الأديب من أن يستكثر هو أيضاً من الأتباع والأنصار وأن يكون زعيما من زعماء الأدب ، أو من أن يكون زعيم الأدب وحده لا يشاركه فى هذه الزعامة أحد ولا ينازعه فيها منازع ! ! والاستكثار من الأتباع والأنصار فى الأدب معقول إذا اعتمد الأديب على آثاره الأدبية ، وعلى حب الناس لها وإعجابهم بها ، وإكبارهم لمنتجها . ولكن أصحابنا الزعماء لا يسلكون هذه الطريق ! لأن ما ينتجون من الآثار ليس من شأنه أن يثير حباً أو إعجاباً أو إكباراً . وإذاً فما لهم لا يلجئون إلى ما يلجأ إليه بعض الساسة من نشر الدعوة ، ومن الاستعانة بالمال

أحياناً ! أذعْ في الصحف ما وسعتك الإذاعة أنك أديب وأديب كبير ، وأنك زعيم وزعيم خطير ، ثم اجمع حولك طائفة من الناس يشق عليهم العيش فيسره لهم ، أو يشق عليهم الترف فأعنهم عليه ، واقرأ عليهم بعض ما تنتج من النثر أو من النظم ، فلا أقل من أن يؤدوا إليك ثمن ما تيسر لهم من العيش أو ما تعينهم عليه من الترف ، ومن أن يكون هذا الثمن إعجاباً وإكباراً ، ثم تنقلا بهذا الإعجاب والإكبار في المجالس والأندية ، ثم وصولا بهذا الإعجاب والإكبار إلى الصحف والمجلات ، وإذا أنت زعيم لك أتباع وأنصار ، ولك شيعة تستطيع أن تباهي بها الزعماء . ولكن هؤلاء الأتباع والأنصار لا يلبثون أن يتأثروك ويحاولوا محاكاتك وتقليدك ، ويهيئوا أنفسهم لخلافتك أو النيابة عنك . وإذاً فهم مدفوعون إلى أن يحاولوا من الأدب مثل ما حاولت ، وإلى أن ينتجوا نظماً ونثراً مثل ما أنتجت . وقد كنت لهم سيداً وزعيما ، فكن لهم منذ اليوم ، ومع هذا كله ، مرشداً أو أستاذاً ، وصدِّع نفسك يا سيدى كما صدعتهم ، فاسمع لهم ما سمعوا لك ، وأثن عليهم كما أثنوا عليك ، وأذع لهم بين الأندية والمجالس كما فعلوا ، ثم ارْق بهذه الدعوة إلى الصحف والمجلات كما فعلوا أيضاً ، فإنك إن لم تفعل خليق أن تنظر إليهم فلا تراهم ، لأن من الزعماء الأدباء من هو أسخى منك يداً ولساناً وقلماً أيضاً. وإذاً فاحذر أن يغلبك هذا الزعيم على أنصارك وأتباعك وشيعتك .

وعلى هذا النحو يستبق الزعماء والأدباء ويتنافسون ويصطنعون المودة في نفوس الشبان يغرونهم بكل أنواع الإغراء الممكنة . ثم ننظر فإذا في مصر جيش ضخم من الأدباء ، قد تألفوا جماعات ، وكونوا لأنفسهم مدارس على رأسها زعماء ، هم من قادة الفكر ، والمبدعين في الفن والمنشئين للحياة الأدبية الجديدة . ولا بأس بأن يغلو الزعماء الأدباء في إرضاء الشبان من الأتباع والشيعة ، ومن أن يخيلوا إليهم أنهم يستطيعون أن يثقوا بطبائعهم الخصبة ومواهبهم النادرة ، وأن في المدارس إفساداً لهذه الطبائع وإضاعة لهذه المواهب ، وأن في الدرس المنظم تقييداً لحرية الفن . وويل للذين يقيدون حرية الفن ! فالفن لا ينبغي أن يتقيد بكتاب ، إلا كتب الزعيم ، ولا بأستاذ إلا الزعيم نفسه ، ولا بمدرسة إلا بيت الزعيم أو قهوته أو ناديه .

وكذلك يُصْرَف جماعة من الشبان عن العلم ، ويغرون بالبطالة ، ويدفعون إلى الإنتاج الفج ، وإلى الغرور بهذا الإنتاج . وكذلك يكون لمصر جيل خطر من الأدباء ، وويل للأدب يوم تنتهي أموره إلى هذا الجيل !

وفى الأمر ما هو أدعى إلى العجب والإعجاب من هذا كله . فما دامت هناك جماعات أدبية ومدارس فنية ، وما دام هناك زعماء لهم أتباع وأنصار وشيعة ، فما الذى يمنع أصحاب السياسة من أن ينتفعوا بهذا كله ، ولا سيما حين تعجزهم الظروف وتنأى بهم مذاهبهم السياسية وسيرتهم فى الحكم عن أن يصلوا إلى قلوب الشعب وعن أن يتخذوا لهم من أبناء الشعب أتباعاً وأنصاراً ، وشيعة مخلصين ، ولا سيما حين تعجزهم الظروف ، وتنأى بهم مذاهبهم وسيرتهم السياسية عن أن يستميلوا الكتّاب والشعراء الذين يستحقون هذا الاسم . أفتريد من أصحاب السياسة ألا يكون لهم أنصار من أصحاب الأدب ؟ وكيف يستقيم هذا ! وما غناء حزب سياسى ليس له كاتب ولا شاعر ولا أديب ؛ وإذاً فقد يستطيع هذا الزعيم السياسى أو ذاك أن يدنو من هذا الزعيم الأدبى أو ذاك . ووسائل الدنو كثيرة ، وأسبابها موفورة ، حين يكون الزعماء السياسيون مسيطرين على الحكم ، مستمتعين بما يبيحه الحكم لأصحابه من ثروة وجاه وسلطان. وكذلك تُعْقَدُ محالفات بين الأدب وبين السياسة ، أو قل بين هذا الأدب المصنوع وهذه السياسة المصنوعة أيضاً . وقوام هذه المحالفات نشر الدعوة وتبادل المعونة . ونتيجة هذه المحالفات إفساد الخلق أولا ، وإفساد الثقة ثانياً ، والإساءة إلى السمعة الأدبية لمصر ثالثاً ، وحمل الأمم العربية التى كانت تكبر مصر على أن تزدريها وتزهد فيها ، وتسخر من هذا اللغط الكثير الذى يمتلىء به جوها الموبوء.

ثم لا تنس أن تلاحظ هذه الظاهرة الغريبة فى هذا الجو الغريب . فما دام هناك تحالف بين سياسة متكلفة وأدب متكلف ، وما دام هناك توازن بين زعماء تلك السياسة وزعماء هذا الأدب ، فليس غريباً أن يقف الأدب من السياسة موقف الاستعطاف والاستجداء ، إذا أبطأت السياسة بالمعونة أو تلكأت فى البذل ، أو بخلت بالتأييد . والواقع أن شغل السياسة كثير ، وأنه قد يصرفها أحياناً عن الأدب والتفكير فيه ، وقد يلهيها أحياناً عن هذه الجهود التى يبذلها الأدب سرًّا أو جهراً لمعونتها وتأييدها .

وإذاً فليس على الأدب بأس من أن يذكر السياسة بمكانه ، فيسعى إلى هذا الرئيس من رؤساء الوزارة ، أو يزور هذا الوزير من الوزراء ، ثم يلقى بين يديه ألواناً من الشعر والنثر ، ويقدم إليه طاقات من المدح والثناء ، ويعرض هذه الجهود القيمة التى تبذل لتجديد الأدب وإحياء الفن ، ونشر الثقافة ورفع مكانة مصر بين الشعوب المتحضرة ، وأن هذا كله يحتاج إلى مال ، وأن هذا المال يستطيع الأدباء أن

ينفقوه ولكن بشرط أن يجدوه ، فإذا لم يجدوه فلا أقل من أن تعينهم به الحكومة كما تعين غيرهم من الناس . والحكومة لا تبخل بهذه المعونة ، فهى تعين بالمال حيناً وتعين بالوعد أحياناً . وإذا كان المال يعين على إرضاء الحاجات ، فإن الوعد يفتح أبواب الأمل ، ويعين على احتمال الحياة وأثقال الهموم . وكذلك يعود تكسب الأدباء بالأدب فى هذا العصر الحديث بعد أن كنا نظن أن التكسب بالأدب من غير الوجه الطبيعى قد ذهب وانقضت أيامه . فالأديب خليق أن ينشئ كتاباً أو ينظم ديواناً ، وأن يعرض ديوانه أو كتابه على الناس ليشتروه أو يهجروه . والأديب خليق أن يلتمس من العمل ما يلتمسه الناس ، يعيش من عمله ويعيش من ثمن كتبه ودواوينه . ولكن الشيء الذى كان الأدباء يألفونه قديماً وكنا نحن نضيق به ونحرص على أن يخلصوا منه ، هو أن يلتمس الأدباء حياتهم بالسؤال والاستجداء ، يلجئون إلى هذا الوزير أو إلى هذا الكبير ليعينهم على الحياة لأنهم أدباء ، كأنما الأدب أداة من أدوات العجز ، ووسيلة من وسائل القصور . أو هم يبيعون الثناء بالمال فيمدحون ، ويمنحون ، أو هم يبيعون سكوتهم عن الذم بالمال ، فيذمون إلا أن يشترى صمتهم بالدراهم والدنانير ، أو بالبضائع والعروض . كل هذا كان ، وكل هذا كنا نحرص على ألا يكون . ويخيل إلى أنا كنا قد بلغنا مما نريد شيئاً لا بأس به ، ولكن المحنة السياسية من ناحية والمحنة الثقافية من ناحية أخرى . وهجوم الأدعياء ، والقاصرين على الأدب من ناحية ثالثة ، كل ذلك جعل الكسب الأدبى شيئاً يسيراً مألوفاً فى هذه الأيام . ويقال مع هذا إن الأدب يرقى ، وإن الحياة الأدبية تسرع فى سبيل التجديد ، وإن الحياة الفنية تتكشف للناس عما يصلح العقل والقلب ، ويصفى الطبع والمزاج . كلا ! إن حياتنا الأدبية فى هذه الأيام موبوءة حقًّا ، وإن الوباء الذى يفسد طبيعتها ويوشك أن يجعلها شرًّا خالصاً ، إنما يأتيها من ضعف الثقافة وضيقها وقلة حظها من الغزارة والعمق ، ومن إقدام الجاهلين والمغرورين على ما لا ينبغى أن يوغل فيه جاهل أو مغرور .

النقد وأصول الحكم

ما يزال صديقى الأستاذ عوض حريصاً على أن ينظِّم النقد تنظيما ، ويقيده تقييداً ، ويجعل له صورة واضحة الشكل مرسومة الحدود . فالذين قرءوا فصله القيم الذى كتبه فى هذا العدد من « الوادى » يرون أنه أخضع النقد لأصول الحكم ، وصور الحكومات ، فجعل نفسه ديمقراطياً ، وجعل الطناحى أرستقراطياً ، وجعلنى أنا من أصحاب الفوضى فى الأدب . وأنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب ؛ لأنى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو ، ولا أستطيع أن أنتظر منه خيراً ، ولا أن أرجو له خصباً ، إلا إذا اعتمد على الحرية المطلقة التى لا تعرف حداً ولا قيداً ، ولا تخضع لنظام ولا قانون . ولكنى فى حاجة إلى أن أفهم الديمقراطية الأدبية على وجهها ، كما أنى فى حاجة إلى أن أفهم الأرستقراطية الأدبية على وجهها أيضاً . فقد يخيل إلى أن إطلاق مثل هذه الألفاظ على مثل هذا النحو يفسد معانيها إفساداً ، ويلقى فى عقول الناس صوراً مشوهة مختلطة من الأدب والنقد والديمقراطية والأرستقراطية جميعاً . وأكبر الظن أن هذه الألفاظ العامة المبهمة تلقى فى نفوس الناس فى هذه الصور المختلطة المشوهة هى التى تدعو الناس إلى الكسل وتغريهم بالتقصير ؛ لأنها تثير أمامهم مصاعب وعقبات ، لا يقدرون على تذليلها ولا يبلغون ما وراءها ، فيكتفون بالنظر إليها ، ويحفظونها كما هى ، ثم يجرون بها أقلامهم ويطلقون بها ألسنتهم ويرسلونها فى الأندية والمجالس إرسالا . فإذا سألتهم عما وراءها لم تجد طائلا ولا غناء . ولو أن الكتاب والنقاد والأدباء عامة حرصوا على تحديد الألفاظ والتدقيق فى اختيارها ، والكشف الجلى الواضح عن معانيها لأراحوا القراء من عناء كثير وهم ثقيل . وما أظن أن الأدباء الذين ينشئون النثر فى أى فن من فنون الأدب وفى النقد خاصة ، ينفعون أو ينتفعون حين يرسلون الألفاظ إرسالا فى غير تحديد ولا تحقيق ، إنما يقبل هذا من الشعراء ومن بعض الكتّاب الذين يذهبون مذاهب الشعراء ؛ لأن هذا النحو من إطلاق الألفاظ العامة المبهمة ، يثير نوعاً من

الجمال يلذ السمع والقلب والشعور ، فيه لذة لا يحفل بها العقل ، ولا يقف عندها ، فضلا عن أن يسعى إليها .

فلندع إذاً للشعراء وأمثال الشعراء هذه الألفاظ العامة المبهمة ، ولنذهب مذهب الدقة والتحقيق حين نكتب فى النقد وما يتصل به من فنون القول . وإذاً فكيف تكون الأرستقراطية أو الديمقراطية فى الأدب ؟ وأين تكون الأرستقراطية والديمقراطية فى الأدب؟ أتكون عند الأدباء الذين ينتجون ؟ أم تكون عند القراء الذين يستهلكون ؟ أم تكون عند الناشرين الذين يسعون ويتوسطون بين أولئك وهؤلاء ؟

فأما الأدباء الذين ينتجون فلست أعرف كيف ينظمون أنفسهم أو كيف ينظمهم غيرهم على نحو من هذه النظم المعروفة فى السياسة . ذلك أن الأديب بطبعه حر ، حرّ حتى بإزاء إرادته الخاصة ؛ فهو لا يستطيع أن ينتج متى شاء ، وهو لا يستطيع أن ينتج كيف شاء ، وهو لا يستطيع أن ينتج ما يشاء ، وإنما هو رجل قوى الذهن ، واسع العقل ، خصب الخيال ، يحس ما حوله من الأشياء ويتأثر بها ، وإذا بعض ما يحس يملك عليه نفسه ويثير فيها آثاراً قوية تضطره إلى أن يكتب أو ينظم أو يصور ما أحس على كل حال . ولست أزعم أن إرادة الأديب ملغاة فى إنتاجه إلغاء تامًّا ، ولكنى أزعم أن تأثير الإرادة فى هذا الإنتاج ضئيل جدًّا لا يكاد يذكر ، وأن المقدار اللاشعورى فى إنتاج الأدب أعظم جدًّا من المقدار الشعورى . وقد يكون من السهل أو من الصعب أن تحلل حياة الأديب تحليلا ، وأن ترد آثاره إلى مصادرها الأولى من مزاج الأديب وطبيعته ومن البيئة التى أحاطت به والعصر الذى عاش فيه ، ولكن هذا التحليل نفسه إن أتيح للباحثين من مؤرخى الآداب ، فهو دليل واضح على أن الأديب ، إلى أن يكون مجبراً فى الأدب أقرب منه إلى أن يكون مختاراً . فالأديب إذاً حر بالقياس إلى الناس ، وهو حر بالقياس إلى نفسه أو إلى إرادته إن شئت التدقيق ، وهو حر إلى أبعد غايات الحرية . وهو من هذه الناحية متمرد لا يستطيع أن يخضع لنظام ولا أن يذعن لسلطان ، إلا سلطان هذا الشيطان الذى يلهمه ويوحى إليه ويدفعه إلى الإنتاج . قد يكون الأديب ديمقراطى المذهب ديمقراطى المزاج ، ديمقراطى البيئة ، ديمقراطى الوراثة ، فتصدر عنه آثار ديمقراطية أيضاً ، لأنها لا تستطيع إلا أن تكون ملاءمة لمصدرها . وقد يكون الأديب أرستقراطيًّا فى هذا كله ، فتصدر عنه آثار أرستقراطية . وإذا اتصلت حياة « الفاشزم » وأثرت فى الأجيال

كما اتصلت حياة الأرستقراطية والديمقراطية ، فلا بد من أن يوجد أدباء تصدر عنهم آثار تلائم هذا المذهب الجديد من مذاهب الحياة . وإذاً فكيف يستطيع كاتب من الكتاب أو ناقد من النقاد أو صاحب سلطان مهما يكن أن يجعل النقد أو الأدب ديمقراطياً أو أرستقراطياً أو فاشياً أو بلشفياً كله ! ليس إلى ذلك سبيل ، وإنما السبيل إلى ذلك هي الفوضى . هي هذه الحرية المطلقة ، الحرية التي لا تعرف الطبيعة غيرها ، ولا ترضى الطبيعة سواها . الحرية التي تستمتع بها الشمس حين تضيء ، والنسيم حين يهب ، والزهرة حين تتأرج ، والريح حين تعصف ، والرعد حين يقصف ، والبرق حين يضطرب فى السماء . هذه الحرية هي سبيل الأدب ليس إلى تقييدها من سبيل . وإذاً فكيف يمكن أن ينظم النقد كله على أنه ديمقراطى أو على أنه أرستقراطى ، أو على أنه ما شئت من هذه المذاهب التى يلهج بها أصحاب السياسة ويكثرون فيها الجدال والحوار !

ليكن صديقى عوض إذاً ديمقراطياً فى أدبه ، وليكن الأستاذ الطناحى أرستقراطياً ؛ فقد يكون مزاجهما يلزمهما ذلك إلزاماً ، ولكن الشيء الذى لا أشك فيه أنهما لن يستطيعا أن يفرضا ديمقراطيتهما أو أرستقراطيتهما على الأدب والأدباء ، ولن يستطيعا أن يخرجا الأدب نفسه من أن يكون حراً طليقاً يعتمد على الفوضى أكثر مما يعتمد على النظام ، بل تصلحه الفوضى وتملؤه خصباً ونفعاً ، ويفسده النظام ويضطره إلى العقم والجمود .

والقراء كيف يمكن أن يكونوا ديمقراطيين أو أرستقراطيين فى الأدب والنقد ؟ أما أن كل قارئ يجب أن يستمتع بحريته المطلقة الخالصة التى لا حد لها فيما يقرأ أو قل فى اختيار ما يقرأ من الكتب والصحف والمجلات ، فهذا شيء لا شك فيه ، ولكن الحق المقرر شيء ، والحق الواقع شيء آخر . فالأصل أن حرية القارئ مطلقة ، والواقع أن حريته مقيدة محدودة بقيود كثيرة وحدود ضيقة ، أيسرها وأظهرها أنه لا يستطيع أن يقرأ إلا ما ينشر له ويصل إليه ، وهو بعد بعد ذلك حر فى أن يختار بين ما ينشر له ويصل إليه . ولكن حريته هذه نفسها محدودة أيضاً بحدود كثيرة شديدة الضيق ، أيسرها وأظهرها أنه إنسان يتأثر بما يتأثر به الناس . والإعلان من أشد الأشياء تأثيراً فى نفوس الناس مهما يكونوا ، وإذاً فالقارئ مقيد بالإعلان ، يكفى ألا يخرج من داره حتى يرى الإعلان عن كتاب ينشر أو قصة تمثل ، وألا ينظر فى صحيفة حتى يرى الإعلان عن كتاب

ينشر أو قصة تمثل ليرى أنه مدفوع دفعاً قويًّا إلى أن يقرأ هذا الكتاب أو يشهد هذه القصة . وكلما كان الإعلان ملحًّا كان اندفاع القارئ شديداً . فإذا كان الإعلان صادراً من قوم يحسنونه ويفتنون فيه كان اندفاع القارئ أشد ، فإذا كان الإعلان صادراً عن رجل له مكانة بين الناس أو للناس به ثقة وحسن ظن كان اندفاعه لا حد له . وإذاً فهذه الحرية المطلقة التى يقررها الحق للقارئ والتى نحلم بها جميعاً ليست فى حقيقة الأمر مطلقة ولا بريئة من كل قيد .

وكما أن القارئ مقيد فى اختيار ما يقرأ بهذه القيود ، فهو كذلك مقيد فى الحكم على ما يقرأ . فاملأ الصحف ولوحات الإعلانات بالثناء على كتاب من الكتب ، وألح فيه ما وسعك الإلحاح ، وأنفق فى ذلك ما استطعت إنفاقه من المال ، وثق بأن كثيراً من الناس سيسرعون إلى الكتاب وسيشترونه وسيقرءونه وسيرضى أكثرهم عنه ، وسيشفق الذين لا يرضون عن الكتاب من أن يعلنوا سخطهم مخافة أن يتهموا بالجهل أو بالغباء ، أو بالتحذق والغرور . فإذا استطعت أن تضيف إلى هذا الإعلان العنيف فصولا من كبار الكتاب الذين يحبهم القراء ويثقون بهم فأنت مطمئن إلى أن كتابك سيظفر بالفوز والتأييد إلى حين على أقل تقدير . وقد يظهر الرأى الصحيح فى هذا الكتاب بعد أن تهدأ عاصفة النقد والإعلان ولكن هذا لا يؤثر فيما نحن بسبيله من أن القارئ لا يستطيع أن يكون ديمقراطيًّا فى القراءة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وإنما هو خاضع أشد الخضوع لطغيان الإعلان . ولعمرى إنى لأوثر إذا لم يكن بد من خضوع القارئ أن يخضع لطغيان ناقد أديب مثقف ممتاز الثقافة لا يطلب الطغيان ولا يتكلفه ولا يلح فيه ، على أن يخضع لهذا الطغيان المرذول الذى يفرضه الإعلان وما ينفق عليه من مال فى غير صدق ولا نصح ولا إخلاص للقراء .

فديمقراطية القراء إذاً من هذه الناحية حلم من الأحلام ، كما أن أرستقراطيتهم وهم من الأوهام . وإذاً فأين تكون الديمقراطية والأرستقراطية فى الأدب ؟ ! أو أين يكون النظام الدقيق فى الأدب ما دام لا يمكن تحقيقه عند الأدباء ، وما دام لا يمكن تحقيقه عند القراء ؟ ! إنما يكون النظام الدقيق عند الناشرين الذين يتوسطون بين الأدباء والقراء . ولست أدرى ، بل ليس يعنينى أن يكون هذا النظام ديمقراطيًّا أو أرستقراطيًّا ، أو شيوعيًّا ؛ لأن الحق الواقع أنه نظام دقيق ، وأنه يقوم قبل كل شىء على رعاية مصلحة الناشر ورأس المال الذى يعتمد عليه ،

وعلى إهمال الأديب والقارئ التضحية بهما فى سبيل التنمية المسرفة الآثمة لرأس المال . ولكنا نبعد عن الموضوع الذى أردنا أن نكتب فيه إن أطلنا الوقوف عند الناشرين واستبدادهم بالمنتجين والمستهلكين جميعاً ، فلندعهم وما هم فيه من سلب ونهب ومن تضحية بالأديب المنتج وعبث بالقارئ المستهلك . ولنرجع إلى النقد والأدب ، ولنسأل كيف يمكن أن يخضعا خضوعاً عامًّا شاملا لنظام من نظم الحكم أو لصورة من صور الحكومات ؟ كيف يمكن أن يكونا ديمقراطيين أو أرستقراطيين ؟ أو بعبارة أدق كيف يمكن أن يحكّم فيهما الفن أو أن يحكم فيهما القراء ؟ ما زلت أنتظر أن ينبئنى أصحاب الفن عن حكم الفن هذا كيف يكون ، بل عن الفن نفسه كيف يقرأ وكيف يلاحظ ، وكيف يقضى . وما زلت أنتظر أن ينبئنى أصحاب الجمهور كيف يمكن حكم الجمهور فى الأدب ؟ من هو هذا الجمهور ؟ وكيف يصدر عنه حكم متفق مع أنه هو مختلف أشد الاختلاف فى الطبقة والبيئة والثقافة ؟

صدّقونى أيها الزملاء أن من الإسراف أن تفرضوا النظام على كل شىء . فدعوا الأدب حرًّا طليقاً ، كما أراد الله له أن يكون . ليكتب من شاء ما يشاء . ولينتقد من شاء ما يشاء كما يشاء ، فلا حياة للأدب إلا بهذا . ولندع للطبيعة نفسها الذهاب بما لا خير فيه واستبقاء ما ينفع الناس ؛ فقد تكون الطبيعة أقدر من الفن وأقدر من النقاد وأقدر من الجمهور على هذه التصفية . وأنا أعلم أنك ستسألنى عن الطبيعة ما هى ؟ فأجيبك بأنها هى مجموعة من المؤثرات الظاهرة والخفية التى نعرفها والتى لا نعرفها ، والتى تعمل سواء أردنا أم لم نرد على تحقيق ما قال الله عز وجل : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

فى الضمير الأدبى

جذوة مضطرمة يختلف عليها الليل والنهار ، وتتعاقب عليها الفصول ، وتثور من حولها العواصف ، وتتباين من حولها الظروف ، وهى متوقدة متوهجة ، لا يعرف الخمود ولا الضعف إليها سبيلا ، هذه الجذوة الخالدة القوية التى لا يخمدها إلا الموت ، إن كان الموت يستطيع أن يخمدها — وأكبر الظن أنه لا يستطيع ذلك ، لأن الموت لا يفنى شيئاً ، وأن هذه الجذوة ، تنتقل من حيز إلى حيز ومن مكان إلى مكان — هذه الجذوة الخالدة التى تستعصى على الفناء هى عندى الصورة الصادقة لضمير الأديب الذى يستحق هذا الاسم . هى قوية لا تعرف الضعف مهما تكن الظروف التى تكتنفها ، والخطوب التى تلم بها ، والهموم التى تصب عليها صباً . خذ أديباً خليقاً بهذا الاسم وادرس حياته الأدبية وحياته المادية والظروف التى أحاطت بهذه وتلك ، فسترى أن جذوته هذه قد ثبتت للخطوب جميعاً ، واستعصت على الأحداث جميعاً ، واستغلت الظروف جميعاً فى سبيل بقائها وتوقدها وصفائها وإنتاجها المتصل . تلين الحياة لهذا الأديب ، وتواتيه الظروف ويتاح له خفض العيش ، وتبسم له الأيام ، فإذا هو ناعم راض مبتهج قوى الأمل ، ولكن شيئاً من هذا كله لا يبطره ولا يطغيه ، ولا يصرفه عن الأدب ولا عن الإنتاج فيه ، إنما هو الأديب دائماً ، المختلف دائماً إلى معبد « أبولون » المستخرج دائماً من هذا المعبد خير ما فيه من آيات الأدب والحكمة والفن . لا ينخدع بزخرف الحياة ، ولا يطمئن إلى لين العيش ، ولا يكتفى بما أتيح له من نعيم ، وإنما يتخذ هذا كله وسيلة إلى إذكاء جذوته وتصفيتها وتنقيتها وتمكينها من أن تنتج ، ومن أن تمس أكبر عدد ممكن من الناس ، ومن أن تتعمق أكبر عدد ممكن من مشكلات الحياة . وقد تقسو الحياة عليه وتتنكر له ، وتنصب الظروف له أشنع الحرب ، وتُعرض الآمال عنه إعراضاً ، وتنسج الدنيا له من الكيد والمكر والعدوان شباكاً تأخذه من كل مكان فلا يتقدم إلا رأى شراً ولا يتأخر إلا رأى شراً ، ولا يسكن إلا أحس هماً ، ولا يتحرك إلا أحس هماً ، وهو مع ذلك أديب لا يصرفه الشر

المتصل والنكر الذى لا ينقطع ولا الخطوب المتلاحقة ولا الهموم الثقال عن أدبه ولا عن جذوته هذه ، إنما هو دائم العكوف عليها مستمر التذكية لها ، يستغل قسوة الحياة لذلك كما يستغل لينها ، ويستفيد من البؤس كما استفاد من النعيم ، وينتفع بالشقاء كما انتفع بالسعادة ، ويبلغ بجذوته هذه أن تمس أكبر عدد ممكن من الناس ، وأن تتعمق أكبر عدد ممكن من مسائل الحياة ، وأن تثير أكبر عدد ممكن من هذه العواطف الخفية التى ينطوى عليها قلب الإنسان الأديب الخليق بهذا الاسم . حركة دائمة وحياة متصلة وإنتاج لا ينقطع ، ينتج حين تمسه السرّاء ، وينتج حين تمسه الضراء ، ينتج حين يكون قويًّا فى ظاهر الحياة ، وينتج حين يكون ضعيفاً فى ظاهر الحياة ، لأنه قوى دائماً . ينتج وهو حى وينتج بعد أن يموت ، لأن جسمه هو الذى يموت ، ولأن ملكاته المتصلة هى التى تموت ، فأما حياة ضميره الأدبى ، فأما جذوته المتقدة ، فأما حياة عقله وقلبه ونفسه ، فهى باقية أبداً . لا يموت حتى يسلم اللواء إلى من يحمله ، وحتى يلقى فى الآفاق من آرائه ومعانيه وخواطره ومذاهبه ما يؤتى أثماراً تتبعها أثمار ، ويحيى نفوساً تنتقل منها الحياة إلى نفوس . وهو كذلك حى دائماً ما عاش الناس ، باق دائماً ما بقى فى الأرض قلب يشعر وعقل يفكر ، وإنسان قادر على الفهم والذوق والإنتاج .

خذ من شئت من الأدباء الذين يستحقون هذا الاسم على اختلاف آجالهم وبيئاتهم وأزمانهم ، وادرس حياتهم قبل أن يموتوا ، وادرس حياتهم بعد أن ماتوا ، فهم أحياء بعد الموت . وحدثنى أترى فى هذه الحياة ضعفاً ، أم ترى فى هذه الحياة فتوراً ، أم ترى فيها ذبولا واستعداداً للفناء ؟ كلا ! إنما هى القوة المتصلة ، والخصب المتصل ، والإنتاج الذى ليس إلى انقطاعه سبيل . كم مضى على هوميروس ، أو على الهوميريين من قرون ، وكم اختلفت على آثارهم الظروف والأمم والأجيال ، وهذه الآثار مع ذلك باقية تقرأ وتحيى النفوس ، وتثير العواطف وتدعو إلى الإنتاج القيم ، الذى يختلف فى صوره وأشكاله وفى أغراضه وآياته وفى موضوعاته أيضاً ، ولكنه ينتهى دائماً إلى أصل واحد ، هو هذه الجذوة القوية المضطرمة التى لم تخمد بعد ، والتى أنتجت الإلياذة والأوديسا أو ما يتصل بهما من القصص والأساطير . وخذ من شئت غير الهوميريين من أدباء الرومان أو من أدباء العرب أو من أدباء الفرنجة فى العصور الوسطى وفى هذا العصر الحديث ، فستراهم أحياء ، وسترى

أن حياتهم أقوى وأنفع ألف مرة ومرة من حياة أمثالك وأمثالى من الذين يضطربون فى الأرض ، ويتحدثون إلى الناس ويجادلون فيما يثور من المشكلات. فليس من شك فى أن انتفاع الناس الآن بآثار هوميروس وأمثاله ، وتحدثهم عن هذه الآثار ، واستغلالهم لها ، واستعانتهم بها على إنشاء النثر ونظم الشعر ، أكثر ألف مرة ومرة من انتفاعهم بما ينتج الأدباء الأحياء، مهما يكن شأنهم مرتفعاً، ومهما يكن صوتهم بعيداً ، ومهما يكن استعدادهم للخلود قوياً . فالجذوة الأدبية إذاً تمتاز بقدرتها على البقاء ، وبأن طول العهد بها لا يزيدها إلا قوة،وبأن اختلاف الأحداث عليها لا يزيدها إلا اضطراماً وانتشاراً .

إذاً فليس أديباً حقاً من يزعم أنه قادر على أن يفارق الأدب ، ويخمد جذوته فى نفسه ، أو هو أديب ولكنه لا يعرف نفسه ولا يقدر طاقته ، ولا يفرق بين ما يستطيع وما لا يستطيع . وإذا رأيت رجلا يتحدث الناس عنه أنه أديب ، ويتحدث هو عن نفسه أنه أديب ، ثم يتخلف فجأة عن حياة الأدباء وعن الإنتاج الأدبى ، وينصرف إلى أشياء ليست من الأدب فى شىء ، فاعلم أنه ليس أديباً ، وإنما خدع عن نفسه ، أو خدع الناس عنه ، ثم تبين له الحق ، أو تبين للناس الحق فى أمره ، فعاد إلى ما يلائمه ، وعاد الناس فى أمره إلى الصواب .

وإذا رأيت أديباً ينتج ما استقامت له الحياة وواتته الظروف واتصل عليه النعيم ، فإذا اعوجت به الطريق ، أو نبت به الظروف ، أو سلط عليه البؤس ، لم يصنع شيئاً ، وإنما ضعف وأدركه الوهن ، وحيل بينه وبين الخصب المنتج المفيد ، فهو ليس أديباً خليقاً بهذا الاسم ، تستطيع أن تسميه بما شئت من الأسماء، وأن تخلع عليه ما أحببت من الأوصاف ، إلا أن تزعم له أنه أديب .

أتعرف هؤلاء الشعراء الذين يستمتعون بالحرية فيتغنون ، ويزجون فى أعماق السجون فيتغنون ، والذين يستمتعون بالنعيم فيتغنون ، ويضطرون إلى البؤس والجوع والحرمان فيتغنون ؟ هؤلاء شعراء حقاً وأدباء حقاً ! لأن أخص ما يمتاز به الشاعر أو الأديب هو أن جذوته مضطرمة دائماً ، وضميره حى دائماً ، وقلبه مرآة لكل شىء ، وملكته الإنشائية مصورة دائماً لكل ما يرتسم فى هذه المرآة . فإذا رأيت رجلا تعجبه الحياة فيتغنى ، فإذا ساءته آثر الصمت أو اضطر إليه ، فهو أديب منقوص ، أو شاعر منقوص ، فكيف بك إذا رأيت هذا الرجل الذى يسلط إرادته على أدبه ، فينتج حين يريد ، ويكف عن الإنتاج حين يريد ، ويتصرف

فى الأدب كما يتصرف فى غيره من هذه الأشياء التى يتصرف الناس فيها أحراراً ؟ هذا الرجل ليس أديباً ، وإنما هو صانع ، وإنما هو متكلف ، وإنما هو عامل من العمال ، ومن العمال الذين يتخذون العمل وسيلة إلى الحياة ، لا وسيلة إلى إرضاء طبيعتهم المشغوفة بالفن ، المفطورة على حبه ، المكرهة على أن تتصل به ، مهما تكن الظروف .

والأديب الذى يستحق هذا الاسم قد تختلف آراؤه وميوله ، وقد تتباين عواطفه وأهواؤه ، وهو قد يرضى ، وقد يسخط ، وقد يرضى عن شىء ، ويسخط على هذا الشىء نفسه ، وقد يحب إنساناً ثم يبغضه ، وقد يحب شيئاً ثم يكرهه ، ولكن شيئاً من هذا لا يؤثر فى ضميره الأدبى ولا يؤثر فى تقديسه للأدب ورفعه فوق كل شىء ، وفوق كل ظرف ، وفوق كل عاطفة أو هوى . فالأدب عنده ليس وسيلة ولا أداة ، وإنما هو الغاية والغرض ، وهو الشىء الذى من أجله خلق ، ومن أجله عاش ، ومن أجله يجب أن يموت . فإذا رأيت رجلا يبتذل الأدب ابتذالا ويمتهنه امتهاناً ، ويبيع مذهبه الأدبى فى السوق ، فيميل به إلى اليمين إن راجت السوق نحو اليمين ، ويميل به إلى الشمال إن راجت السوق نحو الشمال ، ويقف به موقف الحائر المنتظر حتى يتبين من أين تهب الريح وإلى أين تريد أن تمضى ليتبعها ، فليس هذا الرجل أديباً ، وليس هذا الرجل مستمتعاً بهذا الضمير الأدبى الذى يتيح لأصحابه القوة والخلود ، وإنما هو تاجر يحمل طائفة من السلع والعروض يريد أن يفيد منها ما يتاح له من الربح ، فيوفق حيناً ، ويخطئه التوفيق فى كثير من الأحيان .

والضمير الأدبى الصحيح صُلْبٌ لا يعرف المرونة ، ماض لا يعرف التردد ، قاس لا يعرف ليناً . ترى الأديب يتلون فى أشياء كثيرة ، ولكنه لا يتلون فى الأدب . تراه يفرط فى أشياء كثيرة ، ولكنه لا يفرط فى الأدب . تراه يساوم فى أشياء كثيرة ، ولكنه لا يساوم فى الأدب ؛ لأنه يستطيع أن يمس الأدب بتلون أو تفريط أو مساومة . انظر إلى هذا الشاعر قد اتخذ لنفسه هذا المذهب فى الشعر ، أو فرض هذا المذهب على نفسه فرضاً ، فهو يتصور على هذا النحو دون ذاك ، وينظم على هذا النحو دون ذاك ، ويتغنى على هذا النحو دون ذاك . قد تختلف عليه الأحداث ، وتلم به الملمات ، ويمتحن فى حياته ما شاء الله من ضروب الامتحان ، ولكنه لن يغير مذهبه فى الشعر ، ولن يتحول عن أسلوبه فى النظم ،

ولن يميل عن طريقته فى الغناء ، إلا أن يكون هذا التحول نتيجة طبيعية للتطور الفنى الذى لا بد منه ، فأما أن يبيع مذهبه بمذهب آخر ، لأن الناس يريدونه على ذلك ، فأما أن يغير أسلوبه فى النظم لأن أسلوبه القديم لا يرضى الناس ولا يوافق أهواءهم ، فأما أن يميل عن طريقته فى الغناء إلى طريقة أخرى لأن طريقته لا تلائم ذوق الناس، فهذا شىء لا سبيل إليه ؛ لأن الأديب الخليق بهذا الاسم لا يفكر فى الناس ولا يحفل بهم ، ولا يقف عندما يريدون وما لا يريدون ، وإنما يفكر فى الأدب وحده ، ويحفل بالأدب وحده ، ويقف عند ما يريد الأدب وحده .

الأديب هو أصدق صورة للرجل المجبر الذى لا رأى له ولا إرادة ولا اختيار فيما ينتج من الآثار الأدبية الخالصة ، هو أشبه شىء بالأداة التى توجَّه ، وهى لا تعرف كيف تُوَجَّه ، وأشبه شىء بالمرآة التى تتلقى الصور وهى لا تعرف كيف تتلقاها ، وأشبه شىء بالرجل الملهم الذى يأتيه الوحى وهو لا يعرف كيف يأتيه ولا من أين يأتيه ، هذا هو الضمير الأدبى الذى يتيح لأصحابه البقاء ، ويتيح لهم أن يكونوا أئمة للناس وقادة للحضارة .

فأما هذه الضمائر الضعيفة الفاترة التى لا تعرف ثباتاً ، ولا تقدر على مقاومة ، ولا تحس استقراراً ولا استمراراً ، فلست أدرى ما هى ، ولكنى أعلم حق العلم أنها ليست ضمائر أدبية ، وإنما هى ضمائر تستطيع أن تسميها بما شئت من الأسماء وأن تصفها بما أحببت من الأوصاف .

ولعلك تسألنى : فيم كل هذا الكلام ؟ وفيم كل هذا التفصيل ؟ وأظن أنى لست فى حاجة إلى أن أجيب ولا أن أطيل الجواب ، وإنما يكفى أن تنظر فى الأدب المصرى الحديث ، وفى الأدباء المصريين المحدثين ، وأن تسأل أين يكون الضمير الأدبى الصحيح من هذا الأدب ومن هؤلاء الأدباء ؟ أين يكون هذا الأديب الذى يرفع أدبه عن الظروف ويرقى به فوق الأحداث ، ويمتنع به عن الضيم ، ويأبى أن يجعله تجارة ، وأن يساوم فيه كما يساوم التجار ؟ أين يكون هذا الأديب الذى لا يفكر فى الناس قبل أن ينشئ ، ولا يسأل عما سيقول الناس قبل أن ينتج ، ولا يقدر عواقب آثاره الأدبية قبل أن يذيعها فى القراء ؟ أين يكون الأديب الذى لا يقوم أثره الأدبى بالدراهم والدنانير قبل أن يكتبه وقبل أن يخرجه ؟ أين يكون هذا الأديب الذى لا يسعى إلى الشهرة إنما تسعى الشهرة إليه ، والذى

لا يطلب الرضا وإنما يطلبه الرضا ، والذى لا يخاف الخمول ولا يكره الانزواء ، ولا يشفق من الغضب والخطر ؟ أين هذا الأديب الذى لا يرضى صحبة الأدب إلا أن يكون الأدب صاحباً مأموناً لا يعرض لخطر ولا يثير خوفاً ، ولا يهيج غضب السلطان أو اتباع السلطان ، ولا يحول عنه رضا الناس ولا يحول عنه قروش الناس بنوع خاص ؟ ثم أين هذا الأدب الذى ينتجه فى مصر مثل هذا الأديب ؟ تستطيع أن تبحث عن هذا الأدب ، وأن تبحث عن ذلك الأديب ، وأن تلتمس الضمير الأدبى الصحيح الذى يؤمن بالمبدأ الأدبى كما يؤمن الرجل التقى بمبدئه الدينى ، وأظنك لن تخالفنى فى أن هؤلاء الأدباء فى مصر قليلون جداً ، وليسوا فى حاجة إلى الإحصاء ، لأنهم يحصون أنفسهم بأنفسهم ، وفى أن الآثار الأدبية التى تصدر عن هذا الضمير الأدبى الحى قليلة جداً ليست فى حاجة إلى العد لأنها تعد نفسها ، وفى أن مصر ستظفر بالحياة الأدبية الصالحة التى ترفع مكانها بين الأمم الراقية بالأدب حقاً يوم يقوى الضمير الأدبى فى أدبائها ، ويوم يستطيع أن يسيطر سيطرة صحيحة على نفوس كثير من الكتاب وكثير من الشعراء ، فلا ينشئون ولا ينظمون إلا عن يقين وصدق وإيمان .

ولا تقل إنى سيئ الرأى ، ولا تقل إنى متشائم ، فقد يكون هذا حقاً ، ولكن ما رأيك فى أن سوء الرأى وفى أن التشاؤم فى مثل هذه الموضوعات أساس من أسس النهضة الصحيحة ، وفى أن حسن الرأى غرور ، وفى أن التفاؤل عجز ، وفى أن النقد والنقد الصارم الحازم ، الذى لا يمهل ولا يهمل ، ولا يجامل ولا يصانع هو من أجل هذا ضرورة من ضرورات الحياة الأدبية فى مصر الآن !

بين الدين والعلم والأدب والإحسان

وما رأيك أيها القارئ الكريم فى هذا العنوان الطويل الذى لا يكاد ينقضى ، وفى هذا العنوان الطويل يصدر عن كاتب تعوّد أن يختار عنوانه قصيراً ممعناً فى القصر ، لا يتجاوز به الكلمة فى أكثر الأحيان ، ولو استطاع أن ينزل به عن الكلمة لفعل ، ولو استطاع أن يجعل عنوانه رمزاً يحس ولا يقرأ لكان بذلك مغتبطاً وله مؤثراً . ولكنه مع ذلك قد آثر فى هذا اليوم أن يكون عنوان حديثه طويلا كليل الشتاء ، أو كشهر الصوم ، أو كعرقوب تلك الفتاة التى أنشد فيها بعض العلماء :

نُبِّئْتُ أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

والعنوان ليس طويلا فحسب ، ولكنه مختلف شديد الاختلاف ، مركب شديد التركيب ، فيه الدين ، وفيه العلم ، وفيه الأدب ، وفيه الإحسان . وهو بهذا كله يخيل إلى من يقرؤه أنى سأعرض لموضوعات شائكة معضلة لها خطرها الذى لا يشبهه خطر . وهو يثير فى نفس من يقرؤه شوقاً إلى القراءة واستعداداً للجدال والنضال ، وتأهباً للحرب والقتال ؛ فما ينبغى أن يتحدث كاتب هذا الفصل عن الدين والعلم ، إلا إذا كان يريد أن يقول شيئاً عظيما ، أو يحدث حدثاً خطيراً ، أو يُقْدِم على أمر ذى بال . وما ينبغى أن يتحدث كاتب هذا الفصل عن العلم والأدب إلا وهو يريد أن يعرض لموضوع سيحفظ قوماً ، وسيرضى قوماً ، وسيثير بين أولئك وهؤلاء حرباً شعواء . والإحسان ما موقعه من الأدب ؟ وما موقعه من العلم إن فهم موقعه من الدين ؟ أيريد كاتب هذا الفصل أن يكون ناقداً ؟ أيريد أن يكون واعظاً ؟ أيريد أن يكون فيلسوفاً ؟ أم يريد ماذا ؟ أسئلة سيثيرها هذا العنوان الطويل المركب فى نفوس كثير من الناس إذا قرءوه . وأنا حريص على ألا يطول انتظارهم للجواب ، فلأسرع إليه إذاً ، ولأنبئهم بأنى لا أريد ثورة ولا أبتغى انقلاباً ؛ وحسبُ مصر أن يثور فيها « صدقى » وأتباعه ،

وحسب مصر أن يحدث فيها الانقلاب السياسى إثر الانقلاب السياسى . وخير للأدباء فى هذه الأيام أن يرفقوا بالناس ، وهم مع الأسف ومع السرور يرفقون بهم ، فلا ينتجون أو لا يكادون ينتجون شيئاً خليقاً أن يحدث ثورة أو اضطراباً . لاأريد إذاً أن أقدم على أمر عظيم ، ولكنى مع ذلك اخترت هذا العنوان لأنى لم أجد من اختياره بدًّا ، فوضوعه يقتضى هذا الاختيار . ولأفرض أنى تلميذ يهيئ موضوعاً من موضوعات الإنشاء ، فهو يريد أن يبين عناصر هذا الموضوع كما يقولون ليكون ما يكتبه منظماً يصور عقلا منظماً أو آخذاً فى سبيل النظام ، فلأبين إذاً عناصر هذا الموضوع الإنشائى الذى أردت أن يكون حديث الأربعاء فى هذا اليوم .

فالجمعية الخيرية الإسلامية هى العنصر الأول من عناصر هذا الموضوع . والمصريون جميعاً يعرفون الجمعية الخيرية الإسلامية ، يعرفها الفقراء لأنها تعينهم أنواعاً مختلفة من المعونة : تعلّم أبناءهم ألواناً من العلم ، وتتيح للمحرومين منهم أن يحتملوا الحياة . ويعرفها الأغنياء لأن كثيراً منهم يعينها على مروءتها ، يعينها بالمال ويعينها بالجهد ، ويعينها بالإخلاص ، ويعينها بهذا الجزء الذى يكمل به نفسه الإنسانية ، وهو حب الإحسان . ويعرفها التلاميذ الذين يختلفون إلى مدارسها ، ويعرفها المعلمون الذين يؤدبون هؤلاء التلاميذ ، ويعرفها المعوزون الذين يستعينون بها على استقبال رمضان ، ويستعينون بها على التهيؤ لاستقبال الأعياد ، ويستعينون بها على الدفء إذا كان الشتاء ، وعلى التبلغ إذا تراءت لهم أشباح الجوع . ثم يعرفها هؤلاء الذين كانوا أغنياء فأدركهم الفقر ، ولكنهم يريدون أن يكونوا كراماً ، فتعينهم على أن يكونوا كراماً . ثم يعرفها الطلاب فى الجامعة وفى المدارس العليا ، لأنها تعين بعضهم على استكمال حظه من التعليم العالى . ثم يعرفها سكان مصر جميعاً من المصريين والأجانب ، لأنها قديمة العهد بالوجود ، قد كادت تبلغ عيدها الفضى ، وهى تظهر للناس فى كل عام فى أقوى مظهر وأرقاه وأروعه حين تقيم حفلها السنوى الذى ستقيمه غداً . ويقال إن دار المندوب السامى تعرفها أيضاً ، ويقال إنها تبرعت لاحتفال الغد بشىء من المال ، لأن الإحسان فضيلة تزدان بها الديانات جميعاً ، وتزدان بها الوطنيات جميعاً ، وتجعل الإنسان إنساناً . فهذا هو العنصر الأول من عناصر موضوع الإنشاء . وأظننى قد بينته فى غير لبس ولا غموض .

وأما العنصر الثانى فهو علماء الدين ، وعلماء الدين الإسلامى الكريم الذى لا يعرف الناس ديناً يشبهه فى العطف على الفقير وإيثار البائس بالرحمة والبر ، وجعل الصدقة ركناً من أركانه فرضها على القادرين فرضاً ، واتخاذها أداة صالحة منتجة لتحقيق عدل الله فى الأرض ، ولتحقيق التوازن بين الطبقات ، ولتحقيق الحب بين الأغنياء والمحرومين ، ولصيانة النظام الاجتماعى من الاضطراب والفساد ، ولتطهير النفس الإنسانية من أدران الأثرة والحرص والتهالك على المنفعة . وعلماء الإسلام هم حماته ودعاته ، وهم حفظته وناشروه ، وهم قدوة الناس فى الائتمار بما يأمر به من معروف والانتهاء عما ينهى عنه من منكر ، وفيهم الأسوة لمن أراد الأسوة ، وفيهم المثال لمن ابتغى المثال . وهم مصابيح الظلام ، وهم الهداة إلى الحق والدعاة إلى الخير ، وهم أزهد الناس فى أنفسهم ، وأحب الناس للناس . وهم أبغض الناس لأعراض الدنيا ، وأحب الناس لثواب الآخرة . وهم رسل الرحمة فى الأرض ، وهم قادة الناس إلى السماء .

فهذا هو العنصر الثانى من عناصر الموضوع الإنشائى . فأما العنصر الثالث فهذه البطاقات التى توزعها الجمعية الخيرية فى كل عام على الناس تدعوهم بها إلى أن يشهدوا حفلها العام ، أو قل تدعوهم بها إلى أن يدفعوا ثمنها صدقة تطهرهم وتزكيهم وتعين الفقراء على احتمال الفقر ، وتعين المحسنين على المضى فى الإحسان . والأصل فيمن انتهت إليه هذه البطاقة أن يؤدى ثمنها مضاعفاً إن كان غنياً ، وغير مضاعف إن لم يكن غنياً . فإذا أدى هذا الثمن فالأصل أن يشهد الحفل إن استطاع شهوده ، فإن لم يستطع فليس عليه من ذلك بأس . والناس جميعاً يعلمون هذا ولا يختلفون فيه . وهذه البطاقات توزع فى كل عام على أفراد الناس وجماعاتهم ، وعلى مصالح الدولة ودواوينها ، وأهل الخير يتطوعون بالتوزيع كما يتطوعون بالبذل . فهذا هو العنصر الثالث من عناصر الموضوع .

ولهذه البطاقات قصة يجب أن تُقَصّ ، ولكن لا أقصها إلا لتفكر فيها وتنتفع بها . وسترى أنها خليقة بالتفكير قادرة على النفع . فقد صدرت خمس بطاقات عن لجنة الحفل ، أو قل عن رئيس هذه اللجنة ، وهو رجل كريم من كبار الموظفين ، وقيل لهذه البطاقات : اذهبى راشدة إلى صندوق البريد ، ثم اذهبى راشدة إلى الإسكندرية ، ثم اذهبى راشدة إلى المعهد الدينى فى المدينة ، ثم استقرى هناك وأرسلى إلى الجمعية ثمنك يسيراً ولكنه مبارك . فليس الجنيه

الذى يجمع من علماء الدين على قلّته وضآلته كمثات الجنيهات التى تجمع من غير رجال الدين على كثرتها وضخامتها . هو حنيه كله خير وبر ، فيه البركة كلها ، وفيه الخصب والنماء . اذهبى أيتها البطاقات الخمس راشدة إلى شيخ العلماء فى الإسكندرية ، فاقرئى عليه تحية الفقراء وألقى إليه سلام البائسين وقولى له إنهم ينتظرون . وخرجت البطاقات من عند رئيس اللجنة الكريم نشيطة شديدة النشاط ، فرحة عظيمة الفرح ، تكاد تنطق لتبين عما يملؤها من الفخر . وما بالك ببطاقات خمس تذهب إلى شيخ من شيوخ الدين لتأخذ منه الصدقة لفقراء المسلمين ! ثم أصبح رئيس اللجنة الكريم ذات يوم ، وإذا غلاف يدفع إليه ، فيفضه فيرى ؛ وياشر ما يرى ! يرى البطاقات الخمس قد عادت إليه حزينة كئيبة كاسفة البال ، تريد أن تشكو فلا تستطيع أن تشكو ، لا لأنها بطاقات لاتبين ، بل لأن الحزن قد حال بينها وبين الشكوى ، فأفعم قلبها إن كان للبطاقات قلوب ، وعقد لسانها إن كان للبطاقات ألسنة . لقد طرقت باب الشيخ فلم يُفْتَحْ لها ، وألحت فى الطرق ، وصبرت وصابرت ، وتمثلت قول الشاعر القديم :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ولكن صبرها لم يغن عنها ، ولكن إدمانها للقرع لم يجد عليها ، وإنما رُدَّتْ ردًّا عنيفاً ، وانتهرت انتهاراً قبيحاً ، وقال لها القائلون: عودى من حيث أتيت فإنا عنك مشغولون بالعلم والدين ؛ حاولت البطاقات أن تقنع فلم تقنع أحداً ، وحاولت البطاقات أن تُسْمع فلم تسمع أحداً ، وحاولت البطاقات أن تمس القلوب فحيل بينها وبين القلوب ، وحاولت البطاقات أن تثير الحياء ، فحيل بينها وبين الحياء ؛ قالت البطاقات فإنى استحيى أن أنبئ الفقراء بهذه الخيبة ، وأن أعتذر إليهم من هذا الإخفاق . قال القائلون : لا بأس عليك ، فسنعفيك من هذا الحياء ، وسنريحك من هذا الاعتذار ، احملى إلى مرسلك عنا هذا الكتاب :

« حضرة صاحب السعادة المفضال

نعيد لسعادتكم مع هذا التذاكر الخمس الواردة بكتاب الجمعية رقم ٤١ و ١٢ برسم صاحب الفضيلة الشيخ محمد الشافعى الظواهرى ، للعلم بأن فضيلته مشغول والعلماء بأعمال الدراسة فى ليلة حفلة الجمعية ، ولا يمكنهم التخلف عنها فى ذلك التاريخ .

وتفضلوا . . . » سكرتير المعهد

وأقبلت البطاقات الخمس تسعى على استحياء ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، ثم رفعت الكتاب مستخذية إلى رئيس اللجنة . فلما قرأه رق لها وعطف عليها ، وتحدث إليها بحديث طويل طيب خاطرها ، كما يقول الناس . ثم قال لها : اذهبى راشدة أيتها البطاقات الخمس إلى دار الفقراء مبتسمة راضية ، واحملى إليهم ثمنك هذا يسيراً ولكنه مبارك ، لأنه يصدر عن قلب مخلص للفقراء ، يحبهم ويعطف عليهم ، ويريد لهم الأمن والدعة والأمل الواسع العريض .

اذهبى راشدة أيتها البطاقات الخمس إلى دار الفقراء فاحملى إليهم هذا الجنيه الذى لم تمسسه يد شيخ مبارك ، ولم يخرج من مال عالم من علماء الدين ، ولم يفكر فى إرساله رأس عليه العمامة الضخمة ، ولم يأمر بإرساله لسان يتردد بهذه الألفاظ التى تتردد بها ألسنة رجال الدين ، وإنما هو جنيه متواضع يسير ، يهديه إلى الفقراء رجل متواضع يتخذ الطربوش ، ولا يختلف إلى المقابر والأضرحة ، ولا يطيل الكم ولا يتحرج فى القول ، ولا يتحرج فى الحركة ، ولا يتحذق فى الغيرة على الدين ، إنما هو رجل مؤمن قد أخلص دينه لله ، واتخذ رضا الفقراء وسيلة إلى رضاه .

قال ذلك ثم وضع البطاقات فى غلاف ووضع معها جنيهاً وقال لها : اذهبى راشدة ولا تحزنى . فمن يدرى ! لعلك بعد أن تؤدى ثمنك هذا إلى الفقراء أن تُدْفَعى إلى قوم مخلصين فيؤدوا ثمنك مرة أخرى ، فيكون الله عز وجل قد ضاعف بلك فضله على الفقراء ، وعزّاك عن خيبة الأمل أحسن العزاء .

فهذا عنصر آخر من عناصر الموضوع . أتريد أن أمضى فى بيان هذه العناصر ، أم يكفيك ما قرأت ؟ أما أنا فإن الحزن يملأ قلبى ، ويصرفنى عن التفكير والإملاء . ولكنى أسأل نفسى وأريد أن تسأل نفسك ، وأظن أن البطاقات قد سألت نفسها : أكان ردها خائبة من الإسكندرية ناشئاً عن اشتغال رجال الدين بالعلم والدين ، أم كان ناشئاً عن إيثار رجال الدين للمال ، أم كان ناشئاً عن مذهب سياسى يجعل معونة الجمعية الخيرية الإسلامية شيئاً لا ينبغى لرجال الدين أن يخفوا له أو يقبلوا عليه ؟ فقد يقال إن بطاقات أخرى أرسلت إلى المعاهد الدينية الأخرى فعادت خائبة !

أفنلمح فى هذا أيضاً آثار الأبراشى باشا ؟ !

نزاهة الأدب

فى مصر الآن قضية سياسية خطيرة يسميها الناس « قضية نزاهة الحكم » . وقد أخذت اسمها هذا من عنوان بعض المقالات التى أثارتها حين نشرت فى « السياسة » نقداً لبعض الوزراء .

وأظن أن من الممكن ، بل من الخير ، بل من الواجب . أن تثار من حين إلى حين فى الأدب قضية تشبه هذه القضية ، فى الاسم على أقل تقدير ، فتسمى « قضية نزاهة الأدب » .

لست أدرى إلى من ترفع هذه القضية . بل لست أرى ضرورة لأن يكون هناك قاض بعينه ترفع إليه الخصومة ليقضى فيها . فقد يجوز أن ترفع القضية إلى النقاد ، إن كان النقاد قضاة ، برغم إلحاح صديقنا « عوض » فى أنهم شهود . وقد يجوز أن ترفع القضية إلى الفن ، إن كان الفن قاضياً ، برغم إلحاحى أنا فى أن الفن لا يصلح للقضاء ولا يقدر عليه ؛ لأن القاضى يجب أن يعقل ، وليس للفن عقل ، ولأن القاضى يجب أن يريد ، وليس للفن إرادة ، ولأن القاضى يجب أن ينطق ، وليس للفن لسان .

وهذا الكلام قد يُضحك ، ولكن من زعم أن الضحك حرام على الأدباء ، وأن الكاتب الأديب يجب أن يكون جادّاً كلما تعرض للنقد أو للفن ! فالواقع أن الفن لا عقل له ، وإنما له عقول لا تحصى ، له فى كل بلد ألف عقل وعقل . والواقع أن الفن لا إرادة له ، وإنما له إرادات لا تُعَدّ ، له فى كل بلد ألف إرادة وإرادة . والواقع أن الفن لا لسان له ، وإنما له ألسنة لا تحصى ، له فى كل بلد ألف لسان ولسان . ولو أنى أردت أن أصور الفن وعقوله التى يفكر بها ، وإرادته التى يعزم بها ، وألسنته التى ينطق بها ، وأقلامه التى يقتل بها طوراً ويجرح بها طوراً آخر ويأسو بها طوراً ثالثاً ، لما وسعنى إلا أن أتخيل مَلَكاً من هؤلاء الملائكة الذين تتحدث عنهم كتب الوعظ ، لكل واحد منهم سبعون ألف جناح ، وعلى كل جناح من هذه الأجنحة سبعون ألف ملك ،

إلى آخر هذه الصورة الجميلة الرائعة التى جاءت بها السير ، والتى تملأ قلوب الناس روعة حيناً وروعاً حيناً آخر . ذلك أن عقول الفن وإرادته وألسنته وأقلامه هى كما يتصورها صديقنا الأستاذ طاهر الطناحى ، عقول أصحاب الفن وإرادتهم وألسنتهم وأقلامهم جميعاً . فاجتهد إذاً فى أن تحصى أصحاب الفن منذ كانوا ، وفى أن تحصيهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، واجمعهم كلهم فى ذهنك ، إن كان الذهن المحدود يستطيع أن يجمع غير المحدود ، وقل كما يقول الأستاذ طاهر الطناحى : إن هؤلاء الناس جميعاً هم الفن ، سواء منهم من ذهب ومن هو قائم ومن لم تلده أمه بعد .

الفن إذاً لا يصلح للقضاء ولا يقدر عليه . ومع ذلك فلست أرى بأساً فى أن ترفع إليه هذه القضية ليقضى فيها إن وجد إلى ذلك سبيلا . وقد يجوز أن ترفع هذه القضية إلى الجمهور الذى يؤمن صديقنا عوض بأنه هو القاضى والفيصل والحكم النزيه ، وإن كنت أرتاب فى صلاح الجمهور للقضاء وقدرته عليه ، وأرى فيه مثل ما أرى فى الفن من أنه كائن غريب ، تستطيع أن تصوره القصص والأساطير ، ولكنه لا يستطيع أن يوجد ولا أن يجلس مجلس القضاء . وما رأيك فى كائن يأتلف من المثقفين الذين خلقهم الله فيما مضى وفيما هو كائن وفيما سيكون من الزمان . تصور هذا الغريب وأجلسه فى غرفة من الغرفات أو حجرة من الحجرات على كرسى من الكراسى . ثم ارفع إليه هذه الخصومة ليقضى فيها إن وجد إلى ذلك سبيلا ، فليس عندى بذلك بأس . بل لا تضحك ولا تدهش إن قلت لك إنى ألقى هذه القضية إلقاء ولا أنتظر فيها قضاء من النقاد ولا من الفن ولا من الجمهور ولا من أحد كائناً من كان . ألقيها لأنى لا أجد من إلقائها بداً ، وأعرضها لأنى لا أجد عن عرضها منصرفاً ، وكل إنسان حر فى أن يسمعها أو يُصِمّ أذنه عنها ، وفى أن يقضى فيها أو يُعرض عنها إعراضاً ، فليس هذا يعنينى فى قليل ولا كثير ، إنما الذى يعنينى هو أن أرفه على نفسى بإلقائها ، وأن أتخفف من ثقلها بالتحدث بها إلى القراء .

وليست هذه القضية سهلة ولا يسيرة ولا نادرة ، وإنما هى عسيرة معقدة كثيرة الوقوع والتردد فى حياتنا الأدبية الحاضرة ، وهى قضية جماعة من الناس يتكلفون الأدب وليسوا منه فى شىء ، أو يصطنعون الأدب وهم أدباء ولكنهم لا يحرصون على النزاهة الدقيقة فى صناعة تحتاج إلى النزاهة أشد الاحتياج .

هذا كاتب لا أعرفه ولا أريد أن أسميه ، لأنى أخشى أن يقضى الفن عليه قضاء صارماً ، أو أن يناله الجمهور بما لا يطيق . هذا كاتب إذاً يتكلف الأدب ، إما لأنه يحبه ، وإما لأنه يحب أن يراه الناس أديباً . وأكبر الظن أنه يحب أن يرى الناس أدبه ، أو قل إنه يحب أن يرى اسمه مطبوعاً فى صحيفة من الصحف . أرسل إلى هذا الكاتب فى الأسبوع الماضى مقالا طويلا لا بأس به ، عن رجل من كبار الموسيقيين فى القرن الثامن عشر . فلما قرأت المقال لم أر به بأساً وأذنت فى نشره فأرسل إلى العمال . ولم يكد يصل إلى أيديهم حتى تقسموه فيما بينهم وأسرعوا إليه فصفوه صفاً ، وهيئوه للمطبعة . ولكن صديقاً زميلا أقبل على فى آخر لحظة يقول : إن هذا المقال الذى أذنت فى نشره وهيئ للنشر ليس جديداً ولكنه قديم ، قديم جداً ، قد نشر منذ عام أو منذ أكثر من عام ، وأنت الذى أذنت فى نشره فى الكوكب حين كنت تعمل فيه ، وقد نشر بشكله وجوهره وبإمضائه الذى يحمله الآن . قلت لصاحبى : ماذا تقول ؟ فإنى لا أذكر أنى قرأت هذا المقال . قال : لم تقرأه أنت وإنما قرأته أنا ولخصته لك واستأذنتك فى نشره فأذنت . قلت : فإنى أتهم ذاكرتك فأتنى بالبرهان . قال : اتهم ذاكرتى ما شئت فهذا هو الكوكب قد استحضرته ، وهذا هو المقال قد نشر فيه ، فمُرْ من شئت يقابل معى بين المقال الذى نشرناه منذ أكثر من عام وبين هذه الصورة التى أرسلت إليك لتنشر غداً . ولم نكد نمضى فى المقابلة حتى تبين أن صاحبى لم يخطئ ، وأن صاحب المقال قد تعمد غِشّنا ، ولم يتحرج من هذا التضليل الأثيم .

ولم يكن بدٌ من إلغاء هذا المقال ، ومن أن ندفع إلى العمال مقالا آخر ، ومن أن نكلفهم ما يكرهون من إعادة العمل ، ومن أن نكلف أنفسنا ما نكره من تأخير صدور الوادى عن موعده . وأظن أن أمثال هذا الكاتب ليسوا قليلين ، وأظن أن منهم من يرى فى هذا الصنيع لذة بريئة ، ولكنها آثمة فى وقت واحد . بريئة لأن مصدرها غرور الأطفال ، آثمة لأنها سر على كل حال . وهى على كل حال نقيصة من النقائص التى تقوّمها التربية ويصلحها التأديب ، والتأديب الذى يعتمد فيه على استعداد الصبيان والشبان ، أكثر مما يعتمد فيه على السوط والعصا .

وهناك شبان لعلهم يعمدون إلى مثل هذا فى شىء من الفكاهة وحب

العبث يريدون أن يضحكوا من الصحف ومن رؤساء التحرير ، فيُدخلون عليهم فصولا نُشِرت على أنها لم تنشر ، ويُدخلون عليهم فصولا يضيفونها لأنفسهم مع أنهم ليسوا منها فى شىء ، يقصدون إلى ذلك عمداً ، حتى إذا تم لهم ما أرادوا ، تندروا بالصحيفة وبرئيس تحريرها . قساة لا يعرفون رحمة ولا إشفاقاً ، ولا يقدرون أن رؤساء التحرير أضيق وقتاً وجهداً واطلاعاً من أن يلموا بكل ما نشر ، ومن أن يضيفوا كل شىء مكتوب أو منظوم إلى الذين كتبوه أونظموه .

على أن هناك لوناً آخر من هذا الفساد أشد منه خطراً فيما يظهر ، لأنه ليس فرديًّا ، وإنما هو اجتماعى بأدق معانى الكلمة وأوسعها ، وذلك أن الذى يجنى هذا الفساد ليس هو الفرد من حيث هو فرد ، بل هى الصحيفة من حيث هى صحيفة . وواضح أن الصحيفة ظاهرة اجتماعية لا فردية ، فهى ملك للجماعة وإن كان صاحبها فرداً . فهى إذا اتخذت الخداع والتضليل فى الأدب أسلوباً من أساليبها ، فهى لا تخدع رئيس التحرير ولا تخدع نفسها ، وإنما تخدع القراء وتضللهم ، وهؤلاء القراء آلاف حين تكون الصحيفة متواضعة ضيقة الانتشار ، وهم عشرات الألوف حين تكون الصحيفة كبيرة واسعة الانتشار . والأصل أن كل صحيفة سيارة يومية تصدر للناس جميعاً ، فهى إذا خادعت أو ضللت تخادع الناس جميعاً وتضلل الناس جميعاً . وأذكر أن صديقاً لى كتب مقالا نشرته له فى الكوكب عن كاتب إنجليزى كبير ، فلما مضى على هذا المقال عام أو ما يقرب من عام ، أو أشهر على أقل تقدير ، رأيت المقال قد نشر فى مجلة سورية صديقة لم يستأذن صاحبها فى نشره ولم ينقل من الكوكب ، أو بعبارة أدق لم يُضَفْ إلى الكوكب ، وإنما نشر كأن صاحبه قد أرسله إلى المجلة مباشرة . والظريف أن صاحب المقال كان يرمز لاسمه بحرف من الحروف ، فأمضى المقال فى نفس المجلة بنفس الحرف الذى أمضى به فى الكوكب . وأقبلت المجلة من الشام ، وأصبحت ذات يوم فإذا المقال نفسه فى صحيفة سيارة من الصحف الكبرى ، لم يُضَفْ إلى المجلة السورية ولا إلى الكوكب المصرية ، وإنما نشر كأن صاحبه قد أرسله إلى الصحيفة نفسها مباشرة ، ونشر بنفس الإمضاء الذى نُشِر به فى الكوكب وفى المجلة السورية !

سَمِّ هذا ما شئت وقل ما أحببت ، فهو على كل حال بعيد كل البعد عن النزاهة الأدبية ، وبعيد كل البعد عن النزاهة الصحفية ، وخليق أن يرفع

الأمر فيه إلى أحد هؤلاء القضاة الذين تحدثت عنهم أول هذا الفصل . ولا أريد أن أذكر القضاء الرسمي ، فأنا أحب أن يجتنب الأدب وأن تجتنب الصحافة خاصة مجلس القضاء الرسمي ما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ وحسب الأدباء وحسب الصحافيين أن تدفعهم الحكومات والنيابة إلى هذا المجلس المهيب وهم كارهون .

ولون آخر من ألوان هذا الشر ، قد يكون في ظاهر الأمر مألوفاً سائغاً ، ولكني أعترف بأن الضمير الأدبي يجب أن يأباه وأن ينبو عنه ، وهو على ذلك شائع شيوعاً فاحشاً . ولست أذكر هذا الإثم الذي كثر وشاع وقبله الناس حتى أصبح مباحاً أو كالمباح ، وهو اعتداء بعض الصحف على بعض في رواية الأخبار وأخذها بالمقص لتمتلئ بها صحيفة فارغة على حساب صحيفة ممتلئة . فقد أصبح هذا الإثم خطيئة مباحة ، وجزءاً من الفن عند بعض الصحافيين . إنما أذكر نوعاً آخر من الاعتداء لا أستطيع أن أسيغه ، وأريد أن أعتقد أن كثيراً من الزملاء لا يسيغونه . ولست أشك في أن فريقاً منهم أعرفهم يأبونه أشد الإباء وينفرون منه أعظم النفور ، وقد كان مصدراً لشيء من الخصومة بيننا وبين زميلتنا الرسالة منذ أشهر .

فقرّاء هذا الحديث يذكرون أن الأستاذ توفيق الحكيم كتب إليّ عاتباً في بعض الأمر ، وخرج عن طوره في هذا العتاب ، فنشرت له عتابه ، ثم رددت عليه بما رأيت أنه يلائمه . ثم اعتذر الأستاذ توفيق الحكيم فنشرت له اعتذاره ، ثم التقينا وأغضينا عن كل شيء . وفي ذات يوم نظرت في الأهرام فإذا هي تعلن عدداً من أعداد الرسالة وتعلن أن لي في هذا العدد فصلا ، ولم أكن قد كتبت في الرسالة في ذلك الأسبوع . فلما وصلت إليّ الرسالة رأيتها قد أخذت من « الوادي » ردي على الأستاذ توفيق الحكيم دون أن تضيفه إلى الوادي ، ودون أن تستأذنني في إعادة نشره ، فكرهت ذلك وضقت به ، وزادني كرهاً له وضيقاً به أن الأستاذ توفيق الحكيم ظن أني طلبت إلى الرسالة أن تعيد نشر هذا الفصل ؛ لأني معجب به ، أو لأني لم أكن صادقاً حين أظهرت الرضا وأغضيت عما كان بيننا من خلاف . والله يعلم لقد نسيت الفصل بعد نشره في الوادي ، وما تعودت الإعجاب بشيء أكتبه فضلا عن أن أطلب إعادة نشره في صحيفة أخرى . والله يعلم ما تعودت أن أظهر الرضا للأصدقاء وأضمر السخط عليهم ، ولا أن أقبل بينهم وبيني صلحاً مدخولا . وإذاً فقد

كان عتاب منى للرسالة ورد من الرسالة علىّ ، وخصومة لم تنقض بعد . وإنما عدت إلى ذكر هذه الخصومة وقصتها لأن الرسالة نفسها هى التى اضطرتنى إلى هذه العودة ، لا لأنها عرضت لى ، فهى لم تعرض لى فى هذه الأسابيع بخير ولا شر ، ولكن لأنها عادت إلى شىء يشبه ما تورطت فيه معى من هذه الخصومة ؛ فقد احتفلت لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ حين ببلوغها سن العشرين ، وأصدرت كتاباً تذكارياً صغيراً فيه فصول عن اللجنة وحياتها وأعمالها لبعض الأصدقاء . وقد وزع الكتاب علينا يوم الاحتفال ، ولم نكن كثيرين ، وكنا نحب لهذا الكتاب أن يكثر الذين يأخذونه ويقرءونه ، ليكثر الذين يعلمون من أمر لجنتنا ما نحب أن يعلم . ولم تمض أيام على هذه الحفلة وإذا أنا أنظر فى الرسالة فأرى مقالا للأستاذ أحمد زكى عن لجنة التأليف والترجمة والنشر . وإذا هذا المقال قد أخذ من هذا الكتاب التذكارى أخذاً دون أن يذكر هذا الكتاب أو يشار إليه . ثم تصدر الرسالة أول من أمس فأرى فيها فصلا آخر للأستاذ أحمد أمين ، فإذا هو قد أخذ عن هذا الكتاب أخذاً دون أن تذكر الرسالة هذا الكتاب أو تشير إليه . والغريب أن الأستاذ أحمد أمين كان ألقى علينا هذا الفصل يوم الاحتفال قبل أن يوزع علينا الكتاب بلحظات . وأكبر الظن أن الرسالة تريد أن تمضى فى نشر هذه الفصول التى اشتمل عليها هذا الكتاب دون أن تذكر الكتاب أو تشير إليه حتى تأتى على آخر هذه الفصول .

هذا كثير ، وهو خليق أن تضيق به الرسالة نفسها لو أن صحيفة أخذت بعض فصولها أخذاً ولم تضفها إليها . وأيسر ما ينبغى للأدباء وللصحافيين أن يضيفوا إلى الناس ما يأخذونه عن الكتب والصحف .

ولون آخر من ألوان هذا الشر لاحظه كاتب أديب من أهل الإسكندرية على بعض الكتّاب ؛ فقد نشر بعض الكتاب فصلا فى البلاغ منذ حين ، فلما قرأه أديب الإسكندرية ذكر أن له به عهداً ، فلما استقصى تبين أن هذا الفصل نفسه قد نشر فى مجلة التربية الحديثة التى تنشرها الجامعة الأمريكية . وفى هذا النوع من الشر ، عبث بالصحيفة التى أعيد فيها نشر المقال دون أن تعرف أنه قد نشر من قبل ، وعبث بالقراء الذين كان من حقهم على الكاتب أن ينبئهم بأنه يعيد لهم نشر مقال قد نشر من قبل فى مجلة لا يقرؤها إلا فريق بعينه من الناس .

هذه الألوان المختلفة من الشر تشترك كلها فى شىء واحد ، هو أنها تصدر عن ضمير أدبى يحتاج إلى أن يعظم حظه من نزاهة الأدب . وكنت فى أول هذا الفصل أبحث عن القاضى الذى يمكن أن ترفع إليه هذه الخصومات ، ولكنى لم أفرغ من تسجيل الخصومات نفسها حتى اهتديت إلى القاضى ، وهو ضمير الأدباء أنفسهم . فمن الناس من يحتاج إلى السوط والعصا ، ولكن منهم الأحرار الذين تكفيهم المقالة ، كما يقول الشاعر القديم ، وأنا أشهد أن أدباءنا كلهم أحرار . وأرجو ألا ينكر علىّ هذه الشهادة أحد لعله أن يكون أعلم منى بشئون الأدب والأدباء .

فهرس

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٥٠٩١
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٦٩٦-٣	ISBN

١ / ٨٩ / ١٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

كتب أخرى للمؤلف

● فى المباحث الإسلامية : مرآة الإسلام

● فى الأدب والنقد :

فى الأدب الجاهلى — فصول فى الأدب والنقد

حديث الأربعاء (٣ أجزاء) — تجديد ذكرى أبى العلاء

مع المتنبى — مع أبى العلاء فى سجنه

من حديث الشعر والنثر — ألوان — جنة الشوك

● فى أدب التمثيل : من الأدب التمثيلى اليونانى

● فى القصة والرواية :

الحب الضائع — دعاء الكروان

شجرة البؤس — صوت باريس

المعذبون فى الأرض — ما وراء النهر

● فى التراجم والسير :

على هامش السيرة (٣ أجزاء) — الوعد الحق

عثمان — على وبنوه

الشيخان — قادة الفكر

الأيام (٣ أجزاء) — أديب

● فى الاجتماع : نظام الأثينيين

● فى التربية : مستقبل الثقافة فى مصر

● فى سلسلة اقرأ :

أحلام شهر زاد — الحب الضائع

الوعد الحق — رحلة الربيع

المعذبون فى الأرض — صوت أبى العلاء